نفحات القرآن

الجزء الثاني

المؤلف

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

نفحات القرآن
تمهيد:
كل هذه التفاسير القرآنية لماذا؟!
التوجّه نحو الله ومعرفته في القرآن الكريم
أسئلة مهمة ومصيرية:
محفزات البحث عن الله
تمهيد :
«الحافز العقلي» ونستمع خاشعين للآيات أدناه:
جمع الآيات وتفسيرها:
التحقيق هو الواجب الأول لكل إنسان:
النتيجة:
توضيحات:
تمهيد:
جمع الآيات وتفسيرها:
شكر المنعم سلّم إلى معرفة الله:
شكر المنعم في الروايات الإسلامية:
تمهيد:
توضيحات:
براهين معرفة الله:
بُرهـان النظم
التمهيد:
مميزات برهان النظم:
أسس برهان النظم:
علاقة «النظام» و «العلم»:
آياته في خلق الإنسان
شرح المفردات:
جمع الآيات وتفسيرها:
آيات الأنفس الأولى:
آياته في نمو الجنين
تمهيد:
شرح المفردات:
جمع الآيات وتفسيرها:عالم الجنين الغامض:
توضيحات:
آياته في عالم الحياة
تمهيد:
شرح المفردات:
جمع الآيات وتفسيرها:خَلقُ الحياة آية الخلق:
التوضيحات:
آياته في خلق الروح
تمهيد:
شرح المفردات:
جمع الآيات وتفسيرها:
التوضيحات:
أصالة وإستقلال الروح:
توضيحات:
آياتُه في حالتي النوم واليقظةِ
تمهيد:
شرح المفردات:
جمع الآيات وتفسيرها:
توضيحات:
آياته في بسط السماوات والارض
تمهيد:
شرح المفردات:
جمع الآيات وتفسيرها:
النتيجة:
توضيحات:

والقمر والنجوم
تمهيد:
جمع الآيات وتفسيرها:
توضيحات:
آياتُهُ في خلقِ الليل والنهار
تمهيد:
جمع الآيات وتفسيرها:
التوضيحات:
آياته في خلق الجبال
تمهيد:
شرح المفردات :
جمع الآيات وتفسيرها:
التوضيحات:
آياته في تكوين الغيوم
تمهيد :
شرح المفردات :
جمع الآيات وتفسيرها:
النتيجة :
التوضيحات :
آياته في حدوث الرعد والبرق
التمهيد :
شرحُ المفردات :
جمع الآيات وتفسيرها :
التوضيحات :
آياته في خلقِ البحار والفُلك
تمهيد :
شرح المفردات :
جمع الآيات وتفسيرها :
اولها:
وثانيها:
توضيحات:
آياتُهُ في خلقِ الظِّلال
تمهيد :
آياته في خلق الطيور
تمهيد :
شرح المفردات :
جمع الآيات وتفسيرها:
توضيحات :
آياتُه في حياة النحل
تمهيد :
شرحِ المفردات :
لنزورَ بلاد النحل :
توضيحات:
آياته في خلق الحيوانات
تمهيد:
شرح المفردات:
ماذا يجري عالم الحيوانات؟
توضيحات:
آياته في خلق أعضاء الجسم
تمهيد:
جمع الآيات وتفسيرها:
توضيحات:
آياته في الحياة الاجتماعية
تمهيد:
شرح المفردات:
توضيحات:
كلمة الختام:

[١]

نفحات القرآن

الجزء الثاني

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

[٢]

[٣]

[٤]

.

تمهيد:

.

كل هذه التفاسير القرآنية لماذا؟!

يقول أحد الأخوة: سمعت أن هناك ألفي تفسير للقرآن، مع ان القرآن ليس سوى حقيقة واحدة. أو لم يَحِن الوقت لأن يجتمع علماء الاسلام (خاصة في الحكومة الأسلامية) ويحددوا أمر تفسير الآيات القرآنية؟

فقلت: يا أخي لقد فاتتك عدة نقاط مهمة.

١ ــ يجب أن لا ننسى أن للقرآن أبعاداً كثيرة وزوايا متعددة، وكل واحد من المفسرين ينظر إليه ويفسره من بعد خاص وزاوية معينة. فالقرآن في ذلك كباقة ورد ثمينة ينظر إليها «المزارع» كونها محصولا ذا إيرادات عالية.

وينظر إليها «الصيدلي» من زاوية أن أوراقها نافعة للمرض الفلاني، وسيقانها مجدية لعلاج مرض آخر، وكل من جذورها وأزهارها مفيد لمعالجة مرض معين.

و «الشعراء» يرونها بلحاظ أنها ملهمة لألطف الأشعار وصانعة للقرائح الغنية. أوراقها كخدود الشهداء، وبراعمها كأفواه الطيبين، ولونها وطراوتها ورائحتها تذكر الأنسان بلون ورائحة

الأحباب.
وأخيراً، يرى «الفيلسوف الألهي» آثار المعبود الكبير في كل جزء من أجزاء هذه الباقة من الورد، ويسمع بقلبه من كل ذراتها حمد وتسبيح شاهد الشاهدين، ويجد في رقتها ولطافتها ونظامها وحساباتها الدقيقة علامة لمن لا علامة له. ثم يترنم بهذا الشعر المعروف:
كل ورقة من أوراق الأشجار الخضراء في نظر الحاذق سِفر لمعرفة الصانع.
ولهذا نظر المفسرون «الأدباء» واللغويون للقرآن من بُعد الفصاحة والبلاغة،

[٥]

والمفسرون «الفلاسفة» من البُعد الفلسفي، و «المؤرخون» نظروا لأبعاده التاريخية، «والمطلعون على العلوم الطبيعية» يتحدثون عن كشف القرآن النقاب عن اَسرار العالم، و «معلمو الأخلاق » يبحثون ويفسرون القرآن من بُعد برامجه التربوية المؤثرة، و «الفقهاء والحقوقيون» يتناولون القضايا الحقوقية وآيات الأحكام فيه، ويتحدث «المتكلمون» عن المعارف القرآنية السامية على صعيد المبدأ والمعاد. والخلاصة هي «كلٌ يتحرّق بِنَوع من التحرق في هموم الحبيب».
وإننا لا نعرف من نظر إلى القرآن وفسره من كل إبعاده، إذ لا يمكن لأي إنسان أن يتخصص في جميع العلوم والفنون.
٢ ــ إن القرآن بمثابة البحر اللامتناهي الذي يصل كل واحد من المفسرين إلى حد معيّن مِنْ عمقه ويعود ببعض الجواهر.
في زمان ما لم يكن الغواصون ليبحثوا عن «اللؤلؤ» و «المجوهرات» في بحار العالم إلاّ ضمن عمق قليل جداً. ولكن كلما إكتملت المعدات للغوص في البحار إستطاعوا أن يصلوا إلى مواطيء أعمق ويكتشفوا عوالم جديدة ويظفروا بجواهر ومعادن باكرة.
وهكذا فانه كلما إرتفع مستوى الفكر والعلوم الانسانية بمرور الزمان كان المحققون والمفسرون على إستعداد اكثر للغوص في أعماق الكلام الألهي، والظفر بجواهر جديدة. وكما نعلم فليس من الممكن تصور نقطة نهاية لهذه الجهود، لأن الكلام الالهي كذاته الطاهرة (ذات الله) غير متناه.
وهذه هي أسباب تنوع وكثرة التفاسير.
٣ ــ أضف إلى ذلك أن إكتشاف الحقائق يحصل دائماً باصطدام الأفكار مع بعضها كما تقدح الشرارة من إصطدام الحجر والفولاذ. إذن يجب أن لا نخشى أبداً من تعدد وكثرة كتب التفسير، بل إنها من نقاط القوة المهمة التي يجب أن تستمر.
* * *

وإننا لمسنا هذه الحقيقة جيداً بعد أن ولجنا في التفسير الموضوعي، لأننا

[٦]

كلما تعرفنا على هذا الكتاب السماوي الكبير اكثر نجد أن أبواباً جديدة من معارف وكنوز حقائق القرآن تكشف لنا، حقائق لم تُكتشف بهذا المقدار في التفسير الترتيبي. وإننا لنحمد الله على هذه النعمة الكبيرة.

واجه المجلد الأول من هذا التفسير والحمد لله «توفيقاً» و «إستقبالا تاماً» بحيث نفذت سبعة آلاف نسخة منه إنتشرت قبل نشر المجلد الثاني. وهذه علامة جيدة على التعرف المتزايد لأجوائنا على القرآن ومعارفه.

ولنا في هذا المجال كلام آخر نوكله إلى ما بعد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قم ــ الحوزة العلمية ــ ناصر مكارم الشيرازي

ربيع الثاني ١٤٠٩ ق

الموافق لشهر آذر ١٣٦٧ ش

[٧]

[٨]

بِسْمِ اللهِ الرَّحمــنِ الرَّحِيْمِ

اَلْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعــالمِيْنَ وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلى

خَيْرِ خَلْقِهِ مُحَمَّد وآلِهِ الطَّيبيْنَ الطّاهِرِيْنَ

لا سِيَّما اْلأَمامِ الْمَهْدِيّ الْمُنْتَظَرِ

أرْواحُنا فِداهُ

[٩]

[١٠]

التوجّه نحو الله ومعرفته في القرآن الكريم

تاريخ البدء:
الثامن من رجب المرجب ١٤٠٨ هـ. ق
الموافق لـ (٧ / ١٢ / ١٣٦٦) هـ. ش

[١١]

[١٢]

.

أسئلة مهمة ومصيرية:

الكل يريد أن يعرف أجوبة هذه الأسئلة المشهورة:
من أين جئنا؟
أين نحن؟
وإلى أين نذهب؟
وبالطبع فثمة سؤال مهم آخر إلى جانب هذه الإسئلة الثلاثة وهو:
«لماذا جئنا؟» هل كان لمجيئنا غاية؟ وإن كانت له غاية فما هي؟.
وما هي الوسائل المتوفرة لدينا من أجل الوصول إلى هذه الغاية؟
من هو المبدأ الأصلي لهذا العالم، ومن أين نَبَعَ عالم الخلقة؟
وأخيراً، هل هناك طريق لمعرفة هذا المبدأ الكبير؟
هذه هي أهم أسئلة البشر.
*** * ***

إن الذين لا يرون ضرورة في العثور على أجوبة هذه الأسئلة هم الغرقى في الحياة المادية اليومية إلى درجة أنهم لا يفكرون في شيء سوى «النوم والأكل والجنس». فهم كالـ «حيوان» لا علم له بـ «العالم الانساني».
أو أنهم سعوا وحاولوا العثور على جواب هذه الأسئلة لكنهم لم يصلوا إلى شيء، فيئسوا وكفوا عن البحث.
وإنطلاقاً من أن «السؤال» هو حافز «الحركة» دائماً، الحركة نحو الأجوبة، وأن الأسئلة كلما كانت متنوعة وعميقة كانت الحركة أوسع واكثر تجذراً، لهذا يجب أن تستقبل الأسئلة الكبيرة

بوجه منفتح، ولا نخشَ كثرة الاسئلة واهميتها، بل نستقبلها بكل رحابة صدر.
ويمكن أن تكون محصلة عمر الأنسان ليست في الحقيقة شيئاً سوى العثور

[١٣]

على أجوبة الأسئلة. وأن نتيجة جهود كل علماء العالم والفلاسفة وعلماء العلوم الطبيعية بلا إستثناء هي الأجابة على بعض هذه الأسئلة.
يحاول علماء الفلك أن يشرحوا كيفية ظهور السماوات والنظام الذي يحكمها.
وعلماء الجيولوجيا يجيبون على الاسئلة ذات العلاقة بظهور الأرض وتركيبها.
وعلماء الأنثربولوجيا والتحليل النفسي وكل الذين يدرسون العلوم الأنسانية والأجتماعية يريدون أن يعثروا على أجوبة الأسئلة المتعلقة بهذا الموجود العجيب المسمى بـــ «الأنسان».
ويريد الفلاسفة بمساعيهم المتواصلة أن يطلعوا على حقيقة المبدأ ومصير العالم ــإلى الحد الذي يستطيع عقل البشر أن يصل إليه ــ أو الأجابة على بعض الأسئلة المتعلقة بهذا المجال على الأقل.
نستنتج مما ذكرناه أنه إنْ كان البحث حول «الخالق لعالم الوجود» ومبدأ هذا العالم الكبير الذي نعيش فيه من أقدم البحوث وارسخ الأسئلة الأنسانية ، فليس ذلك أمراً عجيباً.
ولهذا نرى من واجبنا السعي بقدر أستطاعتنا للعثور على جواب هذه الأسئلة:
من هو مبدأ عالم الوجود؟ وكيف تمكن معرفته؟!

[١٤]

محفزات البحث عن الله

[١٥]

[١٦]

.

تمهيد :

قلنا إنّهُ لا توجد حركة بدون محفز، وبالطبع فلا يمكن للحركة في طريق معرفة مبدأ عالم الوجود أن تكون بلا محفز. ومن هنا يذكر الفلاسفة والعلماء ثلاثة محفزات أساسية للبحث عن الله، وجميعها مشار إليها في القرآن الكريم اشارات واضحة.

١ ــ الحافز العقلي.
٢ ــ الحافيز الفطري.
٣ ــ الحافز العاطفى.
وللبعض من هذه الحوافز فروع خاصة بها.
لنبتدأ أولا بـــ .

«الحافز العقلي» ونستمع خاشعين للآيات أدناه:

١ ــ (يــا أيُّهَــا الَّذِيْنَ آمَنُوا استَجِيْبُوا للهِ وَلِلرَّسُوْلِ إذا دَعــاكُمْ لِمــا يُحْيِيْكُمْ)(١).
٢ ــ (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ إذْ بَعَثَ فِيْهِمْ رَسُولا مِنْ أنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيــاتِهِ وَيُزَكّيْهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتــابَ والْحِكْمَةَ وإنْ كــانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِيْ ضَلال مُبِيْن)(٢).
٣ ــ (لَقَدْ أرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبيِّنــاتِ وَأنْزَلْنــا مَعَهُمُ الْكِتــابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النــّاسُ بالْقِسْطِ)(٣).
٤ ــ (يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهــاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُم الطَّيبــاتِ

---

(١) (الانفال الآية: ٢٤).
(٢) (آل عمرانالآية:١٦٣) .
(٣) (الحديدالآية:٢٥).

وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبــائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إصْرَهُمْ وَالأغْلالَ الَّتي كــانَتْ عَلَيْهِمْ)(١).
٥ ــ (قــالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إذْ تَدْعَوْنَ أوْ يَنْفَعُوْنَكُمُ أوْ يَضُرُّونَ... فَإنَّهُمْ عَدُوٌّ لِيْ إلاّ رَبَّ الْعــالَمِيْنَ)(٢).
٦ ــ (فإنْ أعْرَضُوْا فَقُلْ اَنْذَرْتُكُمْ صــاعِقَةً مِثْلَ صــاعِقَةَ عــاد وَثَمُوْدَ)(٣).
٧ ــ (قُلْ إنَّمــا أعِظُكُمْ بِواحِدَة أنْ تَقُومُوا للهِ مُثْنَى وَفُرادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مــا بِصــاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّة إنْ هُوَ إلاّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَي عَذاب شَدِيد)(٤).
* * *

.

جمع الآيات وتفسيرها:

.

التحقيق هو الواجب الاول لكل إنسان:

الأنسان يعشق الكمال، ويعتبر هذا العشق عشقاً خالداً عند كل الناس، يبقى أن كل إنسان يرى كماله في شيء معين، فيذهب نحوه، والبعض يذهبون باتجاه السراب بدل الماء ويلهثون خَلْفَ القيم الوهمية والكمالات الخيالية ويتصورونها واقعاً.
قد يسمى هذا المبدأ أحياناً بـــ «غريزة حب المنفعة ودفع الضرر» التي يجد الأنسان على ضوئها بأنه ملزم أن يكون له تعامل جاد مع كل موضوع يتعلق بمصيره (بلحاظ النفع والضرر).
لكن إطلاق كلمة «غريزة» على هذا العشق أمر غير سليم، فالغريزة عادة

---

(١) (الأعرافالآية:١٥٧).
(٢) (الشعراءالآية:٧٧،٧٣،٧٢).
(٣) (فصلتالآية:١٣).
(٤) (سبأالآية:٤٦) .

تطلق على أمور تؤثر في افعال البشر أو باقي الأحياء بدون تدخل التفكير، ومن هنا تستعمل بالنسبة للحيوانات ايضاً.
وَعلى هذا الأساس فمن الأفضل أن نستخدم عنوان (الميول السامية) التي استعملها بعض العلماء لمثل هذه الموارد.
وعلى كل حال، فهذا العشق للكمال والميل نحو المصالح المعنوية والمادية ودفع كل انواع الضرر يجبر الانسان على التحقيق حتى في مواضع الاحتمال، وكلما كان هذا الأحتمال أقوى، وذلك النفع والضرر أعظم، كان التحقيق والنظر أوجب.
من المستحيل أن يحتمل شخص تأثير أمر مهمّ في مصيره، ولا يرى من واجبه التحقيق حوله.
وقضية الاَيمان بالله والبحث عن الدين تعتبر من هذه القضايا بلا شك. لأن هنالك في محتوى الدين كلام عن القضايا المصيرية، وعن القضايا التي يرتبط خير وشر الانسان إرتباطاً وثيقاً.
البعض يذكر مثالا من أجل إيضاح هذا الأمر، فيقولون: لنفترض أننا نجد إنساناً واقفاً على مفترق طريقين ونسمعه يقول: إنَّ البقاء هنا خَطَرٌ يقيناً، واختيار هذا الطريق (اشارة إلى أحد الطريقين) هو الآخر خطر، والطريق الثاني هو طريق النجاة، ثم يذكر قرائن وشواهد لكل ما

قاله. فما من شك أن أي عابر سبيل يرى نفسه ملزماً بالتحقيق ويعتقد أن اللاأبالية إتجاه هذه الأقوال مخالفة لحكم العقل. وبلحاظ هذه المقدمة ننتقل إلى تفسير الآيات.

* * *

إن أول آية من الآيات المعنية تَعتبر دعوة رسول الله إلى الأسلام دعوةً إلى العيش والحياة الحقيقية، وَتدل هذه الدعوة على أن بالأمكان جمع كل محتوى الأسلام في مفهوم «الحياة»، الحياة التي تشمل الحياة المعنوية وتشمل الحياة المادية، حياة جامعة.
مع ان البعض فسر معنى الحياة هنا بأنه بخصوص «القرآن» أو «الأيمان» أو

«الجهاد»(١)، لكن مما لا شك فيه أن الحياة مفهوم واسع يشمل كل هذه العناوين المذكورة وكل ما هو مؤثر في حياة الأنسان المعنوية والمادية.
وعلى كل حال، إذا دعانا شخص بمثل هذه الدعوة فهل يمكن أن نغض الطرف عن دعوته ولا نرى من واجبنا حتى التحقيق في الأمر؟.
هنا يريد القرآن بهذا التعبير أن يُوجد حافز الحركة نحو التحقيق حول الدين في كل من له القابلية على هذه الحركة.
يقول الراغب في كتاب «المفردات»: إن حقيقة «الاستجابة» هي السعي والقابلية على إستلام الجواب، ولأن هذا الموضوع ينتهي عادةً بالجواب فقد فسروه بمعنى «الاَجابة»(٢).

* * *

الآية الثانية تعدُّ بعثة الرسول من أكبر النعم الألهية التي منحت للمؤمنين، ثم تذكر في تفسير هذه النعمة ثلاثة برامج مهمة للرسول: تلاوة الآيات الاَلهية (يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيــاتِهِ)، والتزكية والتربية (وَيَزَكِّيهِمْ)، وتعليم الكتاب والحكمة (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتــابِ والْحِكْمَةَ).
ونتيجة كل هذه هي النجاة من «الضلال المبين» (وَإِنْ كــانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِيْ ضَلال مُبِيْن).
إن كل هذه التعابير هي من أجل إحياء محفزات الحركة نحو الأسلام في الناس، ومن أجل أن يرى كل أنسان نفسه ملزماً بالتحقيق حول الاسلام على الأقل. لأنه من الممكن أن يكون اكبر نفع وضرر للأنسان كامناً فيه.
(المِنّة) من مادة «مَن» وهي في الأصل كما يعتقد البعض بمعنى القطع،

---

(١) ذكرت هذه الاحتمالات عن المفسرين في: تفسير الفخر الرازي المجلد ١٥ ص١٤٧ وتفسير الميزان

المجلد ٩ ص ٤٣ وروح المعاني المجلد ٨ ص ١٦٩ والقرطبي المجلد ٤ ص٢٨٢٥.
(٢) ولكن يجب الالتفات إلى أن «الاَجابة» تكون فعلا متعدياً بدون حرف الجر، في حين أن «الاستجابة » تذكر غالباً مع حرف اللام.

لهذا فإن (أجرٌ غير ممنون) بمعنى ألثواب الذي لا ينقطع أبداً. وكذلك يقال للقطرات الصغيرةِ المستقرة على الاشجار كقطرات الندى والتي تتصف بطعم حلو (نوع من أصماغ وترشحات الأشجار ذات طعم حلو) يقال لها «من».
ولكن يعتقد الراغب أن «المن» في الأصل بمعنى الحجر الذي يَزِنون به، والذي أطلق فيما بعد على النعم الكبيرة الثقيلة.
وحين تستخدم هذه المفردة عن الله تعني «منح النعم» وحين تستخدم عن البشر تعني غالباً التحدث بالنعمة التي يجزلها الانسان لغيره، من هنا كان معناها الأول إيجابياً والثاني سلبياً ومذموماً.
* * *

الآية الثالثة تشير إلى هدف مهم آخر من أهداف بعثة الأنبياء، أي مسألة «العدالة الأجتماعية»، فتقول: إننا جهزنا الرسل بثلاثة أشياء: اولا: البراهين الواضحة التي تشمل «المعجزات»، و «البراهين العقلية» (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَــا بِالْبَيِّنَــاتِ).
ثانياً: الكتاب السماوي الذي يشرح معارف ووظائف كل الناس.
وثالثاً: الميزان الذي يمكن بواسطته قياس الحق والباطل (القوانين الالهية وتبيان القيم واللاقيم التي تكون معياراً في قياس الخيرات والشرور) (وَأَنْزَلْنَــا مَعَهُمُ الْكِتَــابَ وَالميزان).
(الميزان) في الأصل هو الوسيلة التي توزن بها الأشياء، والعجيب أن بعض المفسرين فسر «الميزان» في الآية أعلاه بهذا المعنى في حين رفض اكثر أَلمفسرين هذا الرأي وقال: إنَّ المراد من الميزان هو الوسيلة التي يحدد بها الإنسان العدالة، الزيادة والنقص والحق والباطل.
وكما قلنا يمكن تفسيره بـــ «القوانين الإلهية» و «القيم واللاقيم».
صحيح أن هذه الأمور مذكورة في نص الكتب السماوية، ولكن ذكرها بشكل مستقل جاء بسبب أهميتها.

وعلى كل حال، هل من الممكن أن يسمع إنسان بأن شخصاً يدعي وجود مثل هذه الحقائق المصيرية ولا يرى أنه ملزم بالتحقيق حولها؟.

يقول الفخر الرازي: الناس ثلاثة انواع: نوع في مقام «النفس المطمئنة» وهم المعنيون بالآية (أَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ). النوع الثاني في مقام «النَفسِ أللَّوامة» وهم اصحاب اليمين الذين يحتاجون إلى معيار قياسي من أجل المعرفة والأخلاق، ليكونوا في أمان من الافراط والتفريط، وهم المقصودون بتعبير (الميزان). النوع الثالث هم أصحاب «النفس الأمارة» الذين تعنيهم الآية (انزلنا الحديد) أي هم المستحقون للعقاب والجزاء.(١)

* * *

في الآية الرابعة إشارة إلى الأبعاد المختلفة لبعثة الانبياء ونزول الاديان السماوية، خاصة البعد الإجتماعي والسياسي. وفيها ذكر لبعض أوصاف رسول الله((صلى الله عليه وآله وسلم)) فقد جاءت لترغيب الناس في إتباعه. منها (يَأمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وينْهاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُم الطَّيباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إصْرَهُمْ وَالاْغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ).

لا شك أن هذه أمور مصيرية وذات علاقة وثيقة بمسألة تكامل الإنسان وخيره وشرِّه، بل مجرد احتمالها يكفي لدفعه نحو التحقيق.

(الأِصر) على وزن مصر، يعني في الأصل الربط وحبس الشيء بقوة وعنوة، ثم أُطلقت على الحمل الثقيل والاعمال الشاقة التي تعوق الانسان عن النشاط. ولهذا سُميت الجبال والمسامير التي تربط بها الأعمدة «آصار»، ولهذا أيضاً سمي العهد والوعد والذنب بالإصر.(٢)

يمكن الاستنباط من التعابير التي وردت في كلمات أرباب اللغة والمفسرين

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى، المجلد ٢٩ ص ٢٤١.

(٢) تفسير مجمع البيان، المجلد ٤، ص ٤٨٨ والفخر الرازي المجلد ١٥ ص ٢٥ وروح المعانى، المجلد ٩ ص ٧٢ ومفردات الراغب، مادة «إصر» وكتاب العين المجلد٧ ص١٤٧.

أن مفردة «إِصر» بمعنى الجسم الثقيل الذي يُربط بقدم السجين لكي لا يستطيع أن يتحرك. وإنَّ ذكره إلى جانب الأغلال وهي الأطواق والسلاسل التي تقيد بها الأعناق يناسب هذا المعنى، ثم أطلقت هذه المفردة على معنى آخر يتناسب وأصل الكلمة.

مع إن الكثير من المفسرين فسروا «الإِصر» و «الأغلال» في هذه الآية بمعنى التكاليف الشاقة أو الإمتحانات العسيرة والمعقدة التي حلّت بالامم السابقة. لكن الظاهر أن لهاتين المفردتين

مفهوماً أوسع وأشمل يستوعب كل أنواع قيود الاسر والحمل الثقيل الذي يسببه «الجهل» و «الشهوات» و «الذنوب» و «الاستبداد» و «الأِستعمار» وما شاكل. وهي أمور ترتفع تحت ظل وجود رسول الله وتعليماته التحريرية.

* * *

الآية الخامسة كلام عن لسان محطم الأوثان ابراهيم((عليه السلام)) عندما خاطب الوثنيين موبخاً إياهم على عملهم القبيح هذا (عبادة الأصنام)، وقال من أجل إيقاض عقولهم النائمة: (هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُوْنَ أَوْ يَنْفَعُوْنَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ؟!) فلابد للعبادة أن تكون إما من أجل الربح والمنفعة أو من أجل دفع الضرر والعقاب.

وبالطبع لم يكن لديهم أجوبة إيجابية على هذه التساؤلات سوى الإعتصام بإتباع وتقليد السلف والقول: (بَلْ وَجَدْنَا آبَائَنَا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ).

تدل هذه التعابير جيداً بأن حافز النفع والضرر (ليس النفع والضرر المادي فحسب فالنفع والضرر المعنوي أفضل وأرفع منه) ويمكن أن يكون حافزاً للحركة باتجاه معرفة الله.

* * *

حول نزول آيات سورة فصلت وهي الآية السادسة في بحثنا، نقرأ أن «أبا جهل» سأل «الوليد بن المغيرة» وهو من رجال العرب الجاهليين المعروفين والذين

يُرجَع إليهم ويستشارون عند المعضلات: ما هذا الذي يقوله «محمد»؟ أهو سحر؟ أهو تكهّن؟... فقال «الوليد»: يجب علي أن أذهب إليه وأتحقق. وعندما جاء إلى النبي((صلى الله عليه وآله وسلم)) قرأ له بعضاً من آيات سورة فصلت إلى أن جاء إلى الآية المنظورة في بحثنا (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَاد وَثَمُوْدَ).

فارتجف «الوليد» لسماع هذه الآيات وإنتصب الشعر في جسده مقشعرّاً، فنهض من مكانه وعاد إلى بيته وأغلق الباب على نفسه، حتى ظن اكابر قريش أنه يميل نحو الدين الإسلامي، وعندما جاؤوا إليه وسألوه عن شأنه، قال: ما صبوت (اي لم أُسلم) واني على دين قومي وآبائي ولكني سمعت كلاماً صعباً تقشعرّ منه الجلود، فلا هو بالشعر ولا بالخطب ولا بالكهانة، ولما قيل له: إذن ما نقول فيه؟ قال: قولوا هو سحر. فانه آخذ بقلوب الناس.(١)

أولا يمكن لمثل هذه التهديدات الواردة في الآيات القرآنية وبقيّة المصادر الدينية أن تكون حافزاً على التحرك نحو التحقيق (بالنسبة لمن لم يؤمنوا لحد الآن).

* * *

في الآية المعينة السابعة من البحث، أُمِر الرسول((صلى الله عليه وآله وسلم)) أن يخاطب جميع معارضيه ويعضهم بمسألة واحدة (قُلْ إنَّمـــا أعِظُكُمْ بِواحِدَة أنْ تَقُومُوا لله مُثْنَى وَفُرادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مـــا بِصـــاحِبِكُمْ مَنْ جِنَّة إنْ هُوَ إلاّ نَذِيْرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَي عَذاب شَدِيد...).

كل تعابير هذه الآية تعابير مدروسة.

فالتعبير بـــ (انما) من أجل الحصر.

والتعبير بـــ (الموعظة) يستخدم في المواضع التي يحكم فيها العقل بشيء، ولكن لكون الانسانُ غافلا عنه فهناك شخص حريص آخر يوقظه ويعظُهُ.

---

(١) بحار الأنوار المجلد ١٧ ص ٢١١ وتفاسير أخرى (الأصل في الحديث مفصل وقد نقلناه بتلخيص. لاحظوا تفصيله في التفسير الأمثل (تفسير نمونه) المجلد ٢٠ ص ٢٠٧ إلى٢٠٩.

والتعبير بـــ (القيام) دليل على الإستعداد الكامل لتنفيذ الأهداف الجدية.

والتعبير بـــ (مثنى) و (فرادى) إشارة إلى النشاطات الجماعية والفردية والجهود الشاملة في هذا السبيل «لا شك أن الإنسان يفكر بشكل أعمق عند إنفراده ولكنه يفكر بشكل أكمل حين يكون ضمن الجماعة، لأن الافكار ستتحد مع بعضها. والجمع بين هذين (التفكير على إنفراد وضمن الجماعة) هو أفضل الطرق»(١).

ثم التعبير بـــ (التفكر) الذي ينبع من الصميم ويهدي الإنسان إلى البراهين العقلية الواضحة.

والتعبير بـــ (لكم) هو الآخر ممتزج بمسألة الانذار والإلتفات إلى العذاب الشديد وفيه إشارة إلى أن الموضوع هنا هو نفعكم وضرركم فقط، ولا هدف للنبي((صلى الله عليه وآله وسلم)) سوى هذا.

أفلا يجب والحال هذه أنّ يأخذوا دعوته مأخذ الجد ويفكروا فيها ويعثروا على الحق ثم يتبعوه؟

.

النتيجة:

إن الآيات أعلاه وآيات مشابهة أخرى تكشف النقاب جيداً عن الحافز العقلي للبحث والتنقيب في طريق «معرفة الله» وتدل على أنه لا يمكن لأي إنسان عاقل أن يتقاعس ويسكت أزاء الهتافات العظيمة للرسل الالهيين على صعيد الدعوة الى الله ذات العلاقة الوثيقة بمصير الجميع. وهذا

هو الحافز الأول للتحقيقات الدينية.

* * *

(١) قال بعض المفسرين: مثنى إشارة إلى المناظرة التي لها تأثير كبير في كشف الحق، في حين أن فرادى إشارة إلى القراءة في الوحدة. وإحتمل بعض آخر أن «مثنى» إشارة إلى التفكير الذي يقوم به الانسان خلال النهار ضمن الجماعة و «فرادى» التفكير الذي يحصل في الليل وعند الأنفراد (تفسير القرطبي المجلد ٨ ص ٥٣ و ٩٣).

توضيحات:

١ ــ الحافز العقلي للدين في الروايات الإسلامية:

١ ــ ورد في حديث عن الإمام موسى بن جعفر((عليه السلام)) أن أحد أصحابه سأله عن الضعفاء (المستضعفين) فكتب له الإمام في الجواب: «الضعيف من لم ترفع إليه حجة، ولم يعرف الإختلاف، فإذا عرف الإختلاف فليس بمستضعف»(١).

٢ ــ روي نفس هذا المعنى عن الامام الصادق ((عليه السلام)) في قوله: «من عرف إختلاف الناس فليس بمستضعف»(٢).

وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان حين يطلع على وجود الإختلاف سوف يرغمه عقله على التحقيق والمطالعة (النظر)، وعندها لا يُعتبر مستضعفاً.

وبالطبع فالقصد من «المستضعف» هنا هو «المستضعف فكرياً» الذي نسميه أحياناً بـــ «الجاهل القاصر».

٣ ــ جاء في حديث آخر عن النبي الأكرم ((صلى الله عليه وآله وسلم)): «أربعة تلزم كل ذي حجى وعقل من أمتي. قيل: يا رسول الله ما هنَّ؟ قال: إستماع العلم وحفظه ونشره والعمل به»(٣).

وبهذا يعتبر النبي ((صلى الله عليه وآله وسلم)) الاستماعَ والتحقيقَ من آثار وعلامات العقل والدراية.

---

(١) أصول الكافي، المجلد ٢ ص ٤٠٦، الحديث ١١ (باب المستضعف)

(٢) نفس المصدر، الحديث ١٠.

(٣) تحف العقول، مواعظ النبي، ص ٤٠.

٢ ــ المعاندون الملحّون:

كان دائماً في مقابل الناس الأحرار الذين يرون التحقيق في الحق واجبهم العقلي، جماعة يخشون رؤية وجه الحق كالخفافيش، وحتى لو إرتفع صوت منادي الحق وَدَوّى في آذانهم سدوا آذانهم لكيلا يسمعوا صوت الحق.

ينقل القرآن عن جماعة من قوم نوح ((عليه السلام)) على لسان هذا النبي العظيم عندما إشتكاهم إلى الله: (وإنِّي كُلَّمــا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أصــابِعَهُمْ في آذانِهِمْ وإسْتَغْشَوا ثِيــابَهُمْ وأصَرُّوا وإسْتَكْبَرُوْا إسْتِكْبــاراً)(١).

ولم يكن حال المشركين بأقل من هؤلاء، بل كأنهم وارثو قوم نوح المعاندين الذين ينقل عنهم القرآن: (وَقــالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا لاْ تَسْمَعُوا لِهَذا الْقُرآنِ وَالْغُوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)(٢).

إن هذه الجماعة التي لها أتباع ومقلدون في كل عصر وزمان لا يسمحون لأنفسهم بالتحقيق في

المسائل ابداً، إنهم جهلة حمقى يخافون من نور الشمس كأنهم الخفافيش، يلجؤون إلى الظلمة دائماً، ويفتخرون بالجهل. إنهم اكثر حرماناً من الجميع لأنهم أعداء تفضحهم الشمس.

---

(١) (نوح الآية: ٧).
(٢) (فصلت الآية: ٢٦).

[٢٧]

٢ ــ الحافز العاطفي

[٢٨]

[٢٩]

.

تمهيد:

ثمة مثل معروف يقول: «إنَّ الناس عبيد الأحسان».
ورد نفس هذا المعنى تقريباً في حديث عن أمير المؤمنين الأمام علي((عليه السلام)): «الانسان عبد الإحسان»(١).
ونقرأ في حديث عن نفس الإمام «بالإحسانِ تملك القلوب»(٢).
وفي حديث عن نفس الأمام أيضاً «وأفضِلْ على من شئتَ تكن أميره»(٣).
وجذور كل هذه المفاهيم في حديث الرسول((صلى الله عليه وآله وسلم)) إذ يقول: «إن الله جعل قلوب عباده على حب من أحسن إليها وبغضِ مَنْ أساء إليها»(٤).
والخلاصة هي أن هنالك حقيقة تقول: إنَّ الذي يسدي خدمة لشخص آخر أو ينعم عليه نعمة فسيكون محطاً لعواطفه، ويكون هذا الآخر محباً لصاحب الخدمة والنعمة، يحب أن يتعرف عليه تماماً ويشكره، وكلما كانت هذه النعمة أهم وأوسع، كان تحريك العواطف نحو «المنعم» و «معرفته» اكثر.
ولهذا جعل علماء علم الكلام (العقائد) مسألة «شكر المنعم» ومنذ القِدَم إحدى المحفزات على التحقيق حول الدين ومعرفة الله.
ولكن يجب الانتباه إلى أن «شكر المنعم» هو دستور عاطفي قبل أن يكون حكماً عقلياً.

نختم هذه الاشارة ببيت شعر لأبي الفتوح البستي الشاعر العربي المعروف:
أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ***** فطالما استعبد الانسانَ إحسانُ

.

(١) غرر الحكم.
(٢) غرر الحكم.
(٣) بحار الانوار، المجلد ٧٧ ص ٤٢١.
(٤) تحف العقول، ص ٣٧ (تم كلمات النبي ((صلى الله عليه وآله وسلم))).

بعد هذه الأشارة ننتقل إلى القرآن ونستمع خاشعين إلى الآيات أدناه:
١ ــ (وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهـاتِكُمْ لا تَعْلَمونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأبْصـارَ وَالأفْئدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرونُ)(١).
٢ ــ (وَهُوَ الَّذِيْ سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهـا وَتَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيْهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ)(٢).
٣ ــ (فَكُلُوا مِمـّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالا طَيِّباً وإشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ إنْ كُنْتُمْ إيـّاهُ تَعْبُدُوْنَ)(٣).
* * *

.

جمع الآيات وتفسيرها:

.

شكر المنعم سلّم إلى معرفة الله:

تتحدث الآية الأولى عن أهمية النعم الألهية لتحرك في الناس حس الشكر وتدعوهم عن هذا الطريق إلى معرفة «المنعم». إنَّ الحديث عن النعمة وسيلة للمعرفة يتحدث القرآن عن «العين» و «الأذن» و «العقل»: (واللهُ الَّذي أخْرَجَكُم مِنْ بُطُونَ اُمَهاتَكُم لا تَعْلَمُوْنَ شَيئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأبْصـارَ وَالافْئِدَةَ).
فعن طريق السمع تتعرفون على العلوم النقلية ومعارف الآخرين.
وعن طريق البصر ومشاهدة أسرار الطبيعة وعجائب الخلقة تتعرفون على العلوم التجربية،
وعن طريق العقل تتعرفون على العلوم العقلية والتحاليل المنطقية.

ومع ان هذه المواضيع الثلاثة معطوفة على بعضها في هذه الآية بالواو ولا تعني بالضرورة الترتيب، إلاّ أنهُ ليس من المستبعد أن يكون هذا هو الترتيب الطبيعي

---

(١) (النحل الآية: ٧٨).
(٢) (النحل الآية: ١٤) .
(٣) (النحل الآية: ١١٤).

لها. لأن الانسان لا يمتلك القدرة على النظر والمشاهدة إلى حدود فترة بعد ولادته، ولأنه معتاد على الظلام فهو يخاف من النوع ويغلق عينيه إلى مدة. في حين أن الاذن تسمع أول الأصوات. ومن الواضح أن القدرة العقلية والتمييز والشعور تحيى في الإنسان بعد السمع والبصر، خاصةً وأن «الفؤاد» كما يصرح أرباب اللغة بمعنى «العقل الناضج العميق» ولا يفيد أية مرحلة بسيطة من العقل، وطبعاً فإن مثل هذا الشيء يظهر بعد ذلك.
فضلا عن ان الآية أعلاه يمكن أن تكون إشارة إلى حقيقة أن الوصول إلى «الكليات العقلية» يأتي بعد العلم بـــ «الجزئيات» عن طريق الحس. وعلى كل حال، فالآية أعلاه تصرح أن الهدف من إسداء هذه النعم هو تحريك حس الشكر في البشر، والذي يدعوهم بالنتيجة إلى محبة الخالق ومعرفة الله وإطاعة أوامره.
وبالطبع فإن هذا لا يتناقض مع كون بعض العلوم الإنسانية علوماً فطرية لأن المعلومات الفطرية عند الولادة موجودة في طبيعة الإنسان على شكل الإستعداد والقابلية، وليس لها طابع الفعلية، ثم تثمر بعد ذلك.
* * *

الآية الثانية تشير إلى ثلاث نعم إلهية أخرى تتعلق جميعها بتسخير البحار وتعتبرها دافعاً نحو الاستمداد من فضل الله وشكره.
أولا اللحوم التي تتوفر عن طريق البحر والمسماة بـــ (لَحْماً طَرِياً). اللحم الذي لم يبذل الانسان جهد تربيته أبداً، وإنما ربته يد القدرة الالهية في قلب البحار ووضعته في متناول ايدي الانسان مجاناً، يعتبر نعمة كبيرة، خاصة في عصر وزمان كانت تكثر فيه اللحوم الفاسدة وكان الناس يضطرون إلى الإحتفاظ باللحوم الى فترة معينة عن طريق تمليحها أو شوائها وتجفيفها تحت اشعة الشمس. كانت هذه اللحوم تسبب الكثير من الأمراض والتسمم للمسافرين، في حين كانوا

يستخدمون اللحكم الطازج بكل سهولة في اسفارهم البحرية أو الساحلية.
ثم تشير إلى المواد التجميلية المستخرجة من قلب البحار والمستخدمة من

قبل البشر وتقول: (وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهــا).
أي أن الله وفر لكم أكثر المواد الغذائية ضرورةً حتى الحاجات ذات الطابع التجميلي الصرف.
وفي المرحلة الأخيرة تشير إلى واحدة أخرى من بركات البحار التي كان لها دور مؤثر جداً في حياة البشر حتى في يومنا الحاضر. وهي إستخدام البحر كطريق كبير وواسع ومتصل لحمل ونقل انواع الامتعة التي يحتاجها الناس ويسافرون بها. ومع الاخذ بنظر الإعتبار أن حوالي ٧٥ بالمائة من وجه الأرض مغطيً بالبحار التي تصل إلى كل نقاط العالم، وأن جزءاً كبيراً من الاموال التجارية والمواد الضرورية تنقل عن هذا الطريق، وأن قسماً كبيراً من الأسفار يتم من خلال هذا الطريق، تتضح أهمية هذا الموضوع. يقول عز وجل: (وَتَرَى الفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ).
ثم يضيف في النهاية (لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).
وبهذا جعل الالتفات إلى هذه النعم أيضاً وسيلة لأحياء روح الشكر وبالتالي إكتساب المعرفة بالله. وإلاّ فما حاجة الله إلى شكرنا؟ كل هذه ذرائع إلى معرفة ذاته وصفاته والحركة نحو هذا الكمال المطلق.
والجدير بالإنتباه أن (مواخر) هي جمع «ما خرة» من مادة «مخر» (على وزن فخر). وهذه المادة كما يستفاد من محصلة كلمات أرباب اللغة والمفسرين بمعنى الشق والخرق، كشق «أمواج الماء» بصدر السفينة، أوشق «أمواج الرياح» بواسطة الوجه والأنف والتقدم نحو الأمام، أو شق الأرض لأجل الزراعة.
ولأن هذه الأمور غالباً ما تكون مصحوبة بالصوت فقد أُطلقت هذه المفردة على صوت هبوب الرياح الشديدة أيضاً(١).
وقد ذكروا تفسيراً ثالثاً وهو أن الآية تخاطب الوثنيين، أنكم إذا أردتم العبادة

---

(١) تفسير الفخر الرازى، المجلد ٢٠، ص ٧ وقد جاء نفس هذا المعنى في تفسير روح المعاني والقرطبي تذييلا للآية المنظورة في بحثنا.

فإعبدوا من هو ولي نعمتكم، لماذا تعبدون الأصنام التي لا دور لها مطلقاً.(١)
وليس من المستبعد الجمع بين هذه التفاسير لأن المخاطب حسب الظاهر هم جميع المؤمنين

والكافرين، بالرغم من أن الآيات السابقة واللاحقة تدل على أن الكلام موجه للمؤمنين اكثر ما هو موجه إلى الكفار.

وعلى كل حال، فالعلاقة بين «النعمة» و «الشكر» و «العبادة» ثم «معرفة المعبود» و «ولي النعمة» تتضح بجلاء من هذه الآية.

وبهذا نتوصل إلى الحافز الثاني لمعرفة الله وهو مسألة شكر المنعم.

* * *

.

شكر المنعم في الروايات الاسلامية:

١ ــ جاء في حديث عن أمير المؤمنين علي((عليه السلام)): «لو لم يتوعد الله على معصيته لكان يجب الاّ يُعصى شكراً لنعمته» (٢)

إن التعبير بـــ «الواجب» في هذا الحديث هو في الحقيقة نفس تلك الوظيفة التي تنبع من عواطف الأنسان.

٢ ــ نقرأ في حديث آخر عن الإمام الباقر((عليه السلام)) أنه قال: «كان النبي ذات ليلة عند عائشة فسألته: لماذا ترهق نفسك كل هذا الإرهاق بالعبادة في حين قد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟».(٣)

فقال ((صلى الله عليه وآله وسلم)): «ألا أكون عبداً شكوراً؟».(٤)

٣ ــ يقول الامام الرابع علي بن الحسين((عليهما السلام)) في أحد أدعية الصحيفة

---

(١) تفسير الكشاف، المجلد ٢، ص ٦٤٠، وثمة تفسير آخر ورد كأحتمال من الأحتمالات في تفسير الميزان وروح المعاني تذييلا للآيات المنظورة في البحث.

(٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٩٠.

(٣) إشارة إلى الآية الأولى من سورة الفتح التي جاء تفسيرها مفصلا في المجلد ٢٢ ص ١٨ من التفسير الامثل (تفسير نمونه).

(٤) أصول الكافي المجلد ٢ باب الشكر، الحديث ٦.

السجادية: «الحمد لله الذي لو حبس عن عباده معرفةَ حمده على ما أبلاهم من مننهِ المتتابعة واسبغ عليهم من نعمه المتظاهرة لتصرّفوا في مننه فلم يحمدوه وتوسعوا في رزقِه فلم يشكروه

ولو كانوا كذلك لخرجوا من حدود الإنسانية إلى حد البهيميّة فكانوا كما وصف في محكم كتابه إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضل سبيلا».(١)

٤ ــ جاء في كلام آخر من نهج البلاغة: «...ولو فكروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق وخافوا عذاب الحريق ولكن القلوب عليلة والبصائر مدخولة» (٢)

تتضح من هذه الروايات العلاقة الروحية بين «شكر النعمة» و «معرفة الله وإطاعة أوامره».

---

(١) الصحيفة السجادية، الدعاء الاول.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٥.

٣ ــ الحافز الفطري

.

تمهيد:

عندما نتحدث عن الفطرة فمرادنا نفس تلك الإحساسات الداخلية والادراكية التي لاتحتاج إلى أي إستدلال عقلي.

عندما نشاهد منظراً طبيعياً جميلا جداً أو زهرة ذات لون ورائحة طيبة نحسُّ في داخلنا بانجذاب قوي نحوها. ونسمي هذا الاحساس بالميل نحو الجمال وعشقه ولا نرى أي حاجة للبرهنة هنا. أجل، إن الإحساس بالجمال من الميول المتعالية للروح الإنسانية.

وَالأندفاع نحو الدين وخاصةً معرفة الله هو أيضاً من هذه الإحساسات الذاتية والداخلية. بل هو من اقوى الحوافز في أعماق طبيعة وروح جميع البشر.

ولهذا السبب لا نشاهد قوماً أو أمة لا في الحاضر ولا في الماضي التاريخي لم تكن تمتلك نوعاً من العقائد الدينية تتحكم في فكرها وروحها. وهذه علامة على أصالة هذا الإحساس العميق.

وَإنطلاقاً من أن التوحيد الفطري يُطرح في مجال براهين معرفة الله كبرهان مستقل مع كل آياته، لا نرى داعياً للبحث المسهب حول هذا الموضوع. فنكتفي بذكر نقطة واحدة ونؤجل المزيد من الشرح إلى ذلك البحث.

عندما يذكر القرآن قصص نهضة الأنبياء العظام فانه يؤكد في عدة مواضع على هذه النقطة وهي إنَّ الرسالة الأصلية للأنبياء تتمثل بازالة آثار الشرك والوثنية (وليس إثبات وجود الله، لأن هذا الموضوع مخبَّأٌ في أعماق طبيعة كل إنسان).

وبتعبير آخر: إنهم لم يكونوا بصدد غرس «بذور عبادة الله» في قلوب الناس، بل كانوا في صدد سقاية البذور الموجودة وإستئصال الأشواك والأدغال الزائدة المضرة التي قد تقتل أو تُذبِل هذه البذور بصورة تامة في بعض الأحيان.

[٣٨]

وردت جملة (ألاّ تَعبُدُوا إلاّ اللهُ) أو (ألاّ تَعْبُدُوا إلاّ إيـــاهُ) في كلام الكثير من الأنبياء في القرآن الكريم، وهي عبارات تفيد نفي الأصنام وليس اثبات وجود الله كما جاء في دعوة رسول الأسلام((صلى الله عليه وآله وسلم))،(١) ودعوة النبي نوح،(٢) ودعوة يوسف،(٣) ودعوة هود(٤).

وَفضلا عن هذا فَإننا نمتلك في داخل أرواحنا أحاسيس فطرية أصيلة أخرى منها ما نراه في نفوسنا في الإنجذاب الشديد إتجاه العلم والمعرفة والأطلاع.

فَهل من الممكن أن نشاهد هذا النظام العجيب في هذا العالم المترامي، ولا تكون لنا رغبة في معرفة مصدر هذا النظام؟

وَهل من الممكن أن يُجدّ عالِم لمدة عشرين سنة من أجل التعرف على حياة النمل، ويثابر عالِم آخر عشرات السنين لمعرفة بعض الطيور أو الأشجار أو أسماك البحار بدون أن يكون في داخله حافز حب العلم؟ هل يمكن أنهم لا يريدون معرفة مصدر هذا البحر اللامتناهي الذي يشمل الأشياء من الأَزل إلى الأبد؟!

نعم، هذه حوافز تدعونا إلى «معرفة الله»، العقل يدعونا إلى هذا الطريق، العواطف تجذبنا نحو هذا الإتجاه، والفطرة تدفعنا إلى هذه الجهة.

كانت هذه خلاصة للمحفزات الواقعية والحقيقية لظهور الدين ومعرفة الله.

* * *

.

توضيحات:

.

١ ــ التبريرات المنحرفة:

هنالك إصرار عجيب من قبل بعض علماء الإجتماع والنفس الماديين في الغرب والشرق على أن مصدر ظهور الدين والعقيدة التوحيدية معلول للجهل أو

---

(١) هود الآية: ٢.
(٢) هود الآية: ٢٦.
(٣) يوسف الآية: ٤٠.
(٤) الأحقاف الآية: ٢١.

الخوف أو عوامل أُخرى من هذا القبيل.
بالطبع إنّ هذا الأمر ليس عجيباً حسب رأي معين، لأنهم يبدون وكأنهم قد إتخذوا قرارهم بإتفاق مسبق، ويعتبرون من المسلمات أن ليس ثمة شيء غير عالم المادة، لهذا يرون أنفسهم ملزمين أن يفسروا كل ظاهرة بمعونة هذه العوامل المادية.
من ناحية أخرى نعلم أن وجود العقائد الدينية ما تنفك تزلزل أركان المادية. وإذا أضفنا إلى هذا المعنى الصراعات القبيحة بين الكنيسة وعلماء العلوم الطبيعية في القرون الوسطى، يمكن الإستنتاج أن مثل هذه التفاسير المادية للدين والاعتقاد بالله بأنها جزء من نضال المدارس المادية ضد الدين.
مع أنّ البحث في كل هذه النظريات بشكل مفصل يحتاج إلى أحاديث طويلة يُخرجنا الدخول فيها عن نوعية بحثنا التفسيري. ولكن يبدو من الضروري الاشارة إليها هنا بشكل مختصر. لكننا نكرر أن كل هذه التفاسير قائمة على أساس أحكام مسبقة وَهي أن نسلّم بعدم وجود عالم وراء الطبيعة، وبأن عالم الوجود يتلخص في نفس عالم الطبيعة هذا.
وَيمكن تحديد هذه النظريات ــ أو بعبارة أدق هذه الفرضيات ــ بشكل عام في خمس فرضيات:
.

١ ــ فرضية الجهل:

يقول أحد علماء الإجتماع المعروفين: «مع إن العلم والفن كشفا الكثير من الأسباب السرية، إلاّ إن الكثير من هذه الأسباب ما تزال هاربة من نطاق العلم وباقية في لفيف الأسرار، وضرورة

التوصل إلى هذه الاسباب دعت الى ظهور الدين».(١)
ويَضيف أحد الفلاسفة الماديين: أن الإنسان عندما ينظر الى الاحداث من

(١) جامعه شناسى ساموئيل كنيك، ص ٢٠٧ (علم الاجتماع عند صاموئيل كنيك).

زاوية تاريخية فسيتصور العلم والدين عدوين لا يقبلان الصلح! وذلك لسبب واضح جداً. فالذي يعتقد بحركة العالم بلحاظ قانون العلية لا يستطيع أن يسمح ولو للحظة واحدة بأن يدخل عقله تصورٌ يقول: إنَّ بامكان موجود خلق الموانع والعثرات في واقع الأحداث.(١)
وبعبارة أبسط إنهم يريدون الإدعاء أن جهل الانسان بالعلل الطبيعية كان السبب في تصوره لوجود قوة وراء الطبيعة أوجدت هذه العالم وما إنفكت تديره، ولهذا فكلما إتضحت الأسباب والعلل الطبيعية تراجع الدين والاعتقاد بعبادة الله. إن الخطأ الأساسي لأتباع «فرضية الجهل» ينبع من:
اولا: إنهم ظنوا أنَّ الايمان بوجود الله يعني إنكار قانون العلية، وإننا على مفترق طريقين: إما التسليم للعلل الطبيعية او لوجود الله. في حين أن الإيمان بقانون العلية والكشف عن العلل الطبيعية من وجهة نظر الفلاسفة الالهين يعد احد أفضل طرق معرفة الله.
إننا لا نبحث عن الله وسط الفوضى والحوادث الغامضة والمعتمة أبداً، بل نعثر عليه في وسط الانوار والنظم المعروفة لعالم الوجود، لأن وجود هذه النظم علامة واضحة على وجود مصدر علم وقدرة في عالم الوجود.
ثانياً: لماذا تراهم يغفلون عن هذه النقطة، وهي أن الانسان ومنذ أقدم العصور لحد اليوم كان يرى دائماً نظاماً خاصاً يحكم العالم؟ نظاماً لا يمكن تبريره بالعلل التي لا شعور لها، وكان يعتبره دوماً علامةً على وجود الله. وكل ما في الأمر أن هذا النظام كان معروفاً في الماضي بدرجة أقل، وكلما تطور علم البشر، إكتشفت منه دقائق وصغائر جديدة وإتضح وبان علم وقدرة مبدأ عالم الوجود أكثر.
ومن هنا فإننا نعتقد أن «الإيمان بوجود الله» و «الدين» يتقدم الى الامام بتقدم

(١) الدنيا التي أراها، ص ٥٨ ــ وكم هو مضحك قول «اوغست كونت» ان العلم عزل أبا الكائنات من وظيفته وساقه إلى مكان منزو (أي باكتشاف العلل الطبيعية لم يبق ثمة محل للأيمان بالله) (الدوافع نحو المادية ص ٧٦).

«العلوم». وكل إكتشاف جديد لأسرار ونظم هذا العالم إنما هو خطوة جديدة لمعرفة الله بصورة أفضل، فلم يكن بامكان السابقين أبداً أن يعرفوا الله بالشكل الذي نعرفه اليوم، لأن تطور العلوم لم يكن على ما هو عليه الآن.

* * *

.

٢ ــ فرضية الخوف:

يروي المؤرخ الغربي المعروف «ول ديورانت» في تاريخه ضمن بحث بعنوان منابع الدين عن الحكيم الروماني «لوكروتيوس» بأن «الخوف هو الأم الأولى للآلهة، والخوف من الموت ذو مكانة أهم بين بقيّة انواع الخوف... ولهذا لم يكن باستطاعة الانسان البدائي أن يصدق بأن الموت ظاهرة طبيعية ولذا كان يتصور له سبباً ما ورائياً على الدوام»(١).

ويكرّر «راسل» نفس هذا الكلام بصياغة أخرى في قوله:

«أتصور أن مصدر الدين هو الخوف والرهبة قبل كل شيء، الخوف من الكوارث الطبيعية، الخوف من الحروب وما شاكل، والخوف من الأعمال غير اللائقة التي يرتكبها الإنسان أثناء غلبة الشهوات عليه»(٢).

ويتضح بطلان هذه الفرضية من حيث أن أتباعها كأنهم قد تعاهدوا جميعهم بشكل ضمني على الإتفاق بأنه ليس ثمة جذور ما ورائية للدين والاعتقاد بعبادة الله، ولا بد من البحث عن سبب له في الطبيعة، سبب يعود إلى نوع من الظن والخيال، ولهذا فهم دائماً يرون الأمور الفرعية وينسون المسألة الأصلية.

صحيح أن الإيمان بالله يمنح الإنسان طمأنينة و إقتداراً روحياً، وصحيح أنه يمده بالشجاعة قبال الموت والحوادث العصيبة، إلى درجة أنه في بعض الأحيان يكون مستعداً لكل الوان التضحية والفداء. لكن لماذا ننسى ما هو أمام أعين البشر

---

(١) «قصة الحضارة لـــ«ولْ ديورانت» المجلد الأول ص ٨٩.

(٢) «العالم الذي أعرفه» ص ٥٤.

دائماً أي النظام الذي يحكم الأرض والسماء والنباتات والأحياء ووجود الانسان ذاته؟!.
وبعبارة أخرى فإن الإنسان مهما كان بارعاً بعلم التشريح والفسلجة وما شابه، لكنّهُ حينما ينظر إلى بناء عينه وأذنه وقلبه ويده ورجله يراه بناءً عجيباً ودقيقاً، وهذا لا يمكن تفسيره أبداً بالوقائع والأسباب العمياء. ظهور غصن من الزهور، أو نحلة، ظهور الشمس والقمر وسيرهما المنتظم وبقية الظواهر.
هذا هو الشيء الذي كان موجوداً ولا يزال دائماً أمام أعين الإنسان وهو السبب الأصلي في ظهور الإيمان بوجود الله، لماذا يتجاهلون هذه الحقيقة البينة ويتشبثون بمسألة الخوف والجهل؟ أفليس لأنهم خائفون من نمو العقائد الدينية؟ وإلاّ لماذا يتركون الطريق الأصلي النيّر ويسلكون الطريق المنحرف؟ سوى أن الأحكام المسبقة تحول أمامهم؟!.
.

٣ ــ فرضية العوامل الاقتصادية:

إنَّ أتباع هذه الفرضية أناس يعتقدون بأن القوة التي تحرك التاريخ هو شكل وسائل الإنتاج، ويعتبرون جميع الظواهر الاجتماعية سواء الثقافية منها أو العلمية أو الفلسفية أو السياسية وحتى الدين ناتجة عن هذا الشيء!
إن لهم تبريرات عجيبة من أجل الربط بين ظهور الأديان والمسائل الإقتصادية منها قولهم: إن الطبقة المستعمِرة في المجتمعات البشرية قد أوجدت الدين من أجل القضاء على مقاومة الشرائح المستعمَرة وتخديرها، ويلفتون الأنظار إلى عبارة «لينين» المعروفة التي أوردها في كتابه «الاشتراكية والدين» والتي يقول فيها: «الدين في المجتمع بمثابة المخدر والافيون»!.
ولهم في هذا الموضوع كلام كثير هو في الغالب تكرار للمكررات.
وَمن حسن الحظ أن اتباع هذه الفرضية (الاشتراكيون) قد أجابوا على أنفسهم بأنفسهم من خلال عباراتهم المتناقضة. فهم عندما يواجهون الإسلام وكيف كان سبباً

في حركة ونهوض أُمة متخلفة، وكيف أنزل عن العرش المستعمرين من أمثال السلاطين الساسانيين وقياصرة الروم وفراعنة مصر و«تبابعة» اليمن، يضطرون إلى إستثناء الاسلام على الأقل من هذا المقطع التاريخي.
وفوق كل هذا، عندما يشاهدون اليوم الحركات والنهضات الاسلامية ضد المستعمرين (خاصة في العصر الحاضر) بوجه حكام الشرق والغرب وإنتفاضة الشعب الفلسطيني ضدّ الكيان

الصهيوني، فليس أمامهم سبيل سوى أن يشكوا في تحليلاتهم، بغض النظر عن الذين يعيشون حصاراً في حصار ولا يستطيعون أن يبصروا حتى الشمس المتجلية.

وعلى كل حال، فبالنظر للتاريخ المعاصر والقديم لا سيما الخاص بالإسلام، يتضح جيداً أن الدين وخلافاً لزعمهم ليس مادة مخدرة وأفيوناً أبداً، فضلا عن أنه السبب في ظهور أقوى الحركات الأجتماعية واكثرها مثاراً للإعجاب، والقضايا الاقتصادية تشكل بدورها جزءً من حياة الانسان، وحصر الإنسان في الزاوية الأقتصادية يعتبر أكبر خطأ في معرفة الأنسان ومعرفة نوازعه وميوله المتعالية.

٤ ــ الفرضية الجنسية:

والآن تعالوا واستمعوا للسيد «فرويد» الذي يريد أن يقيم جسراً بين «ظهور الدين» و «الغريزة الجنسية» ويعتبر هذا وليداً لتلك!
إنه يحاول أن يربط هذا الموضوع في فرضيته باحدى القبائل الوهمية (للأب في هذه القبيلة الخيالية نساء كثيرات، أما الأولاد الشباب فيعانون الحرمان، وأخيراً ثار الأولاد وقتلوا الأب وأكلوا لحمه، ثم ندموا على ذلك، وبغضَّهم النظر عن نساء القبيلة عمدوا إلى إدانة وتقبيح عملهم) ومن هنا نشأ بينهم نوع من الحظر وبتعبيره «تابو» اي «كبت» (حظر الزواج من المحارم).
ويَضيف: يوجد في القبائل المتوحشة اليوم شيء باسم «التوتم» وهو الأب أو السلف بالنسبة لاعضاء القبيلة، ويعتبر حاميهم وولي نعمتهم.

إنهم يحترمون «التوتم» ويتصورون أن عليهم أن يتشبهوا به (هذا الإعتقاد بالتوتم نابع من نفس الإعتقاد بالقبيلة الوهمية ايضاً).
يعتقد فرويد أن الأيمان بالكبت والتوتم هو السبب لظهور العقائد الدينية، ووفقاً لما ذكرنا اعلاه فأن له علاقة بالقضية الجنسية!.(١)
وفضلا عن أن فرضية فرويد الجنسية قائمة على أساس اسطورة (اسطورة القبيلة الوهمية).
فان تحليلاته تشبه الى حد كبير الأساطير والخرافة، وهذا ناتج من أنه يرى روح وجسم الإنسان ذا الأبعاد والميول المتنوعة من زاوية واحدة وببعد واحد.
صحيح أن للإنسان غريزة جنسية، لكن من المسلم به أن وجود الانسان لا يختصر كله في الغريزة الجنسية، فجسمه يقع تحت تأثير غرائز مختلفة، ولروحه ميول متعالية مختلفة، «فَالنظر من بعد واحد» بلاء لم يقع فيه فرويد فحسب بل إن الاشتراكيين الذين يختصرون

وجود الانسان في البعد الإقتصادي قد وقعوا فيه بشكل آخر.
كان الاجدر بفروى وبدل الاعتماد على الأوهام أن ينظر ألى هذه الحقيقة وهي أن الإنسان منذ فجر حياته وحتى اليوم أبصر نظاماً حاكماً على العالم المترامي وعلى وجوده هو لا يمكن تفسيره بالعلل الطبيعية غير العاقلة وغير العالمة. وكان هذا هو المنطلق في ظهور الاعتقاد بالله، فَلماذا يرفضون نهجاً بهذا الوضوح ويسلكون الضلال؟!.

٥ ــ فرضية الحاجات الأخلاقية:

يقول «أنشتاين» في بحث بعنوان «الدين والعلوم»: بقليل من الدقة يتضح أن الأحاسيس والإنفعالات التي أدت إلى ظهور الدين مختلفة ومتباينة جداً.. وبعد أن يشير إلى فرضية الخوف يضيف:

---

(١) الإقتباس من «فرويد والفرويدية».

إن النزعة الإجتماعية عند البشر هي أيضاً من أسباب ظهور الدين. فالفرد يرى أن أباه وأمه، أصدقاءه واقاربه، قادته وعظماءه يموتون، ويرحلُ مَنْ حوله واحداً واحداً، إذن فالرغبة في الهداية والمحبة وأن يكون محبوباً في مجتمعه وأن يكون له أمل في شخص ما معتمداً عليه، تمهد الأرضية في نفسه لقبول الاعتقاد بالله.(١)
وبهذا فهو يريد أن يفترض دافعاً أخلاقياً وإجتماعياً لظهور الدين.
وهنا أيضاً نلاحظ أن مقترحي هذه الفرضية قد خلطوا بين «الأثر» و«الدافع»، في حين أننا نعلم أنْ ليس كل أثر هو دافع بالضرورة، فَمن الممكن أن نعثر على كنز اثناء حفرنا لبئر عميق، وهذا هو «أثر»، والحال أنه لا شك في أن المحرك والدافع الأساسي لحفرنا البئر شيء آخر وهو الحصول على الماء وليس اكتشاف كنز ما.
وعليه فصحيح أن بامكان الدين معالجة أوجاع وآلام الإنسان الروحية، وأن الإيمان بالله يخلصه من الإحساس بالوحدة عند فقد الأحبة والأصدقاء ويملأُ الفراغ الناتج من فقدانهم، ولكن هذا أثر وليس دافعاً.
الحافز الأصلي للدين والذي يبدو منطقياً جداً هو في الدرجة الأولى ما أشرنا إليه سابقاً، فحينَ يرى الإنسان نفسه وجهاً لوجه أمام نظام في عالم كلما تفكر فيه اكثر تعرف على عمقه وتعقيده وعظمته اكثر. فهو لا يستطيع أبداً أن يعتبر ظهور ولو «وردة» واحدة بكل مالها من ظرافة

وبناء عجيب، أو ظهور «عين» واحدة بكل ما فيها من نظام ظريف ودقيق ومعقد، لا يستطيع أن يعتبر ذلك وليداً للطبيعة غير العاقلة والمصادفات العمياء الصماء. وهنا يبحث الإنسان عن مبدأ لهذا النظام.

وبالطبع فهنالك أمور أخرى تدعم هذا المعنى أشرنا إليها سابقاً.

والعجيب أن «انشتاين» نفسه الذي اقترح مثل هذه الفرضية بدّل كلامه في مكان آخر وأعرب عن عقيدته في موجد عالم الوجود وايمانه الراسخ بذلك المبدأ

---

(١) «الدنيا التي أراها» ص ٥٣.

الكبير بشكل جذاب آخر، يدل على إنه ينكر الاعتقاد الممتزج بالخرافات ولا ينكر التوحيد الخالص من أي خرافة.

إنه يقول: «ثمة وراءَ هذه الأوهام معنى واقعي لوجود الله لم يتوصل إليه سوى القليل من الناس» ثم يصرح بعقيدته وعقيدة كبار العلماء بنوع من الإيمان الديني الذي يسميه «الأحساس الديني بالخلق» أو «الوجود»ويدعوه في مكان آخر بـــ «الحيرة اللذيذة من نظام الكائنات العجيب الدقيق».

والألطف من ذلك أنه يقول: «إن هذا الإيمان الديني سراج درب البحوث في حياة العلماء».(١) طبعاً الكلام هنا كثير وإذا أردنا أن نترك عنان القلم حسب التعبير الدارج سوف نخرج عن شكل البحث في التفسير الموضوعي.

لهذا نعود إلى أصل الحديث مرة أخرى، وننهي هذا البحث، ونلفت النظر إلى إنه يجب البحث عن حافز ظهور الدين في مطالعة عالم الخلقة أولا (الحافز العقلي والمنطقي)، ثم في الجاذبية الذاتية العنيفة (الحافز الفطري)، ثم في التوجه نحو ذلك المبدأ الكبير بسبب التمتع بنعمه اللامتناهية (الحافز العاطفي).(٢)

---

(١) «الدنيا التي أعرفها» ص ٥٦ و ٦١.

(٢) من اجل مزيد من المعلومات في هذا المجال يراجع كتابنا «الحافز في ظهور الاديان».

براهين معرفة الله:

بُرهـــان النظم

[٤٩]

[٥٠]

التمهيد:

إنَّ أوسع برهان يعتمد عليه القرآن الكريم في قضية التوحيد ومعرفة الله ضمن الكثير من الآيات والسور القرآنية هو «برهان النظم»، بحيث انه يغطي على باقي البراهين في القرآن. وَهذا يدل على ان أفضل وأوضح طريق لمعرفة الله من وجهة نظر هذا الكتاب السماوي الكبير والأبِتعاد عن كل الوان الشرك هو قراءة نظام الخلقة وأسرار الوجود وآيات الآفاق والأنفس.

* مميزات برهان النظم:

لهذا البرهان خصائص من أجلها إعتمد وأكد عليه القرآن الكريم إلى هذا الحد.

١ ــ إن برهان النظم يقنع العلماء كما يقنع عامة الناس، أي ان كل فئة تستطيع الإنتفاع منه حسب قابليتها، وذلك لأنَّ الناس مختلفون في ادراك أسرار الخلقة.

٢ ــ ليس في برهان النظم جفاف الإستدلالات الفلسفية، بل على العكس فيه لطف خاص يمنح الإنسان حبّ التطلّع على ذلك المبدأ الكبير، ويوجد فيه نوعاً من الإندفاع والشوق نحوه، ويرغمه على الخضوع الممتزج بالعشق. وبتعبير آخر فهو يروي عقل الإنسان كما يروي عواطفه واخلاقه.

واخيراً فإن برهان النظم وبسبب دراسته لأنواع النعم الإلهية ضمن دراسة نظم هذا العالم فهو ذو علاقة بشكر المنعم، وهذا بحد ذاته حافز آخر من حوافز التوحيد.

٣ ــ إن برهان النظم برهان نام (متجدد)، وبتعبير آخر هو برهان لا متناه، لأن كبراه وإن كانت ثابتة في محلها، لكن صغراه متبرعمة دائماً ومتفرعة عن أغصان

[٥١]

وأوراق جديدة. لأن أي أكتشاف من الاكتشافات العلمية حول اسرار الخلقة إنما يشكل مصداقاً وصغرى جديدة لهذا البرهان. فهو لهذا جديد دائماً، وفي كل يوم يأخذ شكلا آخراً، وهو متطور ومتقدم إلى جانب تطور العلم والمعارف البشرية.

٤ ــ إن برهان النظم يدعو الانسان إلى سلوك الآفاق والانفس، وهذا السلوك المبارك يزيد من مستوى معرفة الانسان في كل يوم ويجعل تفكيره مزدهراً، خاصة وأن أسس برهان النظم مختلطة بحياة الإنسان وهو يواجهها في كل خطوة من خطواته، وليس كالبعض الآخر من البراهين التوحيدية التي تقع إلى جانب قضايا الحياة وخارجها.

٥ ــ برهان النظم هو البرهان الوحيد الذي يستطيع إخضاع الفلاسفة التجريبيين الذين ينكرون الاستدلالات العقلية المحضة، ويستخدم حربة العلم التي يستخدمونها في إثبات «المادية» ضدهم، وهو بهذا اللحاظ ذو فاعلية عالية.

ولهذا ليس من العجيب أن يضع القران الكريم الغالبية العظمى من مباحثه التوحيدية على أساسه. لكن من العجيب أن بعض المحققين المتأثرين بشدة ببراهين أخرى (البراهين الفلسفية المحضة) يتجاهلون الأهمية القصوى لهذا البرهان وكأنهم لا علم لهم بمميزاته وآثاره العميقة.

* أسس برهان النظم:

يرتكز هذا البرهان على ركيزتين أساسيتين، اي يشكل صغرى وكبرى الشكل الاول اصطلاحاً.

١ ــ هنالك نظام دقيق ومحسوب يحكم عالم الوجود.

٢ ــ اينما وجدنا نظاماً دقيقاً ومحسوباً فمن غير الممكن أن يكون وليد الحوادث التصادفية، بل لابد أن يصدر عن علم وقدرة عظيمين.

والنتيجة هي أن هناك مبدأ علم وقدرة عظيم وراء نظام عالم الخلقة (سواء أطلقنا عليه اسم الله أو وضعنا له إسما آخر) لأن التسمية لا تؤثر في مثل هذه

البحوث.

* علاقة «النظام» و «العلم»:

قبل كل شيء يجب إثبات المقدمة الثانية المسماة بكبرى القياس. ومن أجل هذا لا بد من تعريف مختصر لـــ «النظام».

يمكن القول: ان أي منظمة أو موجود يعمل وفق برنامج معين ويعطي نتائج معينة، هو موجود منظم ، وعلى هذا الأساس فإن «الحساب»و «البرنامج» و «الهدف» تشكل العناصر الأصلية الثلاثة للنظام. فمثلا الساعة نموذج لـــ «الموجود المنظم»، ذلك أن أجزاءها مصنوعة وفق حساب دقيق، ثم هنالك برنامج لتركيبها، والهدف منها هو التشخيص الدقيق للوقت.

ولأجل التوصل إلى هذه العلاقة (علاقة النظام والعلم) يمكن الإستعانة بعدة أدلة:

١ ــ اولا الوجدان: مع اننا لم نر أبداً الكثير من العلماء الكبار والمخترعين والفنانين المهرة، ولم يبق منهم سوى الآثار، الاّ إننا حين ننظر إلى تلك الآثار والكتب والصناعات واللوحات النفيسة والابنية البديعة، نعترف بدون أي إحتجاج بعقلهم وذوقهم وعلمهم ومهارتهم الصناعية والفنية.

٢ ــ من أجل اثبات هذه العلاقة يمكن بالإضافة إلى الوجدان، الاستعانة بالدليل المنطقي، فلكي تظهر بناية منظمة إلى الوجود يجب أن يكون هناك إختيار في سبع مراحل على الأقل.

فلو أخذنا بناية عظيمة وجميلة ومحكمة، وجب أن نمارس عملية الاختيار والانتخاب بشكل محسوب على عدة أصعدة «اولها» من حيث نوعية المواد المستخدمة، و «ثانيها» من حيث مقدار وكميَّة المواد، و «ثالثها» من حيث جودة المواد، و «رابعها» من حيث الأشكال والأحجام المختلفة، و «خامسها» من حيث ايجاد الإنسجام بين الأجزاء، و «سادسها» من حيث التناسب بينها، و «سابعها» من

حيث وضع كل من الاجزاء في مكانه المناسب.

وهذه الاختيارات السبعة يجب أن تتم كل واحدة منها وفقاً للعلم والإطلاع والحساب، وأحياناً الحسابات الدقيقة جداً. ومن هنا عندما نواجه مثل هذه البناية نتيقن أن صانعها بلا شك كان يملك العلم والمعرفة والإطلاع الواسع.

٣ ــ يمكن إثبات هذه العلاقة (علاقة النظام والعلم) عن طريق آخر (عن طريق البرهان الرياضي).

إن «حساب الاحتمالات» الذي غدا اليوم فرعاً علمياً مستقلا في الجامعات ذو فاعلية جيدة جداً في مجال العلاقة بين النظام والعلم. وهو نفس الشيء الذي ندركه بصورة إجمالية في حياتنا. لكن حساب الإحتمالات يعكسه في شكل رياضي واضح.

إننا لا نصدق أبداً أن إنساناً أُمياً يستطيع عن طريق الصدف أن يؤلف كتاباً في مجال «الفلسفة» مثلا أو «الآداب والشعر» أو «الطب». بمعنى أن نعطيه آلة طابعة فيبدأ بدون أن يعرف الحروف بالضغط على أزرار الآلة بصورة متواصلة.

وليس من المستحيل كتابة كتاب علمي بمعونة هذه الصدف فحسب، بل لا يمكن كتابة حتى رسالة قصيرة أيضاً.

لأنه لو إفترضنا أن حروف الآلة الطابعة ثلاثون حرفاً فقط، (وهي بالطبع اكثر بكثير، لأن لبعض الحروف صور متعددة، فمثلا حرف الباء الأولية والباء الوسطية والباء النهائية والباء المفردة تشكل أربع صور مختلفة لحرف الباء) يقول حساب الإحتمالات هنا: ان الظهور التصادفي لكلمة «من» المكونة من حرفين هو إحتمال واحد من تسعمائة إحتمال.

(١ ٣٠ × ١ ٣٠ = ١ ٩٠٠).

وإحتمال ظهور كلمة مكونة من ثلاثة أحرف هو إحتمال واحد من٢٧ ألف إحتمال، وحين نصل إلى كلمة مكونة من خمسة أحرف سوف نجتاز حدود الـــ٢١ مليون!!.

[٥٤]

والآن إذا كانت الحروف الموجودة في رسالة قصيرة هي مائة حرف فإن مجموعة إحتمالات هذه الأحرف هي العدد٣٠ مرفوعاً إلى الأُس١٠٠ بحيث أن رسالتنا المعينة تشكل إحتمالا واحداً من هذا العدد ألهائل من الإحتمالات، أي عدداً كسرياً بسطه واحد ومقامه العدد٣ إلى يمينه مائة صفر. إن مقام هذا الكسر من الضخامة بحيث لا يمكن حسابه، ولا شيء في هذا العالم يصل إلى ضخامة هذا العدد..

ولأجل إيضاح هذه الحقيقة يكفي أن نعلم أننا لو قطرنا جميع المحيطات على الكرة الأرضية قطرة قطرة وحسبنا عددها لكان عددها أقل من عدد إلى جانبه واحد وعشرون صفراً فقط.

وعلى هذا الحساب لو حسبنا كتاباً مكوناً من ألف صفحة فإن عدد الإحتمالات سيتضخم إلى درجة أن الإحتمال التصادفي لعدده الكسري (البسط) يتساوى مع الصفر أي أنه مستحيل عادةً.(تأمل).

وبهذا الدليل، إذا إدعى شخص مثلا: أن «ابن سينا» محرر كتاب «القانون» في الطب كان أمياً تماماً، وأن «المتنبّي» لم يكن له ذوق شعري مطلقاً، وأن «أنشتاين» لم يكن يفقه شيئاً من الرياضيات وأن بناة الأبنية التاريخية الشهيرة لم يكن لهم أدنى إطلاع على فن العمارة، وأن جميع الآثار التي تركوها ظهرت لمجرد الصدف والحركات اللاواعية لأيديهم على الأوراق أو على المواد الإنشائية! لا شك أن من يقول مثل هذا الكلام إن لم يكن يمزح فهو مجنون!.

وخلاصة القول ان علاقة النظام بالعلم واضحة إلى درجة أن الكثير من العلوم والمعارف البشرية قائمة عليها، فمثلا جزء مهم من تاريخ الحضارة البشرية كتب من خلال مطالعة ودراسة الآثار الجذابة للسلف التي بقيت عنهم.

والعلماء بمطالعة الآثار التي يعثرون عليها بواسطة الحفريات أو التي يكتشفونها في قبور

ومعابد الأقوام الغابرة، يتوصلون إلى مستوى ثقافتهم وحضارتهم ونوعية عقائدهم. في حين إذا أنكرنا علاقة النظام والعلم إنهارت كل

[٥٥]

هذه الاستنباطات.

الآن وقد إتضحت تماماً العلاقة بين النظام والعلم، وبعبارة ثبتت كبرى البرهان، نتطرّق الى مصاديقها في عالم الوجود التي إعتمد عليها القرآن الكريم.

واللطيف أن آيات القرآن لا تتحدث مطلقاً عن كبرى برهان النظام، أي «علاقة النظام والعلم»، لأنها كانت واضحة ووجدانية إلى حد أنه لم تكن ثمة حاجة لبيانها. وكما قلنا فإن الإنسان إذا أنكر هذه العلاقة يجب عليه إنكار الكثير من الحقائق الموجودة في حياته. وما من شك في أن منكري هذه العلاقة يشبهون «السفسطائيين» الذين ينكرون الحقائق أثناء حديثهم، ولكنهم في حياتهم اليومية يقبلون جميع الحقائق مثل الآخرين، فمثلا لو تمرضوا يراجعون الطبيب ويستعملون الدواء وينفذون إرشادات الطبيب حرفاً بحرف، أي انهم يعترفون رسمياً بوجود «الطبيب» و «الدواء» و «علم الطب» و «الصيدلة» ومئات الأمور الأخرى الدائرة في هذا المضمار!

إن منكري «علاقة النظام والعلم» ايضاً بدورهم يستنتجون علمياً وعملياً من أي اثر علمي وصناعي وأدبي وفني، وجود مبدأ واع وذي ذوق وفنان، ولا يعتمدون أبداً على الأحتمالات المجنونة.

الآن وقد إتضحت علاقة النظام والعلم تماماً، وثبتت كبرى البرهان حسب الاصطلاح المنطقي، نعرج على مصاديقها في القرأن الكريم والتي إعتمد عليها.

ونعتقد أن من الضروري ذكر هذه النقطة وهي أن الفلاسفة الماديين الذين حاربوا برهان النظم (انكار وجود النظام في العالم أو إنكار علاقة النظام والعلم) وعلى رأسهم «دافيد هيوم» لم يتحفونا بسوى مجموعة من الوساوس التي لا قيمة لها. الوساوس التي لم يكونوا يقبلونها في حياتهم أبداً.

[٥٦]

[٥٧]

١ ــ آياته في خلق الانسان

[٥٨]

في البداية نستمع خاشعين للآيات أدناه:

١ ــ(وَمِنْ آيــاتِهِ أنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُراب ثُمَّ إذا أنْتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ)(١).

٢ ــ(إنّا خَلَقْنــا الأنْسانَ مِنْ نُطْفَةِ أمْشــاج نَبْتَلِيْهُ فَجَعَلْنــاهُ سَمِيْعاً بَصيراً)(٢).

٣ ــ(ولَقَدْ خَلَقْنــا الأنْســانَ مِنْ سُلالَة مِنْ طِيْن ثُمَّ جَعَلْنــاهُ نُطْفَةً في قَرار مَكِيْن)(٣).

٤ ــ(ذلِكَ عــالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهــادَةِ الْعَزِيْزُ الرَّحْيمُ ــ الَّذي أحْسَنَ كُلَّ شَيء خَلَقَهُ وَبَدأ خَلْقَ الإنْســانِ مِنْ طِيْن ــ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَة مِنْ مــاء مُهين ــ ثُمَّ سَوّاهُ وَنَفَخَ فِيْهِ مِنْ رُوْحِهِ وجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأبْصــار وَالأفْئدَةَ قَلْيلا مــا تَشْكُرُونَ)(٤).

٥ ــ(وَفي خَلقِكُمْ وَمــا يَبُثُّ مِنْ دابَّة آيــاتٌ لِقَوم يُوقِنُوْنَ)(٥)(٦)

* * *

.

شرح المفردات:

---

(١) (الروم الآية: ٢٠).

(٢) (الانسان الآية: ٢).

(٣) (المؤمنون الآية: ١٢ و ١٣).

(٤) (السجدة الآية: ٦ ــ ٩)

(٥) (الجاثية الآية: ٤)

(٦) هنالك في هذا المجال آيات متعددة أخرى أيضاً، صرفنا النظر عن ذكرها لتقارب مضمونها مع ما ذكرناه من الآيات، من جملتها آيات سورة النجم الآية:٤٥ــ٤٦، وغافر الآية: ٦٧ وفاطر الآية: ١١، والكهف الآية: ٣٧ ــ ٣٨، والنحل الآية: ٤، والانعام الآية: ٢.

(بَشَرٌ) من أصل «بَشَرَة» بمعنى ظاهر جلد الانسان، ولكن يستفاد من «مقاييس اللغة» أن أصلها هو ظهور شيء ذي حسن وجمال، لذا فإن حالة «البُشر» (على وزن اليُسر) بمعنى الفرح والانبساط، وإنطلاقاً من أن هذه الحالة خاصة بالانسان، كانت مفردة «البشر» اسماً للنوع الانساني(١). وهذه المفردة تطلق على الرجل والمرأة والمفرد والمثنى والجمع(٢).

(سُلالة) (على وزن عُصارة) بمعنى الشيء المأخوذ من شيء آخر، فيكون خلاصته وعصارته،

وهي في الأصل من «سَلَّ» (على وزن حَلَّ) بمعنى سحب وجرَّ برفق وتستخدم لسحب السيف من القراب أيضاً ثم اطلقت على عصارة وخلاصة الأشياء.(٣) وحينما نقرأ في الآيات أعلاه أن الله خلق الانسان من سلالة من طين، فمعنى ذلك من العصارة المصطفاة من الطين. وقال البعض: ان المراد من هذا هو أن آدم مخلوق من عصارة كل الأتربة الموجودة على الأرض (ولهذا فقد إستخلص آثار الجميع في وجوده) وإطلاق «السليل» على «الابن» من باب أنه ناتج من عصارة وجود الأب والأم.

(النطفة) في الأصل بمعنى «الماء الصافي»، وإعتبرها بعض أهل اللغة بمعنى «الماء القليل». وبما ان الماء الذي يمثل المبدأ في ظهور الانسان قليل ومصطفىً وعصارة من كل الجسم فقد أُطلقت هذه المفردة عليه. ويقال للسوائل الجارية «ناطف» أيضاً.

(أمشاج) جمع «مَشْج» (على وزن نشج) بمعنى الشيء المخلوط، والبعض إعتبرها جمعاً لـــ «مشيج»، ولأن ماء الرجل والمرأة يختلطان عند إنعقاد نطفة الانسان فقد أطلقت هذه المفردة عليه.

جاء في «لسان العرب» أن هذه المادة في الأصل بمعنى اللونين المختلفين

---

(١) مقاييس اللغة، لسان العرب والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.

(٢) لسان العرب ومجمع البحرين.

(٣) مفردات الراغب ، مجمع البحرين ، ولسان العرب .

الذين يمتزجان مع بعضهما (ثم أطلقت على الأشياء المختلفة التي تختلط مع بعضها).

خلق الانسان من (نطفة أمشاج)، يمكن أن تكون إشارة إلى المواد المختلفة التي تشكل النطفة، أو القابليات المتنوعة التي تجتمع في النطفة عن طريق عامل الوراثة وغيره من العوامل، أو أنه إشارة إلى كل هذه الامتزاجات.

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

آيات الأنفس الأولى:

للقرآن الكريم عبارات متنوعة حول بداية ظهور الانسان، يقول في اول آية بهذا الخصوص:
(وَمِنْ آيــاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُراب).
ويقول في الآية الرابعة:(وَبَدَأَ خَلْقُ الإنْسانِ مِنْ طِيْن).
ويقول في الآية الثالثة: (وَلَقَدْ خَلَقْنــا الإنْســانَ مِنْ سَلالَة مِنْ طِيْن).
ويقول في الآية ١١ من سورة الصافات: (إنّا خَلَقْنــاهُمْ مِنْ طِيْن لازِب).
ويقول في الآية ٢٦ من سورة الحجر: (وَلَقَدْ خَلَقْنــا الإنْسانَ مِنْ صَلْصــال مِنْ حَمَأ مَسْنُون).
وجاء في الآية ١٤ من سورة الرحمن: (خَلَقَ الإنْســانَ مِنْ صَلْصــال كَالْفَخّارِ).
(الصَلْصَال) في الأصل بمعنى لوي الصوت في الجسم اليابس، ولهذا سمىَّ الطين اليابس الذي يصدر صوتاً عند إرتطام جسم آخر به بالصلصال، وحين يُفخر على النار يقال له «الفخار».
(الفخار) مأخوذ من مادة «فخر» أي الفخور كثيراً، ولأن الاشخاص الفخورين أناس كثيروا الضجيج والكلام وفارغون، فقد أُطلق هذا الاسم على الكوز

وكل فخار فارغ الجوف، بل أطلق على كل أنواع الفخار(١).
يستفاد من مجموع الآيات أعلاه أن الانسان كان تراباً في البداية، وقد إمتزج هذا التراب بالماء وإستحال إلى الطين، وقد أخذ هذا الطين بعد مضي فترة شكلَ الوحل ثم استخلصت من عصارته المادة الأصلية لآدم ثم جُفِّفَتْ، وباجتيازها المراحل المهمة تكوّن آدم.
لكن في آيات اخرى من القرآن كالآية الثانية المعنية، يعتبر خلقة الانسان من نطفة مختلطة (مِنْ نَطْفَة أمْشــاج).
وفي الآية الثالثة يعتبرها اولا من «عصارة الطين»، ثم من «نطفة في الرحم» (مِنْ سَلالَة مِنْ طِيْن ثُمَّ جَعَلْنــاهُ نُطْفَةً في قَرار مَكِيْن).
واضح أن المراد من هذه الآيات هو خلقة الانسان في المراحل والأجيال اللاحقة، وبهذا فإن جدنا الأول مخلوق من التراب، واولاده وعقبه من نطفة أمشاج.
وثمة إحتمال في تفسير الآية أعلاه هو: بما أن المواد المكوِّنة للنطفة مأخوذة جميعها من التراب (لأن غذائنا إما من المواد الحيوانية أو النباتية ونعلم أن جميع هذه المواد نحصل عليها من التراب)، لهذا فلم يكن الانسان الأول من التراب فحسب، بل إن جميع الناس في المراحل اللاحقة ينشأون من التراب أيضاً.(٢)

*** * ***

وعلى كل حال، فهذه حقاً من العجائب الكبيرة في عالم الوجود وغرائب عالم الخلقة أن يولد من مادة ميتة وبلا روح ولا قيمة لها كالتراب موجود حي وعاقل وقيم كالانسان. فهذه من الآيات البينات لذلك المبدأ الكبير، و «إن ذلك الخالق لجدير بالشكر والثناء المخرج من الماءوالطين مثل هذا الشكل الجذاب».وبشكل عام فإن ظهور الحياة من قلب الموت مايزال من ألغاز عالَم العلوم، فضمن أيّ شروط وظروف يخرج موجود حي من موجود ميت كالتراب؟ يعتقد كل

---

(١) مفردات الراغب ومجمع البحرين ولسان العرب.

(٢) ورد في تفسير الميزان، المجلد ١٦، ص ١٧٣ إشارة مقتضبة لهذا المعنى.

العلماء أن الكرة الأرضية حين إنفصلت عن الشمس كانت كلها ناراً محرقة، ولم تكن الحياة عليها مطلقاً، ثم بردت قليلا قليلا وهطلت عليها سيول الأمطار من الغازات المضغوطة حولها، فتكونت البحار، بدون أن يكون فيها كائن حي، ثم ظهرت براعم الحياة سواء النباتية أو الحياتية وأخيراً خلقَ الاَنسان !إننا سواء إعتقدنا بالخلق المستقل للاَنسان (كما هو ظاهر الآيات القرآنية)، أو إعتبرنا الانسان متكاملا من أنواع الأحياء الأخرى (كما يقول اتباع داروين، وفرضية التكامل). فمهما كان فإن جذور هذا الانسان تعود إلى التراب، فهو منبثق منه. وإذا كان ظهور كائن حي أُحادي الخلية ومجهري من التراب، محيّراً لأفكار كل العلماء، فكيف بظهور الانسان من التراب الميت الخالي من الروح ؟هنا يجب الاَعتراف أننا بأزاء آية كبيرة من آيات الحق وعلامة محيّرة من عظمة الله، آية من العالم الصغير هي نموذج متكامل للعالم الكبير.يقول كاتب «سر خلق الأنسان» «كرسي موريسن» في معرض اشارة إلى بداية ظهور الحياة على الكرة الأرضية:«وقعت حادثة عجيبة في بداية ظهور الحياة على الكرة الأرضية كان لها أثر كبير على حياة الموجودات الأرضية، حيث أصبح لإحدى الخلايا خاصية عجيبة وهي أنها وبواسطة ضوء الشمس بدأت تحلِّل وتجزِّء بعض التراكيب الكيمياوية وتوفر بهذا العمل المواد الغذائية لنفسها ولسائر الخلايا المشابهة. وقد تغذت أخلاف احدى هذه الخلايا البدائية على الأغذية التي وفرتها لهم أمهم وأوجدت جيل الحيوانات، في حين أن خلية أخرى بقيت على شكلها النباتي وكونت نباتات العالم، وهي اليوم تغذي كل الأحياء الأرضية.ثم يضيف: هل يمكن التصديق أنه وحسب الصدفة كانت إحدى الخلايا منشأً لحياة الحيوانات وخلية أخرى كانت أصلا ومصدراً للنباتات ؟».ووفق قول آخرين:إن العلماء يقسمون موجودات عالم المادة إلى نوعين، العضوية (وهي

الموجودات القابلة للفساد كأنواع النباتات وأجسام الحيوانات)، والموجودات اللاعضوية (المعدنية) التي لا تقبل الفساد. ولهذا يقسمون الكيمياء إلى قسمين «الكيمياء العضوية» و «اللاعضوية».تشكل المواد العضوية جميع أطعمة الأنسان تقريباً، وهي مأخوذة كلها من التراب، وحين تدخل جسم الانسان تكوّن تراكيب كيمياوية جديدة تناسب تغذية كل عضو من الأعضاء. وهذه نفس الحقيقة التي يبينها القرآن بعبارة (إنّا خَلَقْنـــاكُم مِنْ تُراب) أو (مِنْ سَلالة مِنْ طِين).(١)صحيح أن للأنسان علاوة على المادة الترابية روحاً إلهية، ولكن لا شك أن الروح تكون مظهراً للأعمال والأفعال المختلفة بالتنسيق مع الجسم، عليه فإن هذه المادة الترابية تستطيع بالتنسيق مع الروح أن تقدم أنواع القابليات والأذواق والابتكارات والأعمال التي يحار فيها العقل.مع انَّ الانسان صار موضوعاً لعلوم مختلفة، وهنالك عالِم خاص حول كل جانب من جوانبه يمارس دراساته وأبحاثه، إلاّ ان الانسان ما يزال موجوداً مجهولا، ويلزم من الوقت سنين طويلة لكي يحل العلماء بجهودهم المتواصلة هذا اللغز الكبير في عالم الوجود وينيروا زواياه، وربما لم يستطيعوا أبداً أن يقوموا بذلك !يمكن لكل عضو من أعضاء جسم الانسان أن يكون لوحده موضوعاً لحساب الاحتمالات: العين، الاذن، القلب، العروق، الجهاز التنفسي الكلي المعدة، الكبد واخيراً الجهاز العصبي المقعد. وبعملية رياضية بسيطة يتضح ان اي عقل لا يوافق على ظهورها التصادفي.حقاً انه من أجل التوصل إلى بنية ونوع فعالية وفسلجة كل واحد من الاعضاء قد درس آلاف العلماء والعقول المفكرة وكتبت مئات أو آلاف الكتب حولها.هل يصدق أحد أنه من أجل معرفة كل واحد من هذه الاعضاء تلزم كل هذه العلوم والعقول والذكاء والدراية، بينما لا يلزم صنعها علماً وعقلا على الاطلاق؟!

---

(١) مقتبس من إعجاز القرآن من وجهة نظر العلوم المعاصرة، ص ٢٣ و ٢٤.

[٦٥]

كيف يمكن أن يكون فهم اسلوب عمل إحدى المعامل متطلباً لسنين من المطالعة، بينما تكون صناعة هذا المعمل قد حصلت على يد العوامل غير العاقلة ؟ أي عقل يصدق هذا؟!هنا لا يعتبر ظهور الانسان من المادة البسيطة (التراب) ومن سلالة من طين ومن الحمأ المنسون إحدى أعمال الخلق العظيمة والآيات الكبيرة على وجود الله فحسب، بل إن كل واحدة من خلايا الجسم بامكانها أن تكون مرآة عاكسة لعظمة الله ووجوده.

* التعقيد والدقة في نظام الخلق:يقولون: ان لذلك الجهاز نظام معقد، هذا عندما يكون بناؤه متكوناً من اجزاء وتشكيلات مختلفة ذات إرتباطات متعددة ومتنوعة، ويقوم باعمال متباينة مهمة. فمثلا الحاسبة الألكترونية التي تستطيع فضلا عن أعمال الحساب الأصلية أن تحل انواع المعادلات الجبرية والقضايا الهندسية وتؤدي مختلف الحسابات الرياضية بسرعة أو تحفظها في حافظتها، تعتبر ذات نظام معقد.يقول العلماء: ان خلف غشاء شبكية العين يُوجد تسعون ألف حزمة عصبية تربط بين خلايا الشبكية وسلسلة الأعصاب (بالطبع لكل عين من عيني الانسان تسعون ألف حزمة) وهذا نظام عجيب ومعقد جداً، وبأخذ هذه النقطة بنظر الاعتبار نعود إلى أصل البحث:ثمة في عالم الخلقة وعلاوة على قضية الظرافة والدقة، أنظمة معقدة غاية التعقيد، تبهت الانسان وتحيره، وحسب تعبير بعض العلماء فإن في مدينة جسم الانسان العظيمة أبنية تكون أكبر ناطحات السحاب في العالم إلى جانبها مثل كوخ طيني.

[٦٦]

وكنموذج: نأخذ بناء الخلية من بين نظم العالم المعقدة، والذى اكتشفت اليوم اسرار عظيمة منه.نعلم أن الانسان وبشكل معدل متكون من «عشرة ملايين مليار» وحدة حية صغيرة تسمى «الخلية».كان اول من إكتشف الخلية ووضع لها تسمية، عالمٌ باسم «هوك» في القرن السابع عشر الميلادي. وطبعاً فإنه لم يكن يعلم يومذاك ما في بناء هذه الوحدة الصغيرة من تعقيد يبعث على الحيرة. ولكن العلماء الذين جاؤوا بعده واصلوا مساعيه وتوصلوا إلى أسرار نسرد فيما يلي جانباً من شهاداتهم:١ ــ يمكن تشبيه خلية مجهرية واحدة بمدينة فيها آلاف التأسيسات مجهزة بمنشآت ومعامل لتبديل المواد الغذائية إلى المواد التي يحتاجها الجسم، بحيث لا يمكن أن نقيس أعظم وأحدث الظواهر الصناعية للبشر بها.٢ ــ تتكون هذه المدينة الصغيرة والصاخبة من ثلاثة أقسام:أ ــ جدار الخلية وهو بمثابة سور المدينة.ب ــ القسم الأوسط للخلية (السايتو بلازم).ج ــ النواة أو مركز القيادة.إن السور المصنوع حول الخلية من اللطافة والظرافة بحيث لو وضعنا ٥٠٠ ألف من هذه الجدران إلى جانب بعضها فمن الصعب ان تساوي

سمك ورقة إعتيادية! ومع هذا فهو حساس ومحكم قبال هجوم العوامل الخارجية إلى درجة أن سور الصين المعروف ليس شيئاً يذكر بالقياس إليه!وهذا السد الرقيق مصنوع بدورة من ثلاثة جدران أو من ثلاثة طبقات إصطلاحاً، يتشكل طرفاه من الأنسجة البروتينية وأسفله مليءٌ بالدهنيات وهذه الدهنيات لاتسمح لشيء أبداً بالدخول داخل المدينة إلاّ بمفتاح رمزي، وهذا المفتاح الرمزي هو: أن المواد التي تريد الدخول إلى المدينة يجب أن تتمكن من إذابة دهون الجدار فيها والنفوذ إلى الداخل، وهذا دليل يثبت أنها صديقة وليست

[٦٧]

من الاعداء. وبهذا فهذه المدينة محروسة بشدة من كل جانب بدون حاجة إلى حارس.٣ ــ يوجد في داخل هذه المدينة (الخلية) قنوات كثيرة تمتد من الجدران إلى اطراف «النواة»، أي حصن قيادة الخلية، تأخذ المواد الغذائية وتحيلها إلى بروتينات.اللطيف أن٢٣ نوعاً خاصاً من الأحماض تدخل هذه الخلية، والبروتين يتكون من تركيب عدة أنواع منها.٤ ــ النواة الأصلية بمفردِها تشاكل ناطحة سحاب مكوّنة من آلاف الأدوار بحيث تكون ناطحات السحاب المعروفة في نيويورك منزلا متواضعاً إلى جانبها.للنواة الاصلية في الخلية وهي مقر القيادة تشكيلات معقدة: غشاء النواة، العصارة الداخلية، والحزمات الرفيعة حولها التي تتولى كل منها مهمة خاصة.٥ ــ العجيب أن في نواة الخلية وحدات صغيرة جداً وظريفة تسمى «الجينات» يصل عددها طبقاً لدراسات العلماء إلى حدود٢٥ ألف.ليست «الجينات» هي الكل في الكل في أعمال الخلايا وحسب، بل إنها تمسك بكل نشاطات الجسم. ومن أهمها توجيه الأُمور الوراثية ونقل الصفات والخصائص إلى الخلايا اللاحقة، أي ان إنتقال كل الصفات الوراثية عند البشر وسائر الحيوانات يتم عن طريق الجينات.ولأن العمل الأساسي للجين يقع على عاتق الحامض الخاص في النواة، لذا يمكن تسميته بالعقل الألكتروني أو كامبيوتر الجين.والأعجب من هذا، أن نفس هذه الجينات متكونة من أجزاء أخرى تصل طبقاتها من٣٠ إلى٥٠ ألف حسب ما يعتقدون.ومختصر الكلام ان هذه المدينة العظيمة بذلك السور العجيب وآلاف المنافذ والبوابات، وآلاف المعامل والمخازن وشبكة الانابيب ومركز القيادة بتأسيساته الكثيرة وإرتباطاته المتعددة والنشاطات الحياتية المتنوعة في تلك الحدود

[٦٨]

الصغيرة، من أعقد وأدهش مدن العالم. إذ إننا لو أردنا أن نصنع مؤسسات تقوم بنفس الأعمال (ولا نستطيع ذلك أبداً)، وجب علينا إقتطاع عشرات الآلاف من الهكتارات من الأرض لوضعها تحت اختيار هذه المؤسسات والابنية المختلفة والأجهزة المعقدة لتكون جاهزة لمثل هذا

البرنامج. لكن المدهش أن نظام الخلق قد ضغط كل هذا في مساحة تعادل ١٥ إلى مليون من المليمتراً!(١)أجل، في خلقة الانسان آلاف آلاف الآيات والعلامات الالَهية (اَلْعَظَمَةُ لِلّهِ الواحِدِ القَهّارِ).

---

(١) من كتب فسلجة الحيوان، فسلجة الوراثة، والسفر إلى أعماق وجود الأنسان.

[٦٩]

[٧٠]

٢ ــ آياته في نمو الجنين

[٧١]

[٧٢]

.

تمهيد:

ظلت تغييرات الجنين في بطن أمه ولسنين طويلة خافية عن أعين العلماء، إلى أن رفعت يد العلم النقاب عن هذا العالم المزدحم بالأسرار، وأظهرت أن النطفة عندما تستقر في محلها من الرحم وتبدأ سيرها التكاملي، ماذا تطوي من المراحل المختلفة والمتنوعة حتى تصبح على هيئة إنسان كامل. والعجيب أن القرآن الكريم أكد عدة مرات على قضية نمو الجنين في آياته المختلفة وفي ذلك العصر والزمان الذي لم يكن له شأن بهذه الاكتشافات، تارةً لاثبات التوحيد وتارة لاثبات المعاد.مع إن «علم الأجنة» ما زال يقطع مراحل طفولته، ومعلوماتنا عن هذا العالم الغامض ما تزال قليلة جداً، ولكن حتى هذا المقدار الذي كشف العلم البشري النقاب عنه، قد وضع دنيا من العجائب والغرائب مقابل أعين العلماء.بهذه الأشارة نستمع خاشعين للآيات أدناه:١ ــ (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الاِ نْسَانَ مِنْ سَلاَلَة مِنْ طِيْن ــ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً في قَرار مَكِيْن ــ ثُمَّ خَلَقْنَا النُطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِيْنَ)(١).٢ ــ (اَلَمْ يَكُ نُطْفَة مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ــ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوّى ــ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى)(٢).٣ ــ (أَوَلَمْ يَرَى الاِنْسَانُ أَنّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَة فَاِذا هُوَ خَصِيْمٌ

(١) (المؤمنون الآية: ١٢ــ١٤).(٢) (القيامة الآية: ٣٧ ــ ٣٩).

مُبْينٌ)(١).٤ ــ (قــالَ لَهُ صــاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذي خَلَقَكَ مِنْ تُراب ثُمَّ مِنْ نُطْفَة ثُمَّ سَوّاكَ رَجُلا)(٢).٥ ــ (هُوَ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ تُراب ثُمَّ مِنْ نُطْفَة ثُمَّ مِنْ عَلَقَة ثمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أجلا مُسَمى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ)(٣)(٤).* * *

.

شرح المفردات:

(العلقة) من مادة «عَلَق» (على وزن شفق) وهي في الأصل بمعنى العلاقة والارتباط بشيء، ولهذا جاءت كلمة «عَلَق» بمعنى «الدم المتخثر» و «الديدان المصاصة للدماء». وقد سميت (العلقة) لهذا الأسم لأنها إحدى مراحل تكوين الجنين في رحم الأم، فهي تشبه قطعة الدم المتخثرة(٥).جاء في «مقاييس اللغة» أن أصل مفهوم هذه المفردة هو إرتباط وتعلق شيء بموجود أعلى منه ثم إتسع مفهومها بعد ذلك.(٦)(المضغة) من مادة «مَضْغ» بمعنى مضغ الطعام وبمعنى قطعة اللحم التي يمضغها الانسان لمرة واحدة شرط أن تكون غير مطبوخة، وإطلاق هذا المصطلح على إحدى مراحل الجنين التي تأتي بعد مرحلة «العلقة» جاء من باب تشابهها مع

(١) (يس الآية: ٧٧).(٢) (الكهف الآية: ٣٧).(٣) (غافر الآية: ٦٧).(٤) توجد على هذا الصعيد آيات اخرى في القرآن الكريم نكتفي بذكر رقمها وسورتها لتقارب معناها من الآيات المذكورة أعلاه، فاطر الآية: ١١، والحج الآية: ٥.(٥) مفردات الراغب.(٦) وفي كتب اللغة الأخرى تعابير تشبه هذا التعبير كما في لسان العرب ومجمع البحرين.

مثل هذا اللحم. ففي ذلك الحين يصبح الجنين على شكل قطعة حمراء فيها الكثير من العروق ذات اللون الأخضر، ويقال أحياناً «قلب الانسان مضغة من جسده»، كل هذه التعابير تعود إلى أصل واحد.(١)(المنيّ) في الأصل من مادة «مَني» (على وزن سَعَى) بمعنى التقدير والقياس،

وبما ان في ماء النطفة مقياس إنسان أو حيوان ما، فقد اطلقت هذه المفردة عليه. ولهذا أيضاً يسمى الموت بـــ «المنيّة» فهي الأجل المقدر للانسان أو الحيوان.وإطلاق مفردة «التمنّي» على الآمال جاء بسبب أن الانسان يُصوِّر ويُحدِّد آماله في قلبه، ولأن الكثير من الآمال لا تطابق الواقع تأتي مفردة «الأمنية» أحياناً بمعنى الكذب.(٢)* * *

.

جمع الآيات وتفسيرها:عالم الجنين الغامض:

كما اشرنا سابقاً فإن القرآن الكريم أكد مراراً على مسألة المراحل التكاملية للجنين في رحم الأم، ودعا الناس كافة إلى مطالعتها بدقة، وإعتبرها إحدى الطرق للوصول إلى معرفة الله، وكذلك إحدىَ طرق إثبات إمكانية المعاد.إن الآيات المعنية الأولى وبقرينة العبارة الأخيرة منها: (فَتَبـــارَكَ اللهُ أحْسَنُ الْخـــالِقْينَ) تشير إلى قضية التوحيد، وبالرغم من أن الآيات اللاحقة من نفس سورة «المؤمنون» هذه تدل على أنها ترمي إلى قضية المعاد أيضاً، وبهذا يكون كل من المبدأ والمعاد معبأين فيها.تتحدث في البداية عن خلق الانسان من (سَلالَة مِنْ طِيْن) ثم من (نُطْفَةً في

---

(١) مقاييس اللغة، مفردات الراغب، مجمع البحرين، لسان العرب وصحاح اللغة.(٢) مفردات الراغب، مجمع البحرين، ولسان العرب.

قَرار مَكْين)، وبعد ذكر هاتين المرحلتين تنتقل إلى ذكر خمس مراحل أخرى:١ ــ مرحلة «العلقة» حيث تتبدل النطفة إلى دم متخثر في داخل الكثير من العروق.٢ ــ مرحلة «المضغة» حيث يصبح هذا الدم المتخثر على شكل قطعة من اللحم.٣ ــ مرحلة «العظام» حيث تتبدل كل الخلايا اللحمية إلى خلايا عظمية.٤ ــ يأتي دور مرحلة تغطية العظام باللحم حيث تغطي العضلات كل العظام (ثُمَّ كَسَوْنـــا الْعِظـــامَ لَحْماً)٥ ــ هنا تتغير لهجة القرآن وتخبرنا عن تحول وخلق مهم وجديد للجنين، فيقول بتعبير مرموز ومغلق (ثُمَّ أنْشَأنـــاهُ خَلْقاً آخَرَ).وعندما تنتهي هذه المراحل السبع يصف القرآن هذه الخلقة العجيبة أجمل وصف بعبارة (فَتَبارَكَ اللهُ أحْسَنُ الخـــالِقْينَ)، وهي عبارة لم تأتِ في أي آية أخرى من القرآن ولم تستخدم في مجال أي موجود آخر.ذكر المفسرون تفاسير متنوعة في المراد من الجملة الغامضة (الخلق الآخر).ويبدو أن أنسبها وأقربها إلى القصد هو بلوغ الجنين مرحلة الحياة الانسانية، حيث يظهر فيه الحس

والحركة، ويبدأ بالتحرك ويضع قدماً في عالم الحيوانات والبشر. يعبر القرآن عن هذه الطفرة الكبيرة والعجيبة بكلمة «الانشاء» في إشارة إلى الطريق الطويل الذي يقطعه الانسان خلال هذه المدة القصيرة.نقرأ في حديث عن الامام الباقر ((عليه السلام)) في تفسير عبارة (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ) قوله: هو نفخ الروح فيه.(١)صحيح أن الجنين كائن حي مند لحظاته الأولى، ولكنه وحتى فترة معينة لا يمتلك أي إحساس وحركة في بطن الأم، ويكون فى الحقيقة أشبه بالنبات منه

(١) تفسير نور الثقلين، المجلد ٣، ص ٥٤١، الحديث ٥٦ و ٥٧.

بالحيوان أو الانسان. ولكن بعد مضي عدة أشهر تحيى فيه الروح الانسانية. ومن هنا جاء في الروايات الاسلامية أن الجنين لا يستحق قبل بلوغه هذه المرحلة الدية الكاملة أبداً، أما إذا بلغ هذه المرحلة كانت ديته نفس الدية الكاملة للانسان.(١)التعبير بـــ (أحسن الخالقين) بالرغم من انه لا خالق غير الله انما هو لاجل ان مفردة «الخلق» ليست فقط بمعنى الايجاد بعد العدم فحسب، بل لها معان أخرى كالـــ: «التقدير» و «الصناعة» و «إعطاء الأشكال الجديدة للأشياء الموجودة في العالم». ولا شك أن الانسان يستطيع بما منحه الله من قوى أن يوجد تغييرات كثيرة على مواد هذا العالم المختلفة، فيصنع من الحديد والفولاذ المصانع والمعامل أو يبني من المواد الانشائية بناءً عظيماً بأحجام مختلفة.إذن فللخلق مفهوم واسع يشمل كل هذه الأمور.ولهذا يروي القرآن الكريم عن لسان النبي عيسى((عليه السلام)) قوله: (إِنّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنْ الْطِّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيْهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِأَذْنِاللهِ)(٢).* * * تشير الآية الثانية من الآيات المنظورة إلى مرحلة بداية ظهور الانسان أولا، أي عندما كان قطرة ماء حقير اِسمه المني، ثم تذكر مرحلة العلقة فقط من بين مراحل نمو الجنين ولا تذكر المراحل الأخرى إلاّ تحت عنوان (فَخَلَقَ فَسَوّى) وهو تعبير شامل جداً، وتشدِّد خاصة على قضية ولادة الجنس «المذكر» و «المؤنث» وهي من أعقد المظاهر المتعلقة بعلم الأجنة (فَجَعَلَ مِنْهُ الَّزوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنْثى). (سوَّى)من مادة «تسوية» بمعنى التنظيم والتسوية، ويعتقد البعض أنها

(١) تفسير نور الثقلين، المجلد ٢، ص ٥٤١، الحديث ٥٦ و ٥٧.(٢) (آل عمران الآية: ٤٩).

اشارة إلى خلق الروح الذي جاء في الآية السابقة بشكل آخر.ويرى البعض أنَّ كلمة «الخلق» إشارة إلى خلق الروح، وكلمة (سوّى)إشارة إلى تنظيم وتعديل أعضاء الجسم الانساني، وفسّرها البعض بالتعديل والتكميل.لكن الظاهر أن تعبيرات الآية شاملة وواسعة بحيث تستوعب كل ألوان الخلق والتنظيم والتعديل والتكامل التي تطرأ على العلقة حتى ساعة وضع الحمل(١).* * *

في الآية الثالثة يؤكد على نقطة جديدة أخرى ويقول بعد الاشارة إلى خلق الانسان من النطفة (خَصِمٌ مُبين).وقد وردت تفاسير متعددة لهذا التعبير: فقالوا تارة انها اشارة الى مرحلتي «الضعف» و «القوة» لدى الانسان، حيث كان يوماً ما نطفة حقيرة ويصبح لاحقاً قوياً ومقتدراً إلى درجة قيامه بالخصومة والضجيج ازاء كل شخص حتى ازاء الله!.وقالوا تارة انها إشارة إلى ملكة النطق والفهم والشعور لدى الانسان، فهذه النطفة الحقيرة يصل بها الأمر إلى عدم الاقتصار على النطق فقط، بل إلى التمتع بالقدرة على الاستدلال والتمنطق بانواعه والاقتدار العقلي. ونحن نعلم أن ظاهرة النطق والبيان والمنطق والاستدلال من أهم ظواهر الوجود الانساني.وقيل أحياناً: ان هذا التعبير اشارة إلى النزاع العجيب الذي يحصل بين الخلايا الذكرية (الحيامن) من أجل التسلط والاتحاد بالخلية الانثوية (البيضة). لأن نطفة الذكر عندما تدخلالرحم تتحرك آلاف الحيامن بسرعة كبيرة لتصل إلى نطفة الأنثى وتتحد معها.

---

(١) تفسير القرطبي، روح المعاني، في ظلال القرآن، الميزان والفخر الرازي، في التعقيب على الآية المعنية.

واول حيمن يصل إليها وينفذ الى داخلها يسد الطريق على بقية الحيامن، لأن غشاءً مقاوماً سيحيط بالبيضة ويمنع من نفوذ بقية الحيامن إليها. وبهذا فإن البقية سيهزمون في هذا الصراع العجيب ويمتصهم الدم. ولهذا يشير القرآن الكريم بعد ذكر مرحلة النطفة إلى قضية (خَصِمٌ مُبين)(١).* * *

في الآية الرابعة أيضا يرد ذكر الخلقة من التراب ثم النطفة وبعد ذلك مرحلة التسوية والتنظيم. وفي الآية الخامسة و هي آخر الآيات يضيف القرآن إلى كل هذا مرحلة «الولادة» وخروج الجنين من بطن الأم على شكل طفل وليد (ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلا).وكما نعرف فإن أهم عجائب الجنين هي نهاية عمر، بالولادة. أية أسباب تؤدي الى إصدار الأوامر للجنين بالخروج في لحظة معينة! وتقلبه عن شكله العادي (في الحالة العادية يكون رأس الجنين إلى الاعلى ووجهه إلى ظهر الأم) فترسل رأسه إلى الأسفل لتسهيل عملية ولادته؟!.في البداية يُخرق كيس الماء الذي كان

الجنين يسبح فيه، وتخرج المياه ويستعد الجنين لدخول الدنيا لوحده.يصيب الأم ألم شديد، تضغط كل عظلات بطنها وظهرها وجانبيها على الجنين. وتدفعه إلى الخارج. إن التفاعلات الكيمياوية والتغييرات الفيزياوية التي تحصل للجسم أثناء الولادة على درجة من الغرابة والعجب بحيث تحكي جميعها عن علم وقدرة غير متناهيين أوجدا هذه البرامج لمثل هذا الهدف المهم.وبهذا نستنتج بوضوح من الآيات أعلاه أن النظام المعقد والمذهل لنمو الجنين يُعَدُّ من الآيات والعلامات المهمة التي تخبر عن وجود العلم والقدرة اللامتناهية لموجده، ومن جانب آخر على قدرته على قضية المعاد والحياة بعد الموت، ذلك أن الجنين يتخذ كل حين حياةً ومعاداً جديداً. ولذلك كان هذا النمو

---

(١) «إعجاز قرآن از نظر علوم روز» ص ٢٧.

* * *

توضيحات:

١ ــ صورة في الماء:

هنالك مثل سائر يقال عندما يراد التذكير بعدم ثبات شيء معين فيقولون: «إنه كالصورة في الماء» لأنها تتبعثر بأقل حركة أو نسيم، لكن العجيب أن الله الكبير يجعل كل الصور المختلفة للانسان وللكثير من الاحياء الأُخرى صوراً في الماء ويودع كل هذه الصور في قطرة من ماء النطفة، من يرسم الصور في الماء سوى الله الكبير ؟.٢ ــ في ظلمات ثلاث: والأغرب من ذلك حسب قول القرآن، هو أن هذه الخِلَق التي يوجدها الله واحدة تلو الأخرى في ماء النطفة ليخرجها خلال فترة قصيرة على هيئة إنسان كامل يقوم بها عز وجل جميعاً في محل مظلم لا تصل إليه يَدُ أحد. كما يقول القرآن في الآية٧ من سورة الزمر:(يَخْلُقُكمْ في بُطُوْنِ اُمَّهــاتِكُمْ خَلْقاً بَعْدِ خَلْق في ظُلُمات ثَلاث ذلِكمُ اللهُ رَبُّكُم لَهُ الْمُلْكُ لا إلــه إلاّ هُوَ فَأَنّى تُصْرَفُوْنَ).إن الظلمات الثلاث كما يرى الكثير من المفسرين وكما أشارت بعض الروايات هي: ظلمة بطن الأم،

ثم ظلمة الرحم، وبعد ذلك ظلمة «المشيمة» (الكيس الخاص الذى يحتوي الجنين) التي تكون على شكل ثلاث ستائر سميكة حول الجنين(١).يحتاج الرسامون والنحاتون المهرة أن ينفذوا صورهم أمام النور والضياء

---

(١) تفسير مجمع البيان ــالميزانــ الفخر الرازي وتفاسير أخرى (روى المرحوم الطبرسي في مجمع البيان نفس هذا المعنى ضمن حديث عن الأمام الباقر((عليه السلام)).

الكامل، لكن ذلك الخالق الكبير يرسم صورة على الماء في ذلك المنزل المظلم بحيث يفتن ويبهر الجميع ويجذبهم للمشاهدة. .

٣ ــ مقر الأمن والامان:

يقول القرآن بصراحة (في الآية ١٣ من سورة المؤمنون): اننا جعلنا نطفة الأنسان في مقر الأمن والأمان (ثُمَّ جَعَلْنــاهُ نُطْفَةً في قَرار مَكْين).والحقيقة أن أكثر نقاط الجسم صوناً هي تلك التي تستقر فيها النطفة والجنين بحيث تكون محمية من كل جانب، فمن ناحية هنالك العمود الفقري والأضلاع، ومن ناحية أخرى هنالك العظم القوي المسمى بالحوض، ومن ناحية ثالثة الأغطية والعضلات المتعددة التي تحتويها البطن، بالأضافة إلى أن أيدي الأم تتحول بشكل لا شعوري أثناء وقوع بعض الحوادث الخطيرة إلى درع مقابل البطن !.والأغرب من كل هذا أن الجنين يقع في داخل كيس مملوء بماء لزج بحيث يكون معلقاً في داخل ذلك الكيس وفي حالة تامة من فقدان الوزن، أي لا يواجِهُ أي ضغط من أي جانب. ذلك أن بنية الجنين وخاصة في بداياته تكون رقيقة جداً بحيث يمكن لأقلّ ضغط عليه أَن يسحقه.ولهذا الكيس بما يحتويه من ماء خاصية القابلية على مواجهة الضربات، وهو تماماً كاللوالب المرنة التي توضع لأفضل السيارات، حيث بامكانه إمتصاص وإلغاء أية ضربة تواجهه نتيجة الحركات السريعة للأم.والألطف انه يحفظ درجة الحرارة بالنسبة للجنين ضمن الحدود المعتدلة. ولا يسمح للحرارة والبرودة المفاجئة التي تهاجم بطن الأم من الخارج أن تترك آثارها بسهولة على الجنين !.فهل يمكن العثور على مقر اكثر أماناً من هذا ؟ وما أجمل تعبير القرآن حين يسمي مقر النطفة بــ «القَرار المكين»؟! .

٤ ــ خصيمٌ مبين:

هذه ايضاً إحدى عجائب الجنين، سواء فسرناها بمعنى قدرة الانسان على الكلام والاستدلال والاحتجاج، كما قال بعض المفسرين. أو فسرناها كونها المسابقة والنزاع الذي يحصل بين الحيامن اثناء الحركة باتجاه البويضة (نطفة الأنثى) في رحم الأم، والذي ينتهي بنجاح أحد الحيامن في إتحاده بالبويضة، أما بقية الذين إنهزموا في هذه الخصومة فانهم يفنون ويجذبهم الدم. أو إعتبرناها إشارة إلى كلا التفسيرين.وعلى كل حال، فهذه من النقاط الظريفة والبديعة للجنين، إذ يظهر من موجود منحط وحقير ظاهرياً إلى ظاهرة سامية وقيمة جداً..

٥ ــ تغذية الجنين:

تغذية الجنين بدورها إحدى العجائب، لأن النمو والرشد السريع للجنين يستلزم مواداً غذائية كاملة ونظيفة ومصفّاة من ناحية، ومن ناحية أخرى يحتاج الى الأُوكسجين والماء بالمقدار الكافي الذي يجب أن يصل الجنين بشكل مستمر، وقد جعل الله هذه المهمة على عاتق جهاز إسمه «الحبل السري» الذي خلقه منذ اللحظات الأولى إلى جانب الجنين، والذي يرتبط من أحد طرفيه بقلب الأم عن طريق شريانين ووريد واحد، ومن طرفه الآخر بالجنين عن طريق عقدة السُرّة.يمتص هذا الجهاز كل المواد الغذائية والماء والاوكسجين اللازم بواسطة نظام الدورة الدموية للأم، ثم ينقل هذه المواد بعد تصفيتها ثانيةً إلى الجنين، ثم يقوم باستقطاب الفضلات والزوائد والكاربونات وما شاكل ويعيدها إلى دم الأم.إذن فالحبل السري يلعب دور الجذب والدفع بالاضافة إلى كونه مصفىً بحيث يستطيع الانسان من خلال مجرد مطالعته للبناء المذهل لهذا الحبل السري أن يصل إلى عظمة الخالق.اللطيف أنه ورد حديث عن أحد المعصومين((عليهم السلام)) يقول فيه ما معناه: ان

الجنين يفيد من النسيم الذي تستنشقه الأم!فَكم من السنين مضت على إكتشاف العلماء بأن رئتي الجنين لا تقومان بنشاطهما التنفسي وأنه يسبح في ماء الرحم وأنه بحاجة إلى الأُوكسجين؟ وكم مضى على معرفتهم أن الاوكسيجين الذي تستنشقه الأُم يدخل إلى دمها وينتقل إلى الحبل السري فينتفع منه الجنين عن طريق سُرّته؟.على أي حال، لم يمض زمن طويل على ذلك لكن العين البصيرة للامام((عليه السلام)) رأت هذه الحقيقة فقال: ان الجنين يفيد من هذا النسيم. هل

هناك تعبير مقابل الهواء الملوّث الذي نتنفسه أفضل من كلمة النسيم الذي إستخدمه الامام للاشارة إلى الأُوكسيجين؟ (١) .

٦ ــ مصير الجنين من حيث الجنس:

لم يتمكن أحد من الاجابة على السؤال القائل: كيف وبتأثير أية عوامل يصير الجنين ذكراً أو أُنثى؟ أي ان العلم لم يعثر لحد الآن على جواب له، فمن الجائز أن تكون بعض المواد الغذائية أو الأدوية مؤثرة في هذا المجال، لكن المسلم بهِ هو أن تأثيرها ليس مصيرياً وجازماً.ومع هذا فالعجيب مشاهدة تعادل نسبي دائم بين هذين الجنسين (الرجل والمرأة) في المجتمعات البشرية. وإنْ كان ثمة إختلاف فانه ليس بالاختلاف الملفت للنظر.تصوروا يوماً يختلُّ فيه هذا التعادل فتكون نسبة الرجال إلى النساء عشرة إلى واحد مثلا، أو على العكس يكون عدد النساء عشرة أضعاف الرجال، أية مفاسد عظيمة سوف تظهر؟ وكيف سيضطرب نظام المجتمعات البشرية؟ وهل أن المجتمع الذي يكون فيه مقابل كل رجل عشرة نساء أو مقابل كل إمرأة عشر رجال يستطيع أن يوفر لنفسه حياة هادئة؟

---

(١) إقتبس من كتاب «اولين دانشكاه»، المجلد ١ ص ٢٥٣.

لكن الذي خلق الانسان لحياة سالمة، أَوجد هذا التوازن العجيب والغامض فيها. أجل إن الله تعالى ووفقاً لمشيئته وحكمته يهب لمن يشاء ذكوراً ويهب لمن يشاء إناثاً (يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُور)(١). لكن هذه المشيئة والارادة محسوبة..

٧ ــ تغيّرات سريعة ومبهمة:

من العجائب الأُخرى في الجنين، أن النطفة الأصلية للانسان تكون في بدايتها مجرد موجود أُحادي الخلية، ينمو ويكثر بواسطة الانشطار على شكل متوالية هندسية. تحدث هذه الكثرة وهذه التحولات بصورة سريعة جداً وكما قال القرآن: (خَلْقاً بَعْدِ خَلْق) ولو إستمر هذا النمو على هذه السرعة بعد الولادة لكانت للانسان خلال مدة قصيرة قامة بطول الجبال! ولضاق به وجه الأرض، ولكن نفس الذي منح الجنين السرعة في سيرهِ التكاملي سوف يخفف منها عند وصول الانسان إلى مرحلة معينة ثم يوقفها بالتدريج!. .

٨ ــ نظرة الرحم المستقبلية!!

ما هي العوامل التي تجعل من الخلايا الناتجة عن خلية واحدة تأخذ أنواعاً متباينة: خلايا غضروفية، عظمية، عضلية، جلدية، وغيرها؟ هل هو الرحم الذي قدّر مستقبل هذا الموجود فمنح الخلايا أشكالها كلٌ في محلها؟ إنْ كان له مثل هذا الذهن والقدرة والابداع فمن وهبه هذا الذهن والقدرة والأبداع؟!يقول العالم المعروف «الكسيس كارايل» في كتاب «الانسان ذلك المجهول»: «كأنَّ كل جزء من الجسم على معرفة بالاحتياجات الحالية والمستقبلية لكل الجسم، وهو يغير نفسه وفقاً لهذه الأحتياجات، للزمان والمكان مفاهيم أخرى عند الأنسجة، لأنها (الأنسجة) تدرك جيداً البعيد كادراكها للقريب والمستقبل كادراكها

---

(١) (الشورى الآية: ٤٩).

للحال، فمثلا تصبح الأنسجة اللينة للأعضاء الجنسية للمرأة في نهاية فترة الحمل ألين واكثر قدرة على الاتساع، وهذا التغيّر يُسهّل عبور الجنين في الأيام اللاحقة عند الولادة، وفي نفس الوقت تزداد خلايا الثدي ويكبر هذا العضو بل إنه يمارس نشاطه وينتج اللبن إستعداداً لتغذية الوليد حتى قبل الولادة.. إن وضع وسلوك العضلات على طول فترة نمو الجنين في رحم الام، يكون وكأنها تعلم المستقبل مسبقاً، فيُراعى إنسجام الأعضاء في لحظتين زمنيتين متفاوتتين أو في نقطتين مكانيتين مختلفتين»(١).مهما سمينا هذا الموضوع فانه لن يتغير، لكنه على أي حال يخبر بوضوح عن وجود مبدأ كبير للعلم والقدرة فيما ورائه..

٩ ــ كساء للعظام:

قرأنا في تفسير الآية ١٤ من سورة «المؤمنون» أن للقرآن تعبيراً خاصاً عن قضية ظهور العضلات يقول فيه: (ثُمَّ كَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً)، إن إختيار كلمة (كَسَوْنَا) إحدى معجزات القرآن العلمية، فقد ثبت اليوم أن العظام تظهر قبل الأنسجة اللحمية(٢)..

١٠ ــ خروج الجنين:

كما قرأنا في تفسير الآية ٥ من سورة الحج، فإن الله ينسب إخراج الجنين من الرحم إلىنفسه (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلا) إن هذا التعبير يكشف عن أهمية عملية الولادة التي توصل إليها العلماء في يومنا الحاضر.ما هو العامل الذي ينظم زمان الولادة؟ وما هي الظروف اللازمة لاصدار الأوامر للجنين بالخروج؟ وكيف تُعَدُّ جميعُ أعضاء الجسم لهذا التحوّل المهم؟

(١) «الانسان ذلك المجهول» ص ١٩٠.(٢) «إعجاز القرآن من وجهة نظر العلوم المعاصرة» ص ٢٩.

وضمن أية عوامل ينقلب جسم الجنين تدريجياً ليخرج رأسهُ إلى الدنيا اولا؟ هل تراه يعلم أن ولادته ابتداءً برجليه غير ممكنة أو أنها عصية جداً؟ مَن يصدر الأوامر لكل عضلات جسم الأم بتسليط أشد الضغوط على الجنين من أجل الخروج؟وتظهر اهمية هذا الموضوع عندما يختل هذا النظام نادراً ويضطر الأطباء إلى عملية «فتح البطن»، وربما كان وجود مثل هؤلاء الأشخاص القلة، إنذاراً للجميع لكي يتفكروا بأهمية هذا الموضوع.بالطبع يمكن في بعض الحالات التنبؤ بزمان الولادة على وجه التقريب، ولكن في بعض الحالات تحصل الولادة قبل الموعد وأحياناً بعده.وهكذا فإن عملية الولادة بكل ما يتعلق بها من أمور محسوبة، إنْ هي إلاّ آية أخرى من آياته..

١١ ــ التغيّرات المذهلة في لحظة الولادة:

ذكرنا أن أحداً لا يستطيع تعيين لحظة الولادة بصورة دقيقة، وما يتنبأ به الأطباء عموماً أو خصوصاً لإخبار الناس فإنه ذو طابع تخميني فقط، كما نقرأ في الآية٨ من سورة الرعد:(اللهُ يَعْلَمُ مـــا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَمـــا تَغِيْضُ الأَرْحـــامُ وَمـــا تَزْدادُ وَكُلُّ شَيء عِنْدَهُ بِمِقْدار)(١).ظاهر الآية أن هذا من العلوم الالهية الخاصة، وهو العلم بخصائص الجنين من كل الجوانب قبل ولادته، فهو عزوجل لا يعلم بالجنين من حيث جنسه فقط وانما يعلم بكل قابلياته وأذواقه وصفاته الظاهرة والباطنة، كما أن لحظة ولادته لا يعلمها

(١) تغيض من مادة (غيض) على وزن فيض بمعنى إمتصاص السائل أو إحتوائه، ثم جاءت بمعنى النقصان وكذلك بمعنى الفساد، ولهذا فسر البعض كلمة تغيض في الآية اعلاه بمعنى نقصان الجنين والبعض بمعنى الولادة قبل الموعد وهو المعنى المشهور بين المفسرين، وهو المروي في حديث عن الامام الباقر أو الامام الصادق((عليهما السلام))، كما إن ذيل الآية يدل على ذلك.

إلاّ الله. ومن أجل أن لا نتصور أن هذه الزيادة والنقصان تأتي بدون حساب أو مبرر، بل إن ساعتها وثانيتها ولحظتها محسوبة جميعاً، فقد أضاف قائلا:(وكُلُّ شَيء عِنْدَهُ بِمِقْدار).المثير هو ظهور تغيرّات عجيبة على نظام حياة الوليد في لحظة ولادته وهي تغيرات ضرورية جداً لتكييفه

مع المحيط الجديد. وسوف نشير إلى إثنتين منها فقط:أ: تغيّر نظام دوران الدم، فعملية دوران الدم في الجنين دوران بسيط، لأنه لا يتحرك الدم الملوّث نحو الرئتين من أجل التصفية، إذ لا تنفس هناك. ولهذا كان إثنان من أجزاء قلبه (البطين الايمن والأيسر) الذي يتحمل أحدهما مسؤولية إيصال الدم إلى الأعضاء والثاني يتحمل مسؤولية إيصال الدم إلى الرئتين للتصفية، على اتصال مع بعضهما، ولكن بمجرد أن يولد الجنين تُغلق البوابة بينهما وينقسم الدم إلى قسمين، قسم يُرسل إلى كل خلايا الجسم لتغذيتها والقسم الآخر إلى الرئتين لتصفيته.أجل، ما دام الجنين في بطن الأُم فإنه يحصل على ما يحتاج من الأوكسجين من دم الام، لكن عليه أن يكتفي ذاتياً بعد الولادة ويحصل على الاوكسجين بواسطة الرئة والتنفس، الرئة التي كانت قد خِلُقتْ وأُعدّت مسبقاً بشكل تام في رحم الأم، سوف تمارش عملها فجأة بأمر إلهي واحد، وهذا من العجائب حقاً.ب : إنسداد عقدة السُرّة وجفافها وسقوطها (عادةً ما يقطعون عقدة السرة التى تعتبر طريق تغذية الجنين بواسطة الحبل السري من دم الأم، ولكن حتى لو لم يقطعوها فإنها تتيبس وتسقط تدريجياً).أي كما ان طريق الحصول على الاوكسجين يتغير عند الولادة، فإن طريق التغذية يتغير أيضاً وبشكل مفاجيء، ويبدأ الفم والمعدة والأمعاء التي اكتملت في الفترة الجنينية ولكنها لم تكن تعمل، فتبدأ بالعمل فجأة. وهذه واحدة أخرى من العجائب المهمة في خلقة الإنسان.

.

١٢ ــ بكاء الأطفال:

غالباً ما يكثر الأطفال الرضّع من البكاء، من الممكن أن يكون هذا البكاء دلالة على آلامهم، فهم لا يمتلكون لساناً غير لسان البكاء للافصاح عن الألم، أو أنه بسبب الجوع والعطش، أو بسبب الانزعاج إزاء ظروف الحياة الجديدة سواء كانت حراً أو برداً أو ضوءً شديداً أو ما شابه، لكن من الممكن أن يبكي الأطفال بدون هذه الظروف أيضاً، وهذا البكاء رمز حياتهم وبقائها.فهم في ذلك الحين بحاجة شديدة إلى الرياضة والحركة والحال أن ليس بامكانهم الرياضة، الرياضة الوحيدة القادرة على تحريك كل وجودهم بما فيه الأيدي والأرجل والقفص الصدري والبطن وإدارة الدم بسرعة في كل العروق لتغذية كافة الخلايا بصورة متواصلة، هي «رياضة البكاء» التي تعتبر بالنسبة للطفل رياضة كاملة، ومن هنا إذا لم يبكِ الوليد فيُحتمل أن يتعرض لأضرار جمّة أو تتعرض حياته كلها إلى الخطر.وفضلا عن هذا فإن هنالك رطوبة عالية في مخ الأطفال إذا بقيت هناك يمكن أن تؤدي إلى أمراض وأوجاع شديدة، أو تسبب العمى. والبكاء يعمل على

خروج الرطوبة الزائدة من أعينهم على شكل دموع، فيضمن ذلك صحتهم.يقول الامام الصادق((عليه السلام)) في حديثه المعروف بـــ «توحيد المفضل» بعد الاشارة إلى هذا الأمر: «أفليس قد جاز أن يكون الطفل ينتفع بالبكاء ووالداه لا يعرفان ذلك فهما دائبان ليسكتاه ويتوخّيان في الأُمور مرضاته لئلا يبكي، وهما لا يعلمان أنَّ البكاء أصلح له وأجمل عاقبةً...»(١)وفي نفس الرواية، يشير الإمام((عليه السلام)) إلى جريان الماء من أفواه الأطفال الذي يكمّل مهمة دموع أعين الأطفال، ويقول : «فجعل الله تلك الرطوبة تسيل من أفواههم

(١) بحار الأنوار، ج ٣ ص ٦٥ و ٦٦.

في صغرهم لمالهم في ذلك من الصحة في كبرهم»(١) .

١٣ ــ اليقظة التدريجية للعقل والحواس عند الأطفال:

لو كان للطفل عقل منذ البداية فلا شك أنه كان يتألم بشدة، لأنه سوف يشعر آنذاك بالضعف والمذلة، فهو لا يستطيع المشي ولا الأكل ولا القيام بأبسط الحركات، يجب أن يلفّوه بقماش ويضعوه في المهد ويغطوه بغطاء ويشطّفوه ويحفظوه.يقول الإمام الصادق((عليه السلام)) ضمن الإشارة إلى هذا الموضوع في حديثه المسمى بـــ «توحيد المفضل»: «فإنه لو كان يولد تام العقل مستقلا بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الأولاد، وما قدر أن يكون للوالدين في الأشتغال بالوالد من المصلحة...»(٢)بالإضافة إلى أن الإنتقال الى عالم جديد تمام الجدة ومجهول كان سيسبب له من الوحشة والإضطراب ما قد يضر بفكره وأعصابه، لكن تلك القدرة الأزلية التي خلقت الإنسان للتكامل قدّرت فيه كل هذه الأصول.كذلك لو كانت حواسه متكاملة، وفتح عينه فجأة وشاهد مشاهد جديدة وإستمعت أذنه إلى الأصوات والأنغام الجديدة، لما كان في وسعه تحملها، وإنما تحصل هذه الأمور بصورة تدريجية وواحدة تلو الأخرى.الملفت للنظر أن القرآن الكريم يقول : (واللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُوْنَ شَيْئاً وَجَعلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأبْصارَ والأفْئِدةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ)(٣).وفقاً لهذه الآية فإن الإنسان لا يمتلك أي علم في البداية ولا يتمتع حتى بالأذن والعين، ثم وهبه الله القدرة على السماع والنظر والتفكير. ربما كان ذكر السمع

(١) بحار الأنوار، ج ٣ ص ٦٥ و ٦٦.(٢) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٦٤.(٣) (النحلالآية: ٧٨).

[٨٩]

قبل ذكر الأبصار إشارة إلى أن النشاط السمعي عند الوليد يبدأ أولا، وبعد فترة تكتسب الأعين قدرتها على الإبصار. بل إن البعض يعتقد وكما أسلفنا أن للأذن في عالم الجنين مقداراً من القابلية على السماع، فهي تسمع أنغام قلب الأم وتعتاد عليها.

.

١٤ ــ غذاء الطفل مُعدٌّ قبل ولادته:

لا يستطيع وليد الإنسان والكثير من الحيوانات في بداية ولادته أن يأكل الأطعمة الجافة والثقيلة، ولهذا فقد هيّأت يد الخالق المقتدرة غذاءً خاصاً في ثدي الأم إسمه «اللبن». والحقيقة أن نفس دماء جسم الأم التي كان الطفل ينتفع منها في الفترة الجنينية تتحول الى لبن ضمن عملية تغيّر واسعة وسريعة، فتغذّيه حتى الفترة اللازمة.يتغير شكل ثدي الأم بصورة تدريجية خلال فترة الحمل. ويكبر شيئاً فشيئاً نتيجة الافرازات التي يقذف بها الحبل السري إلى دم الأم ليأمرها بالإستعداد الكامل، وهكذا يُهيء الثدي نفسه لوظيفتِهِ المستقبلية الثقيلة، إن الأنابيب الموجودة في الثدي والممتدة حتى قمة الثدي (الحلمة)، تتشعب وتزداد وتفرز إفرازات بسيطة، وعند ولادة الطفل تعلن عن إستعدادها التام.العجيب أن ترشح اللبن من خلايا الثدي ليس دائمياً وإلاّ لخرج اللبن بصورة متواصلة الى الخارج. بل إنه بمجرد ملامسة شفتي الوليد لثدي الأم وبدئه بالإمتصاص تتجه التنبهات العصبية عن طريق الأعصاب إلى النخاع ومن النخاع إلى الهايبوثالموس فتؤدي إلى نوعين من الإفراز، يصب أحدهما في الأثداء عن طريق الدم فيضغط على الأنسجة المحيطة بأنابيب اللبن ليندفع اللبن بإتجاه الحلمة، وتتم كل هذه الأعمال خلال٣٠ ثانية. والأعجب أن اللبن لا يتحرك في ذلك الثدي الذي يرضع منهُ الطفل فقط، بل ويحدث هذا في الثدي الآخر أيضاً فيكون مستعداً، ولذا يُؤكد على إرضاع الوليد من كلا الثديين.

[٩٠]

اللبن غذاء كامل، وخاصة لبن الأم الذي يعتبر غذاءً أكمل بالنسبة لوليدها ولا يستطيع شيء في العالم أن يحل محله.يحتوي الحليب على انواع الفيتامينات كفيتامينa،b،d،sap وفيتامينات أخرى. وقد إكتشف فيه العلماء٢٢ مادة مختلفة، علاوة على انواع الأنزيمات(١). والكثير من الأدوية الضرورية تنتقل عن طريق لبن الأم إلى وليدها. ومن هنا فإن الأطفال المحرومين من لبن الأم يصابون بمختلف الاعراض.يبدو أن لبن الأم لا يغذي جسم الطفل فحسب، بل إنه يروي عواطفه وروحه أيضاً، ولهذا قد يصاب المحرومون من لبن الأم بمشاكل ونواقص عاطفية

بعض الأحيان.وعلى هذا الأساس يقول القرآن الكريم : (والْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كـــامِلَيْنِ لِمَنْ أرادَ أنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ)(٢).إن عجائب وغرائب اللبن اكثر من أن يحتويها هذا المختصر، وإذا أردنا أن نترك عنان القلم لمثل هذه الأبحاث نكون قد خرجنا عن بحثنا التفسيري.

---

(١) من أجل مزيد من الأطلاع تراجع دائرة معارف القرن العشرين، مادة لبن، والجامعة الأولى (اولين دانشگاه) المجلد ٦، وإعجاز القرآن من وجهة نظر العلوم المعاصرة. وقد وردت إشارات مثيرة حول هذا المعنى في حديث توحيد المفضل (بحار الأنوار، المجلد ٣، ص ٦٢).(٢) (البقرة الآية: ٢٣٣).

٣ ــ آياته في عالم الحياة

.

تمهيد:

إن ظاهرة الحياة هي أعقد ظواهر هذا العالم حسب ما نعلم، ظاهرة بقيت عقول كل العلماء في حيرة منها، ومضت آلاف السنين والمفكرون يفكرون فيها، لكن هذا اللغز لم يُحلّ لحد الآن.ما هو السبب الذي أدّى إلى أن تضع الموجودات الجامدة وبطفرة عجيبة، أقدامها في مرتبة الحياة والعيش فتكون لها تغذية ونمو وتناسل؟!من الممكن أن يصنع الإنسان جهازاً بالغ التعقيد (كالعقول الالكترونية المتطورة جداً) بعد قرون من التجارب، وهذا بدوره شاهد على سعة إطلاع و معرفة من صنعوه، ولكن هذا الجهاز الدقيق والمعقد للغاية لا ينمو أبداً، ولا يداوي أو يرمم كسوره وعيوبه. ولا يتناسل بصورة مبدأية مطلقاً.أما الكائنات الحية، فإنها فضلا عن بنائها الدقيق والمعقد والمذهل إلى أقصى الحدود، فانها تستطيع القيام بهذه الأعمال وأعمال أخرى كثيرة. والقليل من المطالعة حول وضعها يشكل آية واضحة ودليلا بيّناً على العلم والقدرة اللامتناهية لخالقها.يُكثر القرآن من الاستناد على موضوع الحياة والموت في آياته المختلفة

ضمن قضية إثبات وجود الله، ونفي الشرك بانواعه، ويؤكد عليه كثيراً، والحق أنه كذلك.بعد هذه الأشارة نستمع خاشعين إلى الآيات أدناه:١ ــ (إِنَّ اللهَ فــالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنْ الْحيِّ ذلِكُمُ اللهُ فَأَنّى تُؤفَكُوْنَ)(١).

---

(١) (الانعام الآية: ٩٥)

٢ ــ (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْيــاكُمْ ثُمَّ يُمِيْتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيْكُمْ ثُمَّ إِلَيْهَ تُرْجَعُوْنَ)(١).٣ ــ (هُوَ يُحْيِيْ وَيُمِيْتُ وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)(٢).٤ ــ (وَهُوَ الَّذِيْ يُحْيِيْ وَيُمِيْتُ وَلَهُ إِخْتِلافُ اللَّيْلِ والنَّهارِ أَفَلا تَعْقِلُوْنَ)(٣).٥ ــ (إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمــواتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيْتُ وَمــالَكُمْ مِنْ دُوْنِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيْرِ)(٤).٦ ــ (لا إِلــهَ إِلاّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيْتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمْ الأَوَّلِيْنَ)(٥).٧ ــ (أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِيْ حــاجَّ إِبراهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللهُ الْمُلْكِ إِذْ قــالَ ابْراهِيْمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيْتُ قــالَ أَنا أُحْيِي وَأُمِيْتُ)(٦).٨ ــ (إِنّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيْتُ وإِلَيْنَا الْمَصِيْرُ)(٧).٩ ــ (اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيْتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيْكُمْ هَلْ مِنْ شركائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيء سُبْحــانَهُ وَتَعالى عَمّا يُشْرِكُوْنَ)(٨).١٠ ــ (واللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمــاءِ مــاءً فَأَحْيى بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهــا إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُوْنَ)(٩).* * *

---

(١) (البقرة الآية: ٢٨) .(٢) (يونس الآية: ٥٦) .(٣) (المؤمنون الآية: ٨٠) .(٤) (التوبة الآية: ١١٦) .(٥)١٠. (الدخان الآية: ٨) .(٦) (البقرة الآية: ٢٥٨) .(٧) (ق الآية: ٤٣) .(٨) (الروم الآية: ٤٠) .(٩) (النحل الآية: ٦٥) .

.

شرح المفردات:

(الحياة) يقول الراغب في المفردات: تستخدم الحياة في معان مختلفة: الحياة النباتية، الحياة الحسية (حياة الحيوانات)، الحياة العقلانية (حياة البشر)، الحياة بمعنى زوال الغم والهم والحزن، الحياة الأخروية الخالدة، والحياة المذكورة كونها إحدى الصفات الإلهية، ويأتي لكل واحدة منها بشاهد من الآيات القرآنية.ولكن في «مقاييس اللغة» يُذكر لهذه المفردة معنيان

أساسيان، أحدهما الحياة مقابل الموت، والآخر «الحياء» وهو ما يقابل الوقاحة والصلافة.غير أن البعض يعتقد برجوع المعنيين إلى أصل واحد، لأن الذي يتمتع بالحياة والخجل إنما يصد نفسه عن الضعف والعجز ويتحرك بأتجاه الخير والطهارة. وإن كان الثعبان العظيم يسمى بـــ «الحية» فذلك لشدة تحركها التي تعتبر من أبرز آثار الحياة والعيش. وتسمى القبيلة بـــ «الحي» بلحاظ إمتلاكها حياةً إجتماعيةً وجماعيةً.(١)وبالطبع فإن لهذه المفردة معانيَ كنائية كثيرة من جملتها «الإيمان» في مقابل الكفر، و «الطراوة» في مقابل الذبول، و «الحركة» في قبال السكون. ويطلق على التحية أسم «التحية» من باب أن فيها طلب للسلامة والحياة.«الموت» هو بالضبط النقطة المقابلة للحياة، لهذا كانت له انواع مختلفة يقابل كل منها نوعاً من انواع الحياة، منها «الموت النباتي» كما في قول القرآن حول المطر (أَحْيَيْنَـــا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً)(٢). و «الموت الحيواني» و «الموت العقلاني» أي الجهل، و «الموت» بمعنى الغم والحزن كما يقول القرآن : (وَيَأْتِيْهِ الْمَوْتَ مِنْ كُلِّ مكان وَمَـــا هُوَ بِمَيِّت)(٣) والموت بمعنى النوم، كما قالوا : «النوم موت خفيف» مثلما أن

---

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مفردات الراغب، لسان العرب، مجمع البحرين، وكتب اللغة الأخرى.(٢) (ق الآية: ١١) .(٣) (ابراهيم الآية: ١٧) .

* * *

.

جمع الآيات وتفسيرها:خَلقُ الحياة آية الخلق:

جرى الاستناد في الآيات العشرة أعلاه وعدد آخر من الآيات القرآنية على قضية الحياة والموت إحدى الآيات الالهية الكبيرة وعلامات الذات المقدسة للخالق، وكان التأكيد في أغلبها على حياة وموت الانسان، وفي بعضها على الحياة والموت بشكل عام أي عند جميع الأحياء، وفي البعض على حياة وموت النباتات.في الآية المنظورة الأولى، ورد كلام عن فلق النواة والحبّة بواسطة القدرة الالهية، وعن إستخراج الكائن الحي من الكائن الميت وبالعكس الكائن الميت من الحي، بحيث تشمل الحياة والموت بالمعنى الواسع للكلمة في النباتات والحيوانات والبشر.الملفت للنظر أن حبة النباتات موجود محكم، والنواة أكثر إحكاماً منها، إذ ليس فلقها بالأمر الممكن بسهولة. ومع هذا فالبرعم الخارج من داخل الحبة والنواة

من الرقة واللطافة بحيث لايوصف. أما كيف يمكن لذلك البرعم اللطيف أن يفلق تلك القلعة والحصن الحصين فيخرج من خلال جدرانه ويستمر في طريقه ؟ فليس ذلك سوى القدرة الألهية الفريدة وكأنَّ عبارة (إنَّ اللهَ فــالِقُ الْحَبِّ والنَّوى)إشارة دقيقة إلى هذا المعنى.وحول كيفية إخراج الله تعالى الميِّت من الحيِّ والحيِّ من الميتِ، ذكر الكثير من المفسرين الماضين الأمثلة عليها، بخروج الدجاجة من البيضة، والشجر والنبات من الحبة والنواة، والانسان من النطفة. في حين صار من المسلّم به لدى العلماء اليوم أن الكائنات الحية تظهر دائماً من الكائنات الحية. أي أن في داخل حبة ونواة النباتات والأشجار فضلا عن الكمية المعينة من المواد الغذائية، توجد خلية حية هي في الحقيقة نبات وشجرة مجهرية صغيرة جداً وإذا إستقرت في المحيط المناسب ستفيد من هذه المواد الغذائية فتنمو وتكبر، وكذلك في نطفة الأنسان والحيوان فإن الخلايا الحية كثيرة، وهي المصدر لظهور الأنسان والحيوان.أجاب بعض المفسرين المعاصرين (كالمراغي ومؤلف المنار) الذين إلتفتوا إلى هذا الأشكال بأن هذه الخلايا الخاصة مع انها تسمى في عرف علماء العلوم الطبيعية بالكائنات الحية، ولكنها لا تجدر بهذه التسمية في العرف العام للناس واللغة، لأن أياً من آثار الحياة والعيش لا تظهر عليها(١).والأفضل أن نقول: ان المراد بخروج الكائن الحي من الميت هو أحد معنيين:الأول ، هو بالرغم من أن الكائنات الحية في الظروف الحالية تخرج دائماً من البذور والحبوب والنطف الحية، ولكن لا شك أن الأمر لم يكن كذلك في البداية، لأن الكرة الأرضية عندما إنفصلت عن الشمس كانت عبارة عن نار بتمامها، ولم يكن ثمة كائن حي عليها يقيناً، ثم ظهرت اول الكائنات الحية من الكائنات غير الحية ضمن ظروف لا علم لنا بها اليوم وبأمر الله بعد سلسة من القوانين البالغة في التعقيد.والفرضية القائلة: ان من الممكن للحياة أن تكون قد إنتقلت من الكواكب

---

(١) تفسير المراغي المجلد ٧ ص ١٩٧ وتفسير المنار المجلد ٧ ص ٦٣١

[٩٩]

تقول الآية الثانية بلهجة الأستفهام المُوبِّخ:(كيفَ تَكْفرون بالله وكنتمْ أمواتاً فأحْياكُم ثم يُمِيتُكُم ثم يحْييكمْ)وفى هذا إشارة إلى أن قضية الموت والحياة كافية لمعرفة الله.

[١٠٠]

وردت الآية الرابعة ضمن آيات التوحيد في سورة المؤمنون، وأكدت على قضيتين «قضية الحياة والموت»، و «قضية ذهاب وإياب الليل والنهار» ولهذين شبه كبير فيما بينهما، الموت كالظلمة، والحياة كالنور والضياء. وربما كان تقديم الليل على النهار من هذا الباب أيضاً، ذلك أن الموت كان قبل أن تكون الحياة وكان الانسان سابقاً أجزاءً ميتة ثم اضفى الله على جسمه ثوب الحياة.سواء كان «إختلاف الليل والنهار» بمعنى ذهاب وإياب الليل والنهار (من مادة خِلفة على وزن حِرفة بمعنى التناوب في المجيء والحلول محل البعض)، أو

[١٠١]

تعكس الآية السابعة الحوار التاريخي بين النبي ابراهيم((عليه السلام)) وجبار زمانه «نمرود»، ويبدو أن هذا الحوار جاء بعد قصة تحطيم ابراهيم الأصنام وظهوره كبطل من الأبطال وذيوع صيته في كل مكان وأضطرار نمرود إلى إحضاره(١).

---

(١) ورد هذا المعنى وهو أن الحوار أعلاه حصل بعد تحطيم الأصنام من قبل ابراهيم في عدة تفاسير منها تفسير المراغي (المجلد ٣، ص ٢١) والفخر الرازي (المجلد ٧ ص ٢٥).

[١٠٢]

إن اول سؤال سأله هذا الرجل الأناني الذي أجنّه غرور السلطان من النبي ابراهيم((عليه السلام)) هو: «من إلهك؟».فاعتمد ابراهيم قبل كل شيء على ظاهرة الحياة والموت المهمة وقال: «ربي الذي يُحيي ويميت».فقال الجبارالطاغي نمرود مع علمه الاكيد بأحقية كلام ابراهيم ومن أجل إغفال من حوله وتخدير عقولهم: إنني استطيع القيام بهذا أيضاً «أنا أحيي وأميت».لم يذكر القرآن ما صنعه نمرود من أجل إثبات إدعائه هنا. ولكن الكثير من المفسرين قالوا: انه

أمر فوراً باحضار إثنين من السجناء، فأطلق سراح أحدهم وحكم على الآخر بالموت وقال: أرأيت كيف أن الحياة والموت بيدي؟!وَالفخر الرازي أستبعَدَ هذا المعنى في تفسيره وهو أن يكون الحضور في مجلس نمرود من البله والسذاجة بحيث لا يدركون الفرق بين عمل نمرود وبين الحياة والموت التي تحصل عن طريق الله.ويقول: إن قصد نمرود هو قوله: أتراك تزعم أن الله يقوم بذلك من دون أية واسطة؟ هذا غير صحيح. وإن كان ذلك يحصل عن طريق الاستفادة من عالم الاسباب. فإن ذلك بامكاننا أيضاً(١).

---

(١) تفسير الفخر الرازى، المجلد ٧، ص ٢٤.

التوضيحات

١ ــ لغز الحياة الكبير:كشف تطور العلم والمعرفة البشرية النقابَ عن الكثير من الحقائق، وأوضح العديد من قضايا هذا العالم الكبير، ولكن كما أشرنا فمازالت هنالك الكثير من الألغاز في مواجهة الأنسان، وأحد أهم هذه الألغاز هو لغز الحياة، القضية التي لم تكشف

عن وجهها لحد الآن رغم جهود ومساعي آلاف آلاف العلماء والعقول المفكرة على طول التاريخ البشري، وما زالت مستترة خلف ستار من الإبهام.واللطيف أن القرآن الكريم خاطب المشركين قبل أربعة عشر قرناً قائلا:(يــا ايُّهَــا النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوْا لَهُ إنَّ الَّذِيْنَ تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبــاباً وَلَو إجْتَمَعُوا لَهُ وإنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبــابُ شَيئاً لا يَسْتَنْقِذُوْهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ).المثير أن عجز البشر اليوم عن خلق الذبابة بمقدار عجزه قبل أربعة عشر قرناً. وعجزه أزاء هجوم الذباب والجراد وبقية الحشرات يصل إلى درجة عدم جدوى كل ما يُعبِّؤهُ من أجهزة التسميم والمكافحة الحديثة.يمكن القول: ان الأنسان صنع أجهزة قيّمة اكثر أهمية من خلق الذباب كالسفن الفضائية والعقول الألكترونية المعقدة وامثال ذلك.ولكن هذا خطأ كبير أن نقيس هذين مع بعضهما، إذ ليس للسفينة الفضائية أو العقل الالكتروني أي نمو أو رشد ويستحيل أن ينجب مثيله، ولا يمكن من داخل نفسه ترميم ما يطرأ

عليه من الأضرار، فهو لا يُصلح قطعاته التالفة أبداً، ويحتاج إلى الهداية والقيادة من خارجه. والحال أن للذبابة من هذه الجهات أفضلية واضحة على تلك السفينة الفضائية أو جهاز الكومبيوتر. ولكن كثرة الذباب أدى إلى تصوره من قبلنا كموجود حقير الأهمية، ولو كانت هنالك ذبابة واحدة فقط في العالم لأتضح آنذاك مدى ما سيوليه العلماء لها من الاهتمام.وفضلا عن هذا فإننا لا نحتاج أساساً إلى هذه المفاضلة، فالهدف هو إيضاح أن بناء الكائن الحي حتى لو كان خلية واحدة والتي أشرنا إليها إشارات واضحة في البحوث الماضية، على قدر من الغموض والتعقيد بحيث يدل على أن صانعه ذو علم وقدرة غير متناهيين وذو إطلاع تام بقوانين الحياة المعقدة، وبتعبير آصح أنه هو الذي وضع هذه القوانين.كيف يمكن أن تحتاج معرفة هكذا ظاهرة إلى كل هذا العقل والشعور ولا

.

٢ ــ هل بامكان الانسان صناعة كائن حي؟ل

ا شك أن الكائنات الحية وجدت في البداية من من الكائنات غير الحية، سواء حدث هذا الأمر على الكرة الأرضية أو على الكرات السماوية الأخرى، ولكن تحت أي ظروف؟ ووفقاً لأي معادلة حدثت هذه الطفرة العظيمة؟ ليس ذلك معلوماً لأحد حتى الآن.بالطبع يبدي بعض العلماء أملهم في أننا سنكتشف وبالتدريج هذه المعادلة وهذه الظروف، وربما إستطعنا في النهاية صناعة خلايا حية من تركيب المواد غير الحية.لا أحد يعلم إلى أي حد جاء هذا الأمل في محله؟ وهل سيكون مثل هذا الأمر عملياً في نهاية المطاف أم لا؟ على فرض أن الأنسان سيكتشف ظروف بداية الحياة ومعادلتها وسوف يستطيع صناعة خلايا حية في أجواء المختبر، ولكن يجب عدم نسيان أن:

أولا:

إن هذا العمل حين يأتي عن طريق تقليد عالم الخلقة وتركيب المواد المختلفة مع بعضها لن يكون سوى ما يشبه الصناعات التجميعية.

ثانياً:

على فرض أن مشكلة صناعة الخلية الحية سوف تُحل. ولكن تبقى هنالك مشكلة الكائنات المعقدة متعددة الخلايا، كبنية الذبابة أو الجرادة أو الطائر أو الأسماك الكبيرة وأخيراً الأنسان. فمن الذي يستطيع أن يوجد مثل ما ذكرنا عن طريق الصناعة؟يقول أحد العلماء وهو (البروفيسور هانز): سوف يصل الانسان بعد ألف سنة إلى سر الحياة، ولكن هذا لا يعني أنه سيستطيع صناعة ذبابة أو حشرة أخرى أو حتى خلية حية.

ثالثا:

لنفترض أننا ضمنّا مثل هذه الأهداف بمعونة الهبة الألهية المسماة بالعقل، وتطور العلوم، وتقليد قوانين الطبيعة. لكن هذا لن يكون له أدنى تأثير على ما نحن بصدد الوصول إليه، لأنه إن كان إيجاد خلية حية واحدة باستخدام كل هذه النماذج الموجودة والمواد الطبيعية الجاهزة يحتاج إلى كل هذا العلم والمعرفة، فما مقدار العلم والمعرفة اللازمة لخلق انواع متعددة من الموجودات الحية بلا نموذج أو مواد سابقة؟ هل يمكن إعتبار الطبيعة العمياء الصماء الفاقدة للشعور عاملا في ظهور هذه الموجودات؟وَألفت إنتباهكم إلى عبارة ظريفة عن «كرسي مورسن» رئيس اكاديمية العلوم بنيويورك في كتاب «سر خلق الانسان»، يقول:«قال هيغل: أعطوني الهواء والماء والمواد الكيمياوية والزمان وسوف أخلق بها إنساناً. لكن هيغل نسي أنه بحاجة إلى نطفة وجرثومة الحياة من أجل هذا المشروع ايضاً. إنه بعد أن يجمع الذرات اللامرئية ويرتبها إلى جانب بعضها ضمن نظام وترتيب خاص بخلقة الأنسان، عليه أن يمنح الروح لهذا القالب! وعلى فرض أنه وُفّق للقيام بكل هذه الاُمور الخارقة للعادة، هنالك إحتمال واحد فقط من بين ملايين الاحتمالات لظهور حيوان لم تشاهد عين الدهور شيئاً أغرب منه. والأعجب هو أن هيغل لن يقول بعد الموفقية في هذا الأمر أن هذا الموجود العجيب ظهر

بحسب التصادف والاتفاق، بل يقول: «إن ذكائي ونبوغي هو الذي خلقه»(١).تارة يتصور بعض السذج أن بالامكان تبرير ظهور الحياة عن طريق الحوادث التصادفية الكثيرة، والحال أننا إذا أردنا ووفق حساب الاحتمالات تبرير ظهور ذرة واحدة من البروتينات، ــوهي إحدى المواد المكونة للكائنات الحيةــ عن هذا الطريق، لما كفى عمر الكرة الأرضية لظهورها!ولَــ «جورج والد» أستاذ علم الأحياء في جامعة «هارفارد» كلام عن شروط ظهور الحياة وإستحالة الحياة التصادفية والذاتية، هذه خلاصتُهُ، يقول:«من أجل تشكيل البروتين يجب إلتحام مئات أو آلاف

الجزئيات «أحماض أمينية» بنِسب مختلفة وبأشكال متنوعة على شكل سلسلة، وإن عدد انواع البروتينات لا محدود حقاً، لأنه لايمكن العثور على نوعين من الحيوانات يكون لهما نوع واحد من البروتينات، إذن فجزيئات المواد العضوية تشكل مجموعة عظيمة لا حدود لتنوعها وتعقيدها يبعث على الحيرة، ومن أجل صنع موجود حي واحد لا نحتاج إلى مقدار كاف ونسب معينة من انواع البروتينات اللامتناهية فحسب، بل يجب ترتيبها ترتيباً صحيحاً أيضاً، أي ان بناءها له من الأهمية ما لتركيبها الكيمياوي من الأهمية».ثم يضيف: «إن بناء البروتينات معقد حقاً، وإن اعقد الأجهزة التي صنعها الانسان (كالعقل الألكتروني) هي بحكم الألعوبة مقابل أبسط الكائنات الحية! يكفي الانسان أن يفكر في هذه العظمة لتتضح له إستحالة الخلقة الذاتية أو التصادفية»(٢).نختم هذا الكلام بحديث قيّم عن الامام الصادق((عليه السلام))، وحديث رفيع عن امير المؤمنين علي((عليه السلام)). للأمام الصادق((عليه السلام)) كلام مفصل قاله للمفضّل في حديث التوحيد المعروف بـــ «المفضّل» حول خلقة الانسان وأعضائه المختلفة، يقول

---

(١) سر الخلق، ص ١٣٩ إلى ١٤١.(٢) معرفة الحياة «شناخت حيات» ص ١١.

المفضّل:سيدي: إن قوماً يقولون أنه من صنع الطبيعة! فيجيب الامام((عليه السلام)):«سلهم عن هذه الطبيعة أهي شيء له علم وقدرة على مثل هذه الأفعال؟ أم ليست كذلك؟ فإن أوجبوا لها العلم والقدرة، فما يمنعهم من إثبات الخالق؟ فان هذه صنعته، وإن زعموا انها تفعل هذه الأفعال بغير علم ولا عمر وكان في افعالها ما قد تراه من الصواب والحكمة، عُلِمَ أن هذا الفعل للخالق الحكيم، وأن الذي سمّوه طبيعة هو سُنة في خلقه الجارية على ما أجراها عليه»(١).ويقول أمير المؤمنين علي((عليه السلام)): «ولو إجتمع جميع حيوانها من طيرها وبهائمها وأجناسها ومتبلدة أممها، واكياسها على إحداث بعوضة، ما قدرت على إحداثها ولا عرفت كيف السبيل إلى إيجادها ولتحيّرت عقولها في علم ذلك»(٢).

---

(١) بحار الانوار، ج ٣ ص ١٦٧.(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٦.

٤ ــ آياته في خلق الروح

.

تمهيد:

الروح أيضاً من أعجب ظواهر عالم الوجود واكثرها غموضاً، ومع انها أقرب الأشياء إلينا إلاّ إننا بعيدون جداً عن معرفتها وتشخيصها.لم تتوقف جهود ومساعي العلماء والفلاسفة من أجل معرفة الروح في أي زمن من الأزمان، وإستطاعوا بفضل هذه الجهود أن يكشفوا بعض الأسرار، ولكن الوجه الغامض للروح لم يتغير لحد الآن، وما زالت هناك الكثير من الاسئلة حول هذا الموضوع بدون جواب.ومن هنا كان خلق روح الانسان من الآيات المهمة الدالة على علم وحكمة وتدبير الخالق.وعلى هذا الصعيد نستمع خاشعين إلى الآيات أدناه:١ ــ(وَنَفْس وَمــا سَوّاهــا فَأَلْهَمَهــا فُجُورَها وَتَقْواهــا)(١).٢ ــ(ويَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوْحِ قُل الرّوْحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمــا أُوْتِيْتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلاَّ قَلِيْلا)(٢).٣ ــ(وإذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكةِ إنّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصــال مِنْ حَمَأ مَسْنُوْن فَإذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُوْحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِيْنَ)(٣).٤ ــ(ثُمَّ خَلَقْنا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنــا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبــارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخــالِقِيْنَ)(٤).

---

(١) (الشمس الآية: ٧ و ٨)
(٢) (الاسراء الآية: ٨٥).
(٣) (الحجر الآية: ٢٨ و ٢٩).
(٤) (المؤمنون الآية: ١٤).

٥ ــ(اللهُ يَتَوفّى الأَنْفُسَ حِيْنَ مَوْتِهــا والّتي لَمْ تَمُتْ في مَنامِهــا فَيُمْسِكُ الّتي قَضى عَلَيْها الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرى إلى أَجَل مُسَمّى إنَّ في ذلك لآيات لِقَوْم يَتَفَكَّرُوْنَ)(١).

.

شرح المفردات:

ان مفردة (الروح) تعني في الأصل التنفس والنفخ، ويعتقد بعض أرباب اللغة أن «الروح» اشتقت في الأصل من «الريح» بمعنى الهواء والنسيم والرياح، وبما ان روح الانسان أي ذلك الجوهر المستقل المجرد ومصدر الحياة والتفكير هي جوهر لطيف تشبه من حيث تحركها ومنحها للحياة التنفس والنسيم، فقد استعملت هذه المفردة للتعبير عنها، بالاضافة إلى ان علاقة الروح بالجسم لها إرتباط وثيق بالتنفس، لهذا استعملت هذه الكلمة في خصوص روح الانسان.يعتقد البعض أن المعنى الأصلي لهذه المادة هو «ظهور وحركة شيء لطيف» سواء كان في عالم الجسم أو في عالم الروح والمعنى، ومن أجل هذا أطلقت هذه الكلمة ايضاً على ظهور مقام النبوة وقضية الوحي وتجلي نور الحق.(الرَوح) (على وزن قَوم) التي تعني السرور والفرح والراحة والنجاة من الغم والحزن، هي الأُخرى مأخوذة من هذا المعنى، كذلك يطلق على الالطاف والرحمة الألهية (روح الله).مفردة (الريحان) تستخدم في كلام العرب لــ «الورد» من أجل رائحتها الطيبة المنعشة ونسيمها المعطر.ومفردة (الرواح) بمعنى «طرف الغروب» حيث تعود الحيوانات الى حضائرها لتستريح.وعلى كل حال، فإن مواضع إستعمال هذه المفردة في القرآن الكريم متنوعة

---

(١) (الزمر الآية: ٤٢).

جداً. فتأتي حيناً بمعنى ملاك الوحي، وحيناً بمعنى الملاك الكبير من ملائكة الله الخُلّص (أو المخلوق الأفضل بين الملائكة)، وتأتي أحياناً لتدل على القوة الالهية المعنوية التي يسند الله المؤمنين بها، وجاءت تارة بمعنى الروح الانسانية، وهذا ما أشرنا إليه في الآيات أعلاه(١).(النَفْس) يقول الراغب في المفردات: النفس بمعنى الروح، وتأتي أحياناً بمعنى ذات الشيء، و (النَفَس) (على وزن قَنَص) بمعنى الهواء الذي يدخل ويخرج إلى ومن جسم الانسان عن طريق الفم.وقد أُطلقت مفردة (النفْس) هذه على الدم أيضاً، لأن الدم إذا خرج من جسم الانسان بمقادير كبيرة فارقته روحه. وربما أُطلقت هذه الكلمة على كل وجود الأنسان.على أي حال، فإن أحد المعاني المعروفة للنفس هو «الروح» التي ذكرت عدة مرات في القرآن الكريم.١ ــ (النفس الامارة) التي تأمر الأنسان بالسوء (إنَّ النَّفْسَ لأمّارَةٌ بِالسُّوء)(٢).٢ ــ (النفس اللوامة) التي ترتكب الذنوب بعض الأحيان ثم تندم وتلوم نفسها (ولا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوامَة)(٣).٣ ــ (النفس المطمئنة) وهي النفس الواصلة الى مرحلة الأطمئنان والراحة والطاعة التامة لأوامر الله والمشمولة بعناياته:(يــا ايَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ إرْجِعِي إلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّة)(٤).

(١) مفردات الراغب، لسان العرب، مجمع البحرين، والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.(٢) (سورة يوسف الآية: ٥٣).
(٣) (سورة القيامة الآية: ٢).
(٤) (سورة الفجر الآية: ٢٧).

جمع الآيات وتفسيرها:

الروح أُعجوبة عالم الخلقة:ورد في الآية الأولى من الآيات المعنية قَسَمٌ يختصّ بالروح الآدمية وخالقها.ذلك الله الذي خلق الخلق ونظم القوى الروحية للانسان إبتداءً من الحواس الظاهرية وهي مقدمة الادراكات الروحية وإنتهاءً بقوة التفكير، الحافظة، التخيل، الادراك، الابتكار، الارادة والتصميم (وَنَفْس وَمــا سَوّاهــا).وعلّمهُ طرق الهداية بعد تنظيم هذه القوى (فَأَلْهَمَهــا فُجُوْرَهــا وَتَقْواهــا).مع ان القوى الروحية للانسان متنوعة وكثيرة جداً، ولكن القرآن هنا وضع إصبعه من بين كل تلك القوى على مسألة «إلهام الفجور والتقوى» (إدراك الحسن والقبح)، لأن هذه المسألة لها تأثير كبير جداً في مصير الانسان وسعادته وشقائه.قلنا مراراً: ان القَسَمَ يدل على الأهمية والعظمة، أهمية المُقْسَمِ به والمُقَسَمُ له، خاصة القَسَمُ القرآني لحمل الناس على المزيد من التفكّر في آيات «العظمة» الالهية.فضلا عن أن (النفس) في هذه الآية ذكرت بصيغة النكرة، وهي في مثل هذه الموارد من أجل التأكيد على أهمية الموضوع أو كثرته(١).

تشير الآية الثانية الى السؤال الذى طرح من قبل جماعة من المشركين أو أهل الكتاب، حيث وفدوا على الرسول الاكرم((صلى الله عليه وآله وسلم)) وسألوه عدة أسئلة كان أحدها عن الروح كما قال القرآن: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوْحِ).ثم يأمر القرآن الرسول الاكرم((صلى الله عليه وآله وسلم)): (قُلِ الرُّوْحُ مِنْ أَمْرِ رَبّي).

(١) تفسير «روح البيان» المجلد ١٠ ــ ص ٤٤٢، وروح المعاني، المجلد٣٠ــ ص١٤٢. وقد إحتمل بعض المفسرين أن تكون «النفس» في الآية أعلاه اشارة الى الروح والجسم كليهما، مع ان عبارة (فألهمها فجورها وتقواها) تناسب الروح أكثر، وكذلك الآية (قد أفلح مَنْ زكاها...).

إن في هذا الجواب المغلق إشارة عميقة الى مدى غموض ومجهولية هذه الظاهرة الكبيرة في عالم الوجود، ومن أجل أن لا يَقول أحد لماذا لم تظهر واحدة من أسرار الروح؟ يضيف الله في آخر الآية (وَما أُوتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلاّ قَلِيْلا).وليس من العجيب أن لا تطلعوا على اسرار الروح بهذا «العلم القليل» و «المعرفة اليسيرة» (خصوصاً في ذلك الزمان وذلك المحيط).روي عن أبن عباس في بعض الروايات أن قريش أرسلت بعض رؤوسها إلى علماء اليهود في المدينة وقالت لهم: إسألوهم عن محمد لأنهم من أهل الكتاب ولهم من العلم ماليس لنا، فجاؤوا المدينة وسألوا علماء اليهود، فقال اليهود فى جوابهم: إسألوه عن ثلاثة أمور: قصة أصحاب الكهف، وَذي القرنين، وقضية الروح، فإن أجاب عن جميعها أو سكت عن جميعها فليس بنبي، أما إن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي.فعادت رؤوس قريش الى مكة وعرضت الأسئلة على الرسول((صلى الله عليه وآله وسلم))، فقدّم لهم الرسول شرحاً وافياً حول ذي القرنين وأصحاب الكهف، ولكنه فيما يخص السؤال عن الروح إكتفى بذلك الجواب المغلق بأمر من الله(١). ومع ان هناك تفاسير مختلفة لمعنى الروح في الآية أعلاه في روايات المعصومين((عليهم السلام)) وكلمات المفسرين، ولكن أغلب هذه التفاسير لا تتنافى مع بعضها ويمكن الجمع بينها، والروح الانسانية من جملة المفاهيم الداخلية في مدلول الآية المعنية(٢).

---

(١) روح المعاني، المجلد ١٥ ص ٢٤١ «قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسال هذا الرجل فقالوا: سلوه عن الروح فسألوه فنزلت: (يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا)».(٢) وردت في تفسير (الميزان) أقوال متعددة في هذا المجال، منها أن المراد بالروح هي الروح الواردة في الآية الشريفة (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) ومنها أن المراد بها جبرائيل وقال بعض المفسرين: انها تعني القرآن، وآخر التفاسير هو أن المراد بها الروح الانسانية، ثم يضيف: أن المتبادر من إطلاق الروح هو هذا.

في الآية الرابعة وبعد الاشارة الى خلق النطفة وتطورات الجنين والألبسة المختلفة التي يكسو بها الله هذه الذرة الصغيرة في مختلف المراحل، يُغيّر عز وجل لهجة الكلام ويقول: (ثُمَّ أَنْشَأناهُ خَلْقاً آخَر).إن التعبير بـــ «الانشاء» (الايجاد) في هذه المرحلة وخلافاً للمراحل السابقة التي عبّر عنها بالخلقة، إضافةً إلى إستخدام «ثم» التي تستعمل عادةً من أجل الفصل يدل جميعُهُ على أن الخلق في هذه المرحلة يختلف تماماً عن المراحل السالفة، وهذ علامة على أن المراد هو خلق الروح التي ترتبط بالجسم بعد تكامله.والمثير أنه يعبّر بـــ (خلقاً آخر) وهو تعبير غامض ومُغلق، خلافاً للتعبيرات السابقة التي يتحدث فيها عن (النطفة) و (العلقة) و (المضغة)

و (العظام) و (اللحم) وهي مفاهيم معروفة جميعاً. وهذا دليل آخر على إختلاف المرحلة الأخيرة عن المراحل الماضية.ومن العجب أن بعض المفسرين ذكروا تفاسير لـــ (الخلق الآخر) لا تنسجم

[١١٧]

أبداً مع روح الآية، من جملتها: أن المراد بانشاء الخلق الآخر هو ظهور الأسنان والشعر على الجسم(١)! فى حين أن هذا لا يتناسب أبداً مع تعابير الآية ولا شك أن ظهور الأسنان والشعر ليس له من الأهمية ما يوازي سائر تطورات الجنين المختلفة.في نهاية الآية وردت جملة عجيبة أخرى تشكل دلالة أخرى على الأهمية القصوى لخلق الانسان في المرحلة الأخيرة أو في مجموع هذه المراحل، يقول تعالى:(فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ) فسبحان العليم الحكيم الذي أودع القابلية والجدارة في مثل هكذا موجود حقير.(تبارك) من مادة «بَرْك» بمعنى صدر الناقة، وبما ان للناقة حين تضع صدرها على الأرض نوع من الثبات، فقد جاءت هذه المفردة بمعنى «الثبات والدوام» ولأن كل نعمة إذا كانت دائمة إزدادت أهميتها، فقد سمّيت هكذا نعم بالمباركة.إن إستخدام هذه المفردة في خصوص الله إشارة إلى عظمة وقدسية وخلود ذاته المطهرة.***في الآية الخامسة والأخيرة من الآيات المعنية يشير عز وجل إلى مسألة بقاء الروح، بتعبيره: (اللهُ يَتَوَفّى الأَنْفُسَ حِيْنَ مَوْتِهــا).وبلحاظ أن كلمة (توفّى) تعني القبض والاستلام الكامل، و (الأنفس) هي الأرواح، يتضح أن الروح ينفصل كلياً عن الجسم عند الموت وبأمر الله، ولكن عند النوم يحصل هذا الانفصال بشكل ناقص (وَالَّتي لَمْ تَمُتْ في مَنامِهــا).ثم أشار إلى عدم عودة بعض الأرواح في حالة النوم وعودة البعض الآخر حتى أجل مسمى، وأضاف:(إنَّ في ذلكَ لآيات لَقَوْم يَتَفَكَّرُوْنَ)(٢)

---

(١) روي هذا الاحتمال عن بعض المفسرين في تفسير روح المعاني، المجلد ١٨ ص ١٤ وتفسير القرطبي، المجلد ٧، ص ٤٥٠٢.(٢) يقول الفخر الرازي في تفسيرهِ وتعقيباً على هذه الآية: إن الله الحكيم جعل إرتباط الروح الآدمية بالجسم على ثلاثة أقسام: تارة يسطع شعاع الروح على جميع الأجزاء الظاهرية والباطنية للجسم، وهذه حالة اليقظة، وتارة يسحب هذا الشعاع من الأجزاء الظاهرية ويبقى في الباطنية وهذه حالة النوم، وتارة يرتفع شعاعها عن الأجزاء الظاهرية والباطنية وتلك حالة الموت.

[١١٨]

التوضيحات ١ ــ القوى الظاهرية والباطنية للروح:

عَدَّ القدماء خمسة قوىً ظاهرية وخمسة قوىً باطنية للروح الآدمية. أَما القوى الظاهرية فهي: حاسة النظر، السمع، الشم، الذوق، اللمس. وهي نوافذ روح الانسان نحو عالم المحسوسات والروابط بين ذلك الجوهر المجرد وعالم المادة.إِنَّ كل واحدة من هذه القوى عالم واسع مليٌ بالأسرار، وكل واحدة من أدوات هذه القوى، أي العين والأُذن واللسان والغدد الشَّمِّيَة والأعصاب الموزَّعة في كافة أنحاء الجلد، آية من آيات الله تتضمن في داخلها عالماً من العلم والحكمة.

[١١٩]

٢ ــ الروح.. الظاهرة الخفية في عالم الوجود:

مع ان القرآن الكريم يشرح الكثير من الجزئيات المتعلقة بالسماء والأرض والنباتات والحيوانات عند ذكره للآيات الألهية سواء كانت آيات آفاق أو آيات أنفس، لكنه حين يصل إلى قضية الروح لا يزيد على قوله: (قُل الرّوحَ مِنْ أمرِ ربّي وَمــا أوْتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلاّ قَلِيْلا).أو إنه يقول: (ونَفْس وَمــا سَوّاهــا) أو يعبّر عنها بإنشاء الخلق الآخر: (ثُمَّ

[١٢٠]

* * *

.

٣ ــ نشاطات الروح المختلفة:

إن لنا نشاطات روحية وفكرية عديدة، سواء في حقل الشعور أو في حقل اللاشعور، بحيث يمكن لكل واحد منها أن يكون موضوع بحث مستقل لكتب كثيرة (وغالباً ما كان).وقسم من هذه النشاطات على النحو التالي:

أ: «التفكير» من أجل الوصول الى المجهولات، أو بتعبير الفلاسفة حركة الفكر نحو المباديء، ثم حركته الأخرى من المباديء نحو المقصود والمراد.

ب: «الابتكار» من أجل حل مشاكل الحياة المفاجئة، ومواجهة الحوادث المختلفة، ورفع الاحتياجات المتنوعة والابداعات والاكتشافات والاختراعات.

ج: «الذاكرة» لحفظ انواع المعلومات التي تحصل للانسان عن طريق الحس أو التفكير وتبويبها وخزنها ثم إستذكارها عند الحاجة.

د: «التجربة وتحليل القضايا» للعثور على علل وجذور الحوادث عن طريق تمييز المفاهيم الذهنية عن بعضها، ثم تركيبها، ثم الوصول إلى علل ونتائج الحوادث.

هــ: «التخيل» أي ايجاد صورة ذهنية قد لا تكون في بعض الأحيان موجودة في الخارج كمقدمة لفهم القضايا الجديدة.

و: «الارادة والتصميم» لأجل القيام بالأعمال أو التوقف عنها أو تغييرها.

ز: «الادراكات الفطرية والعقلية» وهي الأساس في الاستدلالات النظرية

[١٢١]

وغير البديهية.

ح:العشق، الحب، العداوة وعشرات الظواهر الروحية الأخرى ذات التأثيرات الايجابية أو السلبية في أفعال الأنسان.وَبالطبع فهذه المسائل ليست منفصلة عن بعضها، بل هي متمركزة جميعها في داخل روح الانسان، إنها أمواج من هذا المحيط اللامتناهي، وانوار من هذه الشمس المنيرة، وهذا مايدل على ان الروح الآدمية أرفع آيات الله وأهم علاماته.وفي قول القرآن الكريم فى الآية ٢١ من سورة الذاريات: (وفي الأرض آياتٌ لِلمُوقِنينَ وَفي أَنفُسكُم أفَلا تُبصرون) إشارة إلى هذه الحقيقة.وبكلام مختصر فإنَّ نفس هذه الذاكرة الانسانية التي تعتبر أرشيفاً للمعلومات المختلفة على درجة من الغرابة والعجب بحيث لو أننا أردنا توظيف مئات الأشخاص لحفظ معلوماتنا لأستحال عليهم القيام بنشاط الذاكرة بهذه السرعة والدقة.وَلو سلبت منا الذاكرة لساعة واحدة لما أمكنتنا الحياة فلا نضلُّ الطريق الى منازلنا فحسب، بل سيصيبنا النسيان حتى في أن نضع اللقمة فى الفم عند تناول الطعام. سيكون كل شيء بالنسبة لنا مجهولا ووحشياً وغريباً ومُحيراً.فقد أحد الشباب جزءً من ذاكرته نتيجة حادث سير أصابه بضربة دماغية، وعندما حملوه الى بيته لم يعرفه! وقال: إن هذه هي المرة الأولى التي أضع فيها قدمي هنا! بل حتى أمه كان يتصورها إمرأة غريبة، وبدت اللوحة الفنية التي رسمها بيديه مجهولة تماماً في عينيه، وكان يقول: إنها اول مرة أراها.إننا نحمل في أرشيف ذاكراتنا آلاف الموجودات وآلاف آلاف البشر وآلاف آلاف المواد المختلفة وآلاف آلاف الخواطر واللقطات وآلاف آلاف المعلومات المختلفة الأُخرى، والعجيب أن إستحضار إحدى الخواطر لا يحتاج اكثر من واحد بالألف من الثانية من أجل أن يستطيع الانسان الانتباه الى خاطرة معينة بين معلوماته المبوبة التي مضت عليها لحظة أو سنة أو خمسون سنة.

[١٢٢]

خاصة وأن العلماء يشيرون إلى إحدى الأعمال المحيرة للذاكرة والتي يسمونها «معجزة الذاكرة» وهي بالترتيب الآتي:كثيراً ما ينسى الانسان إسم شخص أو موضوع ثم يجهد ويحاول أن يتذكره ويقلّب رفوف أرشيف ذاكرته واحداً بعد الآخر ولكن دون جدوى.حسناً، إن كان الانسان يعلم ذلك الاسم أو الموضوع، فلماذا يبحث عنه؟ وإن لم يكن يعلمه فكيف يبحث عن

شيء لا يعلمه؟ أفيمكن أن يبحث الانسان عن ضالة لا يعرف ما هي أو من هي؟!ومع هذا فيصدق على ذاكرة الانسان أن تبحث عند النسيان عن ضالة لا تعلم ما هي؟ وفجأة تصل إلى الرف الذي يحمل ضالتها فتعثر عليها(١).وَهنا توجد نقطة دقيقة يكمن فيها الحل المذهل للقضية، وهي: في مثل هذه المواضع لا يبحث الإنسان عن ذات ذلك الاسم أو الموضوع الذي لا يعرف ما هو بل من أجل العثور عليه تراه يبحث عن مجموعة الحوادث التي يعلم بشكل إجمالي أنه إختزنها فى ذهنه بمعية الاسم المنظور (لأن الحوادث المختلفة تُخْتَزَنُ على شكل مجموعات مجموعات)، فمثلا هو يعلم أنه تعرف لأول مرة على الشخص المعني الذي نسي أسمه في اليوم الفلاني والمحل الفلاني، لذلك يطلب من أرشيف الذاكرة وبشكل فوري إضبارة ذلك اليوم وذلك المحل ويتصفحها بسرعة البرق ليعثر في طياتها على اسم ذلك الشخص.ونختم هذا الكلام بحديث عن الإمام الصادق((عليه السلام)) وَرَدَ في توحيد المفضل، يقول: «تأمل يا مفضّل هذه القوى التي في النفس وموقعها من الإنسان، أعني الفكر والوهم والعقل والحفظ وغير ذلك، أفرأيت لو نقص الإنسان من هذه الخلال الحفظَ وحده كيف كانت تكون حاله؟ وكم من خلل كان يدخل عليه في اموره ومعاشه وتجارته إذا لم يحفظ ماله وما عليه وما أخذه وما أعطى، وما رأى وما سمع، وما قال وما قيل له ولم يذكر من أحسن إليه ممن أساء به، وما نفعه مما ضره، ثم كان لا

---

(١) الأقتباس من كتاب «حافظة» من سلسة «چه می دانم».

يهتدي لطريق لو سلكه مالا يُحصى، ولا يحفظ علماً ولو درسه عمره، ولا يعتقد ديناً، ولا ينتفع بتجربة ولا يستطيع أن يعتبر شيئاً على ما مضى، بل كان حقيقياً أن ينسلخ من الانسانية أصلا.»ثم يضيف الإمام: «وأعظم من النعمة على الانسان في الحفظ النعمة في النسيان، فإنه لولا النسيان لما سلا أحد عن مصيبة ولا انقضت له حسرة، ولا مات له حقد، ولا إستمتع بشيء من متاع الدنيا مع تذكر الآفات..»(١).* * *

٤ ــ مقارنة عقل الإنسان بالعقول الألكترونية:

في بعض الأحيان يقارن الجهلاء بناء روح وفكر الإنسان وعقله ببناء العقول الألكترونية، والحال أن الفرق بينهما اكبر من الفرق بين الطائرة اللعبة التي يلعب بها الأطفال وطائرة عملاقة حقيقية! والسبب هو:إن نشاط العقول الالكترونية محدود بحدود حافظتها فقط، وحافظتها هي تلك التي يغذيها الإنسان بها، ولذلك ليس لها وراء حدود هذه الحافظة المحدودة أي نشاط

على الإطلاق.وفضلا عن أن العقول الألكترونية تفتقر لأي نوع من انواع الإبتكار والتفكير أزاء إحدى الحوادث الجديدة مهما كانت بسيطة، كردّ الفعل مقابل هبوب الرياح الشديدة ناهيك عن الابتكار والابداع في القضايا المهمة والمعقدة.ثم حتى لو إفترضنا صحة المقارنة بينهما فَأي عقل يصدق أن صناعة العقل الالكتروني الذي يُعد هو أُعجوبة الصناعات البشرية، قد تمت على يد إنسان أمي أو أعمى أو أصم أو مجنون؟أفيمكن للطبيعة الخالية من الروح والفاقدة للعقل والتفكير والإبتكار أن توجد الروح والعقل والابتكار؟ ومن هنا نقول: ان في داخل روح الإنسان الآلاف من آيات

---

(١) بحار الانوار، المجلد ٣، ص ٨٠ و ٨١ (بشيء من التلخيص).

* * *

٥ ــ أصالة وإستقلال الروح:

مع أنه لا يوجد بالنسبة لنا فرق في البحوث المتعلقة بآيات الله بين أن تكون روح وفكر الانسان جوهراً مستقلا ومجرداً عن المادة، أو مرتبطاً بها ومن آثارها (وهذه هي المعركة المعروفة بين الفلاسفة الإلهيين والماديين). ولكن لا شك أنه متى ما ثبتت أصالة واستقلال الروح أكتسبت هذه الآية الألهية مزيداً من التأثير والجاذبية.يصر الماديون على أن الروح والفكر من الخواص «الفيزيو كيمياوية» للخلايا الدماغية والتي تزول تماماً بفناء الجسم، والحال أن للروح والفكر الآدمي ظواهر لا يمكن تبريرها أبداً بالتفاسير المادية.فمثلا يجد كل شخص حقيقة في داخله تسمى «الأنا»، وهي واحد ليست اكثر منذ بداية العمر حتى نهايته، «أنا» لم اكن منذ الطفولة وحتى الآن اكثر من شخص واحد، أنا ذلك الشخص، وسأبقى ذلك الشخص إلى آخر العمر، بالطبع درست وتعلمت القراءة والكتابة ولهذا فقد تكاملت، لكنني لم أتحول إلى إنسان آخر، بل ما أزال ذلك الشخص السابق.في حين إذا أخذنا الأجزاء المادية للجسم نرى أن جميع تلك الذرات في حال تغيّر وتبدل، وان جميع خلايا الجسم تتغيّر كل سبعة أعوام مرة واحدة تقريباً. أي ان الشخص البالغ من العمر سبعين سنة تبدلت اجزاء جسمه المادية عشرة مرات. رغم أن «الأنا» (شخصيته الانسانية) ثابتة عنده. وهذا يدل على أن حقيقة «الأنا» حقيقة ما وراء المادة ولا تتغير بتغيرات المادة.فضلا عن انَّ في أذهاننا حقائق

تكون اكبر من أدمغتنا وخلايانا الدماغية آلاف آلاف المرات تصور السماوات والمجرات، الشمس والقمر وغيرها، فَمن

[١٢٥]

المستحيل أن تكمن هذه الصور الكبيرة في الجزء المادي من وجودنا، ولا سبيل إلاّ أن تنعكس في الجزء غير المادي أي الروح، لأن الجزء المادي أي الدماغ ليس إلاّ موجود صغير.وعلاوة على هذا فإن الظواهر المادية تقبل التجزئة والقسمة جميعاً في حين توجد بين مفاهيمنا الذهنية مفاهيم لا تقبل التجزئة إطلاقاً.إن خصوصية «تصوير الواقع» والاطلاع على العلم الخارجي بالنسبة لنا، وَالموجودة في علومنا ومعارفنا، هي حقيقة لا يمكن تبريرها عن طريق الخواص «الفيزيو كيمياوية» للدماغ.وَهذه البراهين الأربعة وبراهين واضحة أخرى تدل بجلاء على أن الروح جوهر مستقل ومجرد من المادة.(١)* * *

.

٦ ــ خصوصيات الروح في القرآن الكريم:

يمكن إستخلاص الخصوصيات والمشخصات التالية للروح الأِنسانية من آيات القرآن الكريم:

أ: تتمتع الروح الآدمية بالاستقلال وتبقى بعد إنفصالها عن الجسد، والآية (اللهُ يَتَوَفّى الأنْفُس...)(٢)تشهد بهذه الحقيقة.

ب: من الممكن أن الروح الآدمية وبعد انفصالها عن الجسم تتنعم في عالم البرزخ بانواع النعم الالهية أو أنها تتعذب بمختلف صنوف العذاب الشديد. وفي آية (حَياةُ الشُّهَداء)(٣) وآية (عذاب آل فرعون)(٤)دليل على هذا المعنى.

---

(١) من أجل مزيد من الشروح يراجع المجلد ١٢ من «التفسير الأمثل» ص٢٦١ حتى٢٦٩ تعقيباً على الآية ٨٥ من سورة الاسراء.(٢) (الزمر الآية: ٢٤) .
(٣) (آل عمران الآية: ١٦٩) .
(٤) (غافر الآية: ٤٦) .

[١٢٦]

لهذا نقرأ في حديث عن الرسول الاكرم((صلى الله عليه وآله وسلم)): «يا ايها الناس! هما نجدان: نجد الخير ونجد الشر، فما جُعِلَ نجد الشر أحبَّ اليكم من نجد الخير».(١)يحصر بعض قصار النظر مفهوم الآية الواسع في داخل موضوع محدود، ويقولون: ان المقصود من هذين المكانين المرتفعين هما ثديا الأُم! وقد ورد في الحديث أن الإمام علي((عليه السلام)) سُئِل بأن جماعة من الناس يقولون إنّا هديناه النجدين اشارة الى الثدي، فقال: «لا، هما الخير والشر».إن الهداية الالهية في هذا المجال تحصل طبعاً عن طرق مختلفة، عن طريق الوجدان الأخلاقي، الفطرة، الدلائل العقلية، وتعاليم الرسل (أي انها تشمل انواع الهداية التكوينية والتشريعية)، لكن سياق الآيات يناسب الهداية التكوينية أكثر.

* * *

وفي الآية الثالثة بعد أن يُقسم بروحِ الانسان، وخالق الروح، يشيرُ الى مسألة الهامِ الفجورِ والتقوى ويقول: إنَّ الله تبارك وتعالى أَلْهَمَ نَفْسَ الانسانِ الفجور والتقوى (فَأَلْهَمَها فُجُوْرَها وتَقْواهـــا). و (الالهام) مِنْ مادة (لَهْمْ) على وزن (فَهْمْ) أي (اَبتلاع) أو (شرب) الشيء(٢).ثم جاءت بمعنى القاء الأمر في قلب الانسان من قبل الباري تعالى، فكأنما يلتهمُ القلبُ ذلك الأمرَ بتمامه، وللالهام معنىً آخر ايضاً وهو «الوحي»، حيث استُخدِمَ ايضاً بهذا المعنى احياناً.وتعني (الفجور) خرقَ حجابِ التقوى، وارتكاب الذنوب، وهي من مادة «فَجْر» التي تعني الانشقاق الواسع، أو انكشاف ظلمة الليل بواسطة بياض الصبح.و (التقوى) من مادة «الوقاية»، وتعني (الصيانة)، و المقصود هنا الاسباب

---

(١) نور الثقلين، المجلد ٥ ص ٥٨١، ومجمع البيان وتفسير القرطبي، وقد روي نفس هذا المعنى عن الامام الصادق تعقيباً على الآيات المنظورة.(٢) لسان العرب مادة «لَهمْ» بناءً على ذلك فحينما تستعمل هذه المادة في باب الافعال تفيد «الابتلاع والشرب» وقال بعض انها تستخدم في امور الخير فقط. وان المراد من الهام الفجور في الآية هو صده عن الخير ايضاً.

التي تمنع الانسان من التلوث بالذنوب والقبائح.من هنا يُفهمُ بوضوح من هذه الآيةِ ان الله تبارك وتعالى قد أوْدَعَ مسألةَ أدراكِ الحُسْنِ والقُبحِ العقلي وفَهْمِ الحَسَنِ والرديء بشكل فطريٍّ داخل روح الانسان كي يهديه الى الطريق نحو السعادة والتكامل.وورد في حديث للامام الصادق((عليه السلام)) في تفسير هذه الآية انّه قال: «بيَّنَ لها ما تأتي وما تترك»(١) فالمقصود هو أنَّ الله بيَّنَ للانسان ما يجب فِعْلُهُ وما يجب تَركُه او بتعبير آخر علَّمَهُ (الواجبات،

والمحرمات).وحول السبب في تقدُّم (الفجور) على (التقوى)؟ يقول بعض المفسِّرين: لأنَّ «التَّطهرَ من الذنوب» يُمثلُ الارضيةَ لــ «التحلي بالتقوى»، باعتبار ان (التخلية) يكون قبل (التحلية)، و (التطهير) قبل «اعادة البناء»(٢) دائماً.* * *

وفي الآية الرابعةِ طُرحت مسألةُ فطرية الدين، وهو (الدين الحنيف) أي الخالي من كل اشكال الهوى والاتجاه نحو الباطل والانحراف، والطاهر من كافة اشكال الشرك والتلوث: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّيْنِ حَنِيْفَاً فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النّاسَ

---

(١) نور الثقلين الجزء ٥ ص ٥٨٦ ج ٧.(٢) روح المعاني ج ٣٠ ص ١٤٣.

* * *

ويتحدَّث في الآية الخامسةِ عن التعليم الالهي بواسطة القلم ثم يتحدث بشكل عام عن تعليم الانسان للمسائل التي يَجهلُها اِذ يقول تعالى: (الّذي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الاِنْسانَ مــالَمْ يَعْلَمْ).قد يكون التعليم الالهي بواسطة القلم اشارة الى القراءة و الكتابة التي حدثت لاول مرة على أيدي الانبياء((عليهم السلام))،(١) أو لأنَّ اللهَ تباركَ وتعالى قد أوْجَدَ هذا الذوق والقابلية لدى الانسان هدايةً فطرية حيثُ اْبتُدِعَ بعد اتضاحِ القراءةِ والكتابةِ، فبدأت مرحلة ما بعد التاريخ مع إيجاد الخط (حيث نعلمُ ان الفاصل الزمني بين مرحلتي ما

---

(١) نقل عدةٌ من المفسرين ان آدم ((عليه السلام)) كان اول من كتب بواسطة القلم (تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٧٢١٠ وتفسير روح البيان ج ١٠ ص٤٧٣).

قبل التاريخ وما بعد التاريخ هي مسألة اكتشاف الخط).

* * *

وفي الآية السادسة بَعْدَ أن يَنسِبَ تعليمَ القرآن الى الله الذي هو مصدرُ جميع الرحمات والكرامات، يتحدثُ عن خلق الانسان ويقول: (خَلَقَ الاِنْسانَ، عَلَّمَهُ الْبَيانَ).و لــ (الْبَيان) مفهومٌ عامٌ حيثُ يُطلقُ على كلِّ شيء موضِّح كانواع الاستدلالات العقلية، والمنطقية التي تُبينُ المسائلَ المعقدَّة، أو الخط والكتابة، أو الكلام الذي يعد من ابرز مصاديقه.وقد اعطى المفسرون احتمالات كثيرة في تفسير (البيان)، فقد اعتبرها فريق منهم بمعنى بيانُ الخير والشَّر، وفريق

آخر بمعنى بيانُ الحلال والحرام، وثالث بمعنى اعتبرها الاسم الاعظم، ورابع بمعنى تعليم اللغة(١).لكن من الواضحَ ان ظاهر (البيان) هو التكلُّم، وتبدو بقية الاحتمالات ضعيفة(٢).وهنا كيف علَّمَ الله تعالى الانسان التكلُّمَ؟ قال بعض المفسرين: انَّ الله هو الذي «وَضَعَ اللغات» ثم علَّمالانبياء((عليهم السلام)) عن طريق الوحي، لكن يبدو انه ليس هناكَ دليلٌ واضحٌ لهذا الرأي، انما المقصود هو الالهام الباطني من قبل الله تعالى

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٦٣٢٢ ــ روح المعاني ج ٢٧ ص ٨٦.(٢) اذا فُسِّرت (البيان) في بعض الروايات على انها الاسم الاعظم فهو من باب ذكر المصداق الواضح.

للانسان، حيث استطاع من خلال ايجاد الصوت عن طريق الحنجرة، ثم ايجاد الحروف عن طريق حركة اللسان والاعتماد على مخارج الحروف، ثم تركيبها مع بعضها وايجاد الكلمات، ثم تسمية الاشياء والمفاهيم المختلفة، بحيث يعكسَ مقاصدهُ الباطنية والمفاهيم المادية والمعنوية، الجزئية والكلية، المستقلة وغير المستقلة كافة عن هذا الطريق السهل الذي هو في متناول أيدي الجميع. والحقيقة انه لو لم تكن هذه الهِبَةُ الالهيةُ الخلاّقة ولم يعرف الانسانُ التكلُّمَ لَما وُجِدَتِ الحضارة، ولَما ارتقى العلمُ الى هذا الحد، ولَما تمكَّنَ الانسانُ من بناء قواعد حياتهِ على اساسِ التعاون الجماعي، لأنَّ التعاونَ فرعٌ من علاقة التقارب مع الآخرين.وورد في تفسير الميزان ان من اقوى الادلة على انَّ اهتداء الانسان الى «البيان» قد تم بالهام الهيٍّ، هو اختلافُ اللغات باختلاف الامم والطوائف في الخصائص الروحية والاخلاقية والنفسانية وبحسب اختلاف المناطق الطبيعية التي فيها.(١)وقد قدَّرَ بعض المحققين عدد اللغات الموجودة في العالم بـــ «ثلاثة آلاف لغة»، وقال بعضهم ان العدد يفوق ذلك(٢).وهذا الاختلاف عجيبٌ حقاً، وهو من براهين قدرةِ وعظمةِ الله تبارك وتعالى.فأَصلُ التكلم مِن آيات الله العظيمة، وهذا التنوع في اللغات آيةٌ عظيمةٌ اخرى، وكلاهما يعتبر من خصائص خلقةِ البشر.من الممكن ان تنطقَ بعضُ الطيور عن طريق التعليم المتكرر عبارات جذابة، ولكن ــمما لا شك فيهــ انَّ عَمَلَها ليس الاّ تقليد لالفاظ محدودة صادرة عن الانسان من غير ادراك لمفاهيم هذه الالفاظ، فالانسانُ وحدهُ الذي يستطيع ــبنحو غير محدود وبادراك تامــ أن يكوِّنَ جُمَلا ويصب فيها مفاهيم مختلفةً ويعّبر عنها.وفي (توحيد المفضل)، يلفتُ الامام الصادق((عليه السلام))النظر الى هذه الآية

(١) تفسير الميزان ج ١٩ ص ١٠٧.(٢) دائرة المعارف (فريد وجدي) ج ٨ ص ٣٦٤.

العظيمة، حيث يقول((عليه السلام)) للمفضل: «...اَطِلَ الفكر يا مفضل في الصوت والكلام وتهيئة آلاته في الانسان، فالحنجرة كألانبوبة لخروج الصوت، واللسان والشفتان والاسنان لصياغة الحروف والنغم، الم تر إن من سقطت اسنانه لم يقم السين، ومن سقطت شفته لم يصحح الفاء، ومن ثقل لسانه لم يفصح الراء، واشبه شيء بذلك المزمار الأحمر....»(١).* * *

وفي الآية السابعة والاخيرة من بحثنا، يخاطبُ تعالى الرسولَ((صلى الله عليه وآله وسلم)) ويأمُرُهُ: (فَذَكِّرْ إِنَّمـــا أَنْتَ مُذَكِّر)، فقد يكون المقصود من «التذكير» اشارة ان حقائق هذه العلوم وعصارتها موجودة في روح الانسان طبقاً للهداية الالهية، ثمَّ تتفتحُ في ظل تعاليم الانبياء والرُسل((عليهم السلام))، حيث تخرج من مرحلة «الخفاء» الى مرحلة «الظهور»، ومن «الاجمال» الى «التفصيل» ومن «الباطن» الى «الظاهر».وقد وردت هذه الآية اربعُ مرات في القرآن الكريم في سورة القمر عند بيانِ وقائعِ قومِ «فرعون» و «عاد» و «ثمود» و «لوط» حيث يقول تعالى: (وَلَقَدْ يَسَّرْنا الْقُرآنَ لِلذكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِر)(٢).وهذا الكلامُ معروفٌ ايضاً عن بعض الفلاسفة اليونانيين، حيث يقولون: «ليست العلومُ والمعارف إلا التذكير، ولقد أُودِعت جميعُ القواعد العلمية روح الانسان دون استثناء، وقد نَسِيَها الانسانُ اَلا أنها تعود الى الذاكرة بمساعدة المعلمين».يقول الفخر الرازي في تفسيره: «لو قال قائلٌ: هذا يقتضي وجودَ أمر سابق فنسيَ. ونقول: ما في الفطرة من الانقياد للحقِّ هو كالمنسي فهل من مدَّكر يرجع الى

---

(١) بحار الانوار ج ٣ ص ٧١.(٢) سورة القمر الآيات ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠.

ما فُطِرَ عليه»(١).* * *

توضيحات:

الهداية (الفطرية) و (الغريزية) في العلم المعاصر:مع تطور علم النفس، وعلم التحليل النفسي، وبحوث العلماء فيما يتعلق بالحواس العجيبة للحيوانات، اُكتُشِفت الكثير من اسرار الهداية الفطرية والغريزية المدهشة في عالم الاحياء، ونواجه ظواهر تعجز العلوم عن تفسيرها، ولا يمكن ابداً الوقوف على مصدر هذه الهدايات، إلا أن نُسَلِّمَ بانَّ مبدىء عالم الوجود الذي تَكفَّل بهداية جميع الكائنات هو الذي وَهَبَ هذه العلوم عن طريق الالهام الباطني الخفي للانسان أو الحيوانات.ولدينا في هذا المجال قدر وافر من الشواهد بحيث لو جُمعت لشكَّلت كتاباً كبيراً، منها

الحالات الدقيقة الآتية:١ ــ فالانسان حين ولادته يعرفُ جيداً ومن دون الحاجةِ الى معلِّم كيفية الامساك بالثدي والرضاعة، واستخدام اليد والاصابع لهذا العمل، وعكس وايصال حاجاته الى الأُم عن طريق البكاء.ويصطحبُ معه الى الدنيا من أمه وضع اللغات، وابداع الكلمات، والتكلُّمَ، والمسائل المماثلة الاخرى على شكل ستعداد خفي، وكذلك ادراك الحُسْنِ والقُبحِ، وجزء كبير من «الواجبات» و «الممنوعات»، كما ويمتلك في نفسه معرفةً بالله تعالى.يقول أحد العلماء: حينما تحتضنُ الامهاتُ اطفالهنَّ لتهدئتهم فهنَّ يضعنهم

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٢٩ ص ٤٢.

على الجانب الايسر من الصدر بلا علم منهنَّ بهذا الفعل، حيثُ يضعْنَ اطفالهن بجوار قلوبهن، فيهدأ الطفل بمجرد سماعه ضرباتَ قلب الأُم لأنَّ هذا الصوتَ معروفٌ لديه لاعتياده عليه منذ المراحل الجنينية، وقلما توجد ام ملتفتة الى هذه المسألة، ولذا فانها تؤدي عملَها هذا في هذا المجال بالهام فطريٍّ محض.٢ ــ انَّ مسألةَ الهداية الفطرية والغريزية في عالم الحيوان أوسعُ بكثير عما هي عليه في الانسان، حيث يعرض علماء العصر نماذجَ مدهشةً منها، فقد جاء في كتاب (البحر دار العجائب) تأليف (فرد دياندلين) مايأتي:«ان تصرفات بعض الاسماك تُعدّ من اسرار الطبيعة حيث يعجز كلُّ انسان عن بيان سببها، فاسماك الــ (قزل آلا) تترك مياه البحر لتعود الى مياه الانهار العذبة التي بدأت حياتها فيها، وتسبح بجد في الاتجاه المعاكس لتيار الماء، وتقفز من فوق الصخور، بل وتحلق فوق الشلالات ايضاً، وقد تملأ النهر لكثرتها احياناً، وعندما تصل هذه الاسماك الى المكان الذي تبحثُ عنه تضع بيوضها ثم تموت!فكيف تعثر هذه الاسماك على الانهار المناسبة ياترى؟ انها اكثرُ اثارة للعجب من اختراع المذياع والتلفاز، لانها لا تمتلك خارطةً، كما ان رؤيتها تحت الماء ضعيفة، وليس هناك من يُدِلُّها على الطريق ايضاً(١).٣ ــ وجاء في نفس ذلك الكتاب: «إنَّ تصرفَ (الجريّ) اكثرُ عَجَباً من هذا، فحينما يبلغ سمك الجريّ «الانجليزي» ثماني سنوات يهجُر الحوض أو النهر الذي يعيش فيه ويزحف ليلا كالافعى على الاعشاب الرطبة حتى يصل الى شاطىء البحر، ثم يطوي المحيط الاطلسي سباحةً ويتجه نحو المياه القريبة من (مثلث برمودا) حيث تضع الاناث بيوضها تحت الماء هناك وتموت... والمدهش ان صغار سمك الجريّ تعوم الى سطح الماء ثم تبدأ سَفَراً طويلا نحو الوطن الأُم، حيث تستغرق هذه الرحلةُ سنتين او ثلاث سنوات!فكيف يعرف الجريّ هدفه هذا مع انه لم يسلك هذا الطريق ابداً؟!

(١) البحر دار العجائب ص ١١٦.

ان الجواب عن هذا السؤال يستوي فيه جميع الناس حتى أعلم العلماء وهو (لا أعلم)(١).٤ ــ يقول (فيتوس درفيشر) مؤلفُ كتاب (الحواس الخفيّة للحيوانات): «لقد اكتشفَ العلماءُ اسراراً مذهلة عن الخفاش، منها وجود اربعةِ انواع من الخفافيش التي تصطاد الاسماك، فهي تحلق ليلا فوق الماء وتمد أرجُلَها فيه فجأةً لتصطاد سمكةً وتأكلها، إنّه سرٌ مدهشٌ فمن اينَ لها العلمُ بانَّ في تلك النقطة سمكةٌ تسبح تحت الماء؟ لم يفلحُ الانسانُ بالقيام بهذا العمل حتى الآن بالرغم من وسائله واختراعاته العلمية، فلا تستطيع أيُ طائرة قاذفة أن تحدِّدَ مكاناً معيناً لغواصة تحتَ الماء، وان استطاعت فعليها ان تطلق موجات خاصة على الماء كي تحدد مكان الغواصة من خلال الذبذبات التي تنبعث من الغواصّة الى الطائرة بواسطة الامواج اللاسلكية.أجَلَ، فالطائرة على عكس الخفافيش لم تستطع الاطّلاع مباشرةً على مكان وجود الهدف الذي تحت الماء،.. يقول البروفسور (غيري فون) «ليس هناك توضيحٌ يمكنُ قبوله لهذا الموضوع ابداً».ثم يضيف قائلا: (ولم يكتشف الانسان شيئاً حتى الآن الاّ ويجد الطبيعة قد سبقته اليه).ومن الطبيعي ان يبعث هذا الاكتشاف عند الانسان الغرور، لكنه لا يلبث ان يجد نفسه متأخراً عن الطبيعة في هذا المضمار.لهذا فقد استحدثَ العلماء الاميركيون علماً جديداً باسم «البولوجيا» ــعلم البيئةــ، وهدفه تعلم الفنون والاساليب الجديدة من الدروس التي تمنحها لنا الطبيعة من خلال الوصول الى اسرارها.ثم يضيف قائلا: «لو وضعنا أحد هذه اللبائن (الخفافيش) في صندوق مُقفَل مُظلم وابتعدنا به ثلاثمائة كيلو متر عن عُشِّهِ ثم اطلقناه، نجده يعود مباشرةً وباقصرِ

(١) المصدر السابق.

وقت اليه بالرغم من كونه شبه اعمى، وكون ذلك المكان مجهولا بالنسبة اليه»(١).٥ ــ ويوضح الكاتب المعروف (كرسي موريسن) في كتابه (سرُّ خلق الانسان) وفي احد فصوله تحت عنوان (الشعور الحيواني)، صوراً لنماذج من هذا القبيل منها:ان الطيور تبني وتوجد اعشاشها بشكل غريزي (على الرغم من انها لم تَرَ نموذجاً من قبل)، فطيرُ السنونو الذي يبني عُشَّهُ في رواق البيوت يهاجر في فصل الشتاء الى المناطق الدافئة، واما اَذا لاحت طلائع الربيع فهو يعود الى وكره.والكثير من الطيور تهاجر نحو الجنوب والمناطق الحارة، واغلبها يقطع مئات الفراسخ براً وبحراً إلاّ انها لا تضلّ الطريق الى اوكارها ابداً.والاسماك الحرّة تعيش سنوات عديدة في البحر، ثم تعود الى النهر الذي جاءت منه، والاكثر عجباً انها تقفزُ من شاطىء النهر المرتفع وتذهب الى النهر الذي وُلدت فيه... فالاسماك الحرّةُ تَتَبعُ شعورها الباطني، وتذهب الى الساحل الذي كان محلا لنشوئها ونموها، فايُّ شعور يؤدي الى ان يعود هذا الحيوان الى وطنه بهذا النحو الدقيق؟ «لا عِلم لأحد».فلو أخرجنا فَرخَ طير من عشِّه وقمنا بتربيته في بيئة اخرى، فهو يبدأ ببناء عش له عند بلوغه مرحلة الرشد والتكامل وبالاسلوب الذي يتبعهُ أبواه، فهل انَّ الاعمال المحدّدة والمختلفة التي تصدر عن جميع مخلوقات الارض تحدث صدفةً، أم اَنَّ العقل وَ الشعورَ العام يؤدي الى صدورها؟(٢).٦ ــ ويقول أحد العلماء الفرنسيين ويدعى «فارد» بصدد طائر يسمى (اكسيكلوب) ما يأتي:«لقد تفحصتُ صفات هذا الطائر، فوجدت من خصائصه اَنه يموت عند ما يُكملُ وَضْعَ بيوضه، أي اَنّه لا يرى فراخه أبداً، ولذلك فانَّ الفراخَ سوف لن ترى

---

(١) الحواس الخفية للحيوانات، ص ١٧.(٢) سرُّ خلق الانسان، الفصل ٨، الشعور الحيواني.

وجهَ الأم المليء بالحنان الى الأبد، وعندما تخرج من البيضة تكون عديمة الريش والاجنحة ولا قدرةَ لها للدفاع عن نفسها تجاه ما يهدد حياتها، لذلك فعليها البقاء لمدة سنة كاملة على هذه الحال وفي مكان آمن، وأن يكون غذاؤها الى جانبها، لهذا فحينما تشعر الأُم بحلول موسم وضع البيوض تبحث عن مقطع خشبي وتقوم بثقبه، ثم تشتغل بجمع الاطعمة، فتجمعُ الاوراق والاغصان التي يمكن استخدامها لتغذية فراخها لمدة سنة كاملة وتُعدُّهُ لواحد من هذه الفراخ، ثم تضعه في نهاية الثقب وتضع عليه بيضةً واحدة وتبني فوقه سقفاً قوياً نسبياً من عجينةِ الخشب، وتبقى تشتغل بجمع الاطعمة، وبعد تأمين حاجاتِ سنة كاملة لفرخ آخر ووضعها على سقف الطبقةِ الاولى تضع بيضةً اخرى ثم تبني طبقة ثانيةً، وهكذا تقوم ببناء عدةِ طبقات ثم

تموت بعد الفراغ من العمل! (تأمّلوا جيداً.. من اين جاءت معرفةُ هذا الطائر الضعيف بأنَّ لفراخه مثل هذه الحاجات؟ ومِمَّ استلهم هذه التعاليم؟ فهل تعلَّمها من أُمه؟ في الوقت الذي لم يَرَها أبداً، ام من خلال التجربة، علماً ان هذا العمل لا يقع إلا مرّةً واحدةً في حياته... ألا يجب الاعتراف بأنَّ هذا الفعل يستندُ الى الهام غيبي وغريزي حيث وضعته يد القدرة الالهية في كيانه؟!).٧ ــ يقول العالم النفساني الروسي المعروف (بلاتونوف) في كتابه (علم النفس في الاتحاد السوفيتي):«التقيتُ اثناء الحرب العالمية العظمى صدفةً بطبيب لم يَرَ النومَ لبضع ليال، ثم تمكَّنَ من النوم قليلا، واثناء ذلك جيء بعدد كبير من الجرحى الذين يجب علاجهم فوراً، اَلاّ أنَّ الطبيب المذكور لم يستيقظ، فحرّكناه وسكَبنا الماء على وجهه، فكان يحرِّكُ رأسه ويعود الى النوم، فاشرتُ الى الموجودين بالسكوت «كي اوقظُهُ»، ثم قلتُ له بهدوء وبشكل واضح: ايها الطبيب جاؤوا بالجرحى وهم بحاجة ماسة اليك، هنا استيقظ فوراً. ثم يضيف: كيف يمكنُ تبريرُ هذا الأمر، فهؤلاء الذين كانوا يسعونَ لايقاظه

[١٣٧]

كانوا يوجهون التأثيرات على القسم المحظور من دماغه، بينما وضعتُ «دائرة حفظ الدماغ» تحت التأثير فهذا الجزء يبقى مستيقظاً حتى في اعمق حالات النوم، ومن خلال دائرة الحراسة هذه يقيم الانسانُ علاقاته مع العالم الخارجي (ويودع المسائل التي يرغبُ بها في هذه الدائرة بلا شعور منه).والأُمُ التي تنام الى جانب طفلها المريض ولا يمكن لأعلى صرخات المحيطين ان توقظها، تستيقظ لأقلِّ أنَّة من طفلها.والطّحان الذي ينامُ عند حدوث العواصف المصحوبةِ بالبرق والرعد يستيقظ بمجرد توقف طاحونته عن العمل، كل ذلك بسبب ايداعهم لما يريدونه في دائرة الحفظ في الدماغ بلا وعي»(١).٨ ــ ويقول (درفيشر) في كتابه حول الحمام الزاجل وعودته المدهشة الى عشّه:«لو وضعنا هذا الطائر في صندوق مقفل مظلم وابعدناه مئات الكيلو مترات عن وكره، وسلكنا به الطرق الملتوية والمعقّدة اثناء رحلتنا، فانه حال اَخراجه من الصندوق يطيرُ مباشرةً نحو عشِّه بعد عشر او عشرين ثانية من رؤية النور، وقد ثبتَ ذلك عن طريق الاختبارات المتكررة التي قام بها عالمٌ معروفٌ يُدعى الدكتور «غرامر».. ويمكن توضيح اسلوب عمله بهذا المثال: فلو ان هذا الطائر كان في مدينة هامبورغ فانه يعلم اين تكون الشمس عند الساعةِ الفلانية من اليوم، فاذا اخذوه الى مدينة «بروم» مثلا فانه يفهم أنَّ الشمس هناك تكون الى الشمالمن١/٢٥ درجةً شرقاً بنصف درجة.فمن اجل عودته الى وكرهِ في هامبورغ يجب عليه التحليق نحو الشمال الشرقي مع الاخذ بنظر الاعتبار وضع الشمس في هامبورغ.ألا أنّه ليس معلوماً كيف تقوم هذه الطيور بتحديد طريقها عندما يكون الجوُّ غائماً حيث تختفي الشمس؟ لقد اثبتت التجارب اَنَّ اغلبها يجد طريقه بلا توجيه

(١) (علم النفس في الاتحاد السوفيتي)، ص ١٩ «مع شيء من الاختصار».

[١٣٨]

من حركة الشمس»(١).ولو فرضنا اَنَّ هذه الطيور تستخدم حركة الشمس، فمن المسلَّم به عدم امكانية تعيين الزوايا، وهي زوايا صغيرة جداً، من دون الاستعانة بالمنقلة لتحديدها من انها مسائل لا يمكن تفسيرها الاّ في ظل الهداية الالهية.اَنَّ هذا الطائر ومئات مثلُهُ دليلٌ حيٌّ على ان وراءَ الطبيعةِ علماً وقدرةً لا متناهيةً تهدي وتقود كلَّ موجود في مسيرة حياته... نعم كلُّ هذا دليلٌ على من لا دليل له.٩ ــ ونختم الحديث بكلام ورد عن الامام الصادق((عليه السلام)) طبقاً لما جاء في (توحيد المفضل)، حيث يقول((عليه السلام)): «فكّر يا مفّضل في خلقة عجيبة جعلت في البهائم، فانهم يوارون انفسهم اذا ماتوا كما يواري الناس موتاهم، واَلاّ فاين جيف هذه الوحوش والسباع وغيرها لا يرى منها شيء؟ وليست قليلة فتخفى لقلتها بل لو قال قائل: انها اكثر من الناس لصدق، فاعتبر ذلك بما تراه في الصحاري والجبال من اسراب الظبا والمها والحمير والوعول والأيائل وغير ذلك من الوحوش، وأصناف السباع من الاُسد والضباع والذئاب والنمور وغيرها، وضروب الهوام والحشرات ودوابّ الارض، وكذلك أسراب الطير من الغربان والقطا والاوز والكراكي والحمام وسباع الطير جميعاً وكلها لا يرى منها شيء إذا ماتت الاّ الواحد بعد الواحد يصيده قانص او يفترسه سبع....»(٢).

(١) الحواس الخفية للحيوانات، ص ١٨٣.(٢) بحار الانوار، ج ٣ ص ٩٩ (مع شيء من الاختصار).

[١٣٩]

٦ ــ آياتُه في حالتي النوم واليقظةِ

[١٤٠]

[١٤١]

تمهيد:

لم يُشر القرآن الكريم الى الموضوعات المهمة جداً كخلق السماوات والارض، والشمس والقمر، وروح الانسان، بصفتها آيات وبراهين من الله تعالى فحسب، بل يستند احياناً الى المسائل العاديّة في نظرنا ايضاً، لكي يوضح لنا أنْ ليس هناك شيء عاديّ في هذا العالم، فكلُّها آياتُ حق كبيرها وصغيرها، وبراهينٌ عظيمةٌ على علم وقدرة الباري تعالى.ومن بين هذه الامور التي تُعَدُّ عاديةً حسب الظاهر، هي حالتا النوم واليقظة اللتان استند اليهما القرآن الكريم على وجه الخصوص.بهذا التمهيد نقرأ خاشعين الى الآيات الآتية:١ ــ (وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ والنَّهــارِ وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إنَّ في ذلكَ لآيات لِقَوْم يَسْمَعُوْنَ).(١)٢ ــ (وَهُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِباساً والنَّوْمَ سُباتاً وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً).(٢)٣ ــ (وَجَعَلْنــا نَوْمَكُمْ سُباتاً وَجَعَلْنا اللَّيْلَ لِباساً).(٣)٤ ــ (إذْ يُغَشِّيْكُمُ النُّعاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمــاءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ).(٤)* * *

---

(١) (الروم الآية: ٢٣).
(٢) (الفرقان الآية: ٤٧).
(٣) (النبأ الآية: ٩ و ١٠).
(٤) (الانفال الآية: ١١).

شرح المفردات:

حينما يتطرق بعض ارباب اللغة الى مفهوم (النوم) يقولون إنَّ له مفهوماً معروفاً.(١)إلاّ إنَّ الراغبَ يقول في كتاب المفردات:النوم: فُسر على أوجه كلها صحيح بنظرات مختلفة، قيل هو استرخاء أعصاب الدماغ برطوبات البخار الصاعد اليه، وقيل هو ان يتوفى الله النفس من غير موت، قال: (الله يَتَوفى الانفُس) الآية، وقيل النوم موت خفيف والموت نوم ثقيل.(٢) و (النُّعاس) «على وزن غُبار» ويعني النوم القليل والخفيف، وفسَّره بعض على انه بداية النوم، وهنا حيثُ يكون النومُ خفيفاً في بدايته فانَّ كلا المعنيين يعودان الى حقيقة واحدة.و (السبات) مأخوذة من مادة «سَبْت» (على وزن ثَبْت) أي «القطع»، ولهذا سُمِّيَ يومُ السبت بهذا الاسم في لغة العرب، حيث كان يوماً لتعطيل الاعمال من اجل الراحةِ، ومما يظهر انَّ هذه التسمية مستوحاةٌ من افكار اليهود حيث يعتبرون يوم السبت عطلةً لهم.وهذا ما يعتقد به اليهود، اذ يقولون إنَّ الله تعالى بدأ خلقَ العالم يوم الأحد وانتهى بعد ستة أيام فكان يوم السبت نهايةً لخلق البشر وللراحة اَلاّ اننا نعلمُ انَّ هذا من الاخطاء الفاضحة لليهود، لانَّه في الوقت الذي لم تكن هناك سماءٌ ولا ارضٌ ولا شمسٌ ولا قمرٌ لم يكن هناك وجود لليوم والاسبوع ايضاً وحينما

يقول القرآن الكريم: (خَلَقَ السَّماءَ والارضَ في ستةِ ايام) فالمقصود «ست مراحل».وكلمة (السبت) جاءت بمعنى الراحةِ ايضاً(٣).

---

(١) لسان العرب، مادة نوم، ج ١٢ ص ٥٩٥.(٢) لسان العرب، مادة نوم.
(٣) مفردات الراغب، مجمع البحرين، لسان العرب.

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

اَنَّ نومكم من آيات الله:في الآية الاولى من البحث يَعُدُّ القرآن الكريمُ نومَ الانسان في الليل والنهار أحدَ البراهين على علمِ وقدرةِ الله تعالى فيقول: (وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ والنَّهــارِ).وهو في نهاية الآية يؤكد هذا البرهان (إنَّ في ذلِكَ لآيات لِقَوْم يَسْمَعُوْنَ).ومما لا شك فيه انَّ الكائنات الحيّة كافة تحتاجُ الى الراحةِ لتجديد قواها، واكتساب الطاقة اللازمة لاستمرار نشاطاتها الحياتية، الراحةُ التي تلاحقهم تلقائياً، وتجبُرُ حتى الحريصين على التمتع بها.فايُّ عامل افضلُ من النومِ يمكنُ ان نفكر به من اجل تحقيق هذا الهدف حيث يلاحق الانسانَ بشكل اجباريٍّ ويضطره لايقاف جميع نشاطاته الجسمية، بل حتى بعض من نشاطاته الفكرية الاساسية، وفي النتيجة يغطُّ في راحة عميقة، وخلال هذه الفترة تقوم أجهزة الجسم باعادة البناء والاستعداد للسعي والحركة من جديد.ومما لا شك فيه ان الانسانَ لولا النوم، فانه يذبُلُ ويتْلَفُ، ويُصيبُهُ العَجَزُ والانكسار بسرعة، لذلك فقد قالوا: إنَّ النومَ المعتدل والاستقرار سرُّ السلامةِ وطولِ العمر وحيوية الشباب.واللطيفُ اَنَّ الآيةَ التي نبحثها وضعت (النوم)، و (ابْتِغاء فَضْلِ اللهِ) في مقابل بعضهما، وحسب قول بعض المفسرين انَّ الأولَ هو علامة الموت والثاني علامة القيامة.انَّ تعبير (اِبْتغاءَ فَضْلِ اللهِ) اشارةٌ الى مسألة لطيفة، تهتُم بسعي وجدِّ الانسانِ في حياته، وبفضل الله ايضاً، أي انَّ مزجهما مع بعضهما يُفيدُ الانسان من هبات العالم.

* * *

وفي الآية الثانية بعد أن يُصرِّحَ (هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً) يشيرُ الى مسألة النوم حيث يقول تعالى (وَالنَّوْمَ سُباتاً).ومن الممكن ان يكون تعبير (هو الذي) اشارة الى الجانب التوحيدي

لهذه الامور، فكلٌ منها دليلٌ على الذات المقدسة، أو جانبِ الاَنعامِ كي يعرفَ الانسانُ وليَّ نعمتِهِ، ومن المسلَّم به ان معرفة وليَّ النعمة ستكون مقدمةً لمعرفته ايضاً.واللطيف اَنّه يقول بعد ذلك: (وَجَعَلَ النَّهارَ نَشُوراً)(١).أجَلْ.. ففي وضح النهار تنتشر الروحُ ويستيقظ الانسانُ بشكل كامل، اَذ لا يخلو من شَبَه بنشورِ يوم القيامة والحياة ما بعد الموت.وهذا الاحتمالُ ممكن ايضاً، حيث يشير الى انتشار الناس في ميدان الحياة

(١) تأملوا جيداً انَّ «النشور» معنى لمصدر، و «السُبات» معنى لمصدر ايضاً أو اسمٌ مصدريٌ، واطلاقهما على الليل والنهار يفيد المبالغة والتأكيد.

* * *

توضيحات:

ظاهرة النوم الخفيّة:مع انَّ «النوم» و «الرؤيا» تعتبر بالنسبة لنا أمراً عادياً، إلاّ انَّ العلماء لم

يتوصلوا الى عمق هاتين الظاهرتين المهمتين بالرغم مما بذلوه من مساع وجهود.فايُّ فِعْل وانفعالات تطرأُ على الانسان ليتوقف فجأة القسم الاعظم من نشاطاته الجسمية والروحية؟! ويحصلُ هذا التغيير في جميع اجزاء جسمه وروحهِ كذلك، فلا يفهمُ شيئاً ولا يبدي أىَّ حركة ويستلقي جانباً كالميت، ولو غرقت الدنيا بأكملها فهو نائمٌ لا يدري.ومع كل هذه التوضيحات والآراء والفرضيات التي قيلت في هذا المجال، فقد حافظ النوم على صورته المدهشة!والاكثر عجباً من ذلك مسألةُ (الرؤيا) التي تُعَدُّ من الالغاز العظيمة كروح الانسان.وطبعاً ان الحديث المفصَّلَ بصدد حقيقة واسرار هاتين الظاهرتين خارجٌ عن موضوع بحثنا، لأنَّ الغايةَ من بحث الآيات المذكورة هي بيان المنافع الكثيرة، والفوائد التي لا تُحصى للنوم من جانب ومن جانب آخر كونه نعمة من نعم الله.فالنوم المعتدل دائماً يعتبر دليلا على سلامةِ روح واعصاب الانسان، لذلك فان اهمُ اسئلةِ الاطباء لمرضى النفس تدور حول كيفية نومهم.فلا تتوقف الاجهزة الاساسية في جسم الانسان كالقلب والرئة اثناء النوم، لكنها تعملُ بهدوء اكثر، ويصبحُ دوران الدَّم في الاعضاء اكثرُ تناسقاً، ويتوقفُ نشاطُ الدَّماغ تقريباً، وتستقر جميعُ العضلات

ايضاً، فتؤدي كلُّ هذه الامور الى حصول هذه الاعضاء على فرصة لِتجديد بناء ذاتها.وخلالَ النومِ تُزالُ سمومُ الجسم، وتُعالجُ كثير من الامراض.لقد اورد «روخلين» في كتابه (الرؤيا في نظر بافلوف) بحثاً تحت عنوان (العلاج بالنوم العميق) قائلا:«بناءً على فرضية «بافلوف» فانَّ النومَ عبارةٌ عن ظاهرةِ توقُّف من اجل الصيانة وتجديد القوى، وعليه فيمكن استغلالهُ كعامل للعلاج من الامراض المختلفة، وتؤيدُ التجاربُ اليومية دور النوم في ذلك ايضاً»[١٤٧]

ثم يضيف: «انَّ النومَ العميق الطويل مؤثر على تحسُن صحة المريض، لانَّ المرضى ينامون اكثر من المعهود بعد مرض طويل من اجلِ استعادةِ قواهم وسلامتهم».ويقول: «لقد واجه العلاجُ عن طريق النوم رواجاً واسعاً في الاتحاد السوفيتي، وقد استخدمت هذه الطريقةُ لأولِ مرة لمعالجة (جنون الشباب) «الشيزوفرينيا» الذي يعتبر من الامراض النفسية الشائعة».ويقول في جانب آخر من حديثه: «تم الحصول على نتيجة مُرضيَة لعلاج المصابين بارتفاع ضغط الدم عن طريق النوم العميق... فالنوم الطويل الذي هو حالة من الراحةِ الكاملة للمخ، يُجدد قدرةَ الجهاز العصبي ويوازن تنظيم نشاط الاعضاء الداخلية، ويترك اثراً ايجابياً مساعداً للوضع العام للانسان(١).أجَل فالذي خلق الانسان سالماً من اجل السعي والنشاط، وضع جميع وسائل ذلك تحت تصرفهِ، وأحدُها نظام النوم واليقظة، النظام الذي تبرز فيه بكل وضوح براهينُ حكمةِ الباري عز وجل.

---

(١) النوم في نظر بافلوف ص ١١٢ ــ ١١٦ (مع الاختصار).

٧ ــ آياته في بسط السماوات والارض

تمهيد:

بعد أن ذكرنا آياتِ (الانفس) نتجه صوبَ آيات الآفاق:لقد كانَ النظر الى السماوات والارض على الدوام دافعاً لتفكير الانسان، ولكن كلَّما تطورَ علمُ الانسان تعاظم العالم العلوي ذو الاسرار العجيبة في نظرهِ، فلو قيستْ عظمةُ السماوات في نظر علماء اليوم مع ما مضى لكانت « كالقطرةِ» الى «البحر»، وليس معلوماً ان يكون «الغد» كذلك في قياسه مع «اليوم».فماذا يجري

في هذه المنظومةِ والمجرّات الجبّارة، والنجوم الثابتةِ والسّيارة؟ وما هي المعالم الموجود فيها؟والى أيِّ زمان يعود تاريخ ظهورها؟وهل هناك من يسكنُ فيها؟ واذا كان كذلك فهل ان حياتهم تشبه حياتنا ام يختلفون عنّا؟هذه الاسئلة وعشراتٌ اُخرى تشغلُ فكرَ كلِّ انسان باحث ومتفحص في أمر السماوات.يقول علماء العصر: اننا اليوم نرى نجوماً في السماء قد اختفت من الوجود قبل آلاف السنين وربما قبل ملايين السنين، وهذا يعود الى الفاصلة الخارقة بينها وبيننا، وأن نورها قد بدأ حركته منذ آلاف أو ملايين السنين وما زال في طريقه الينا، فاذا كان الميدان الحقيقي للسماء هكذا ــوهو كذلكــ، فالى اَيِّ حد يختلف مع ما نراه اليوم؟ ليس هناك مَنْ يستطيع الاجابة عن هذا التساؤل «تأمَّل جيداً».

وامثال هذه التساؤلات كثيرةٌ حيث يصعب الاجابة عنها من قبل العلماء.لقد اصبحنا امام مثل هذا العالم من الاسرار، فعظمتُهُ من جانب، والنظام والتقنين اللذان يسودانه من جانب آخر، تكشف الستار عن القدرة والعلم اللامتناهي

لمن له اليد في خلق ذلك.بعد هذا التمهيد نقرأ خاشعين الآيات الآتية:١ ــ (اَنَّ في خَلْق السَّمــواتِ والأَرضِ واخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآيات لأُولي الألْباب)(١).٢ ــ (اَنَّ في خَلْق السَّمــواتِ والارض واخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ لآيات لقَوْم يَعْقِلُونَ)(٢).٣ ــ (ومِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمــواتِ وَالأَرْضِ واخْتِلافِ أَلْسِنَتِكُمْ وأَلْوانِكُمْ انَّ في ذلكَ لآيات لِلْعالمينَ)(٣).٤ ــ (اَنَّ في السَّمـــواتِ والأَرْضِ لآيات لِلمُؤْمِنين)(٤).٥ ــ (خَلَقَ اللهُ السَّمــواتِ والأرْضِ بِالْحَقِّ انَّ في ذلكَ لآيات لِلْمُؤمِنِيْنَ)(٥).٦ ــ (اَنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذي خَلَقَ السَّمــوات وَالأرْضَ في سِتَّةِ أيام ثُمَّ اسْتَوى عَلى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأمْرَ مــا مِنْ شَفِيْعٍ إلاّ مِنْ بَعْدِ إذْنِهِ ذلكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوْهُ اَفَلا تَتَذكَّرُوْنَ)(٦).

٧ ــ (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمــوات وَالأرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُوْلُنَّ اللهُ فَأَنّى يُؤفَكُوْنَ)(٧).٨ ــ (لَخَلْقُ السَّمــواتِ وَالأرْضِ أكْبَرُ مِنْ خَلْق النّاسِ وَلكِنَّ اكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُوْنَ)(٨).

---

(١) (آل عمران الآية: ٩٠).
(٢) (البقرة / ١٦٤).
(٣) (الروم الآية: ٢٢).
(٤) (الجاثية الآية: ٣).
(٥) (العنكبوت الآية: ٤٤).
(٦) (يونس الآية: ٣).

(٧) (العنكبوت الآية: ٦١).
(٨) (غافر الآية: ٥٧).

[١٥٢]

٩ ــ (قالَتْ رُسُلُهُمْ أفي اللهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّمــواتِ وَالأَرْضِ)(١).١٠ ــ (والسَّمــاءَ بَنَيْناهــا بِأيْد وإنّا لَمُوْسِعُوْنَ ــ وَالأرْضَ فَرَشْناهــا فَنِعْمَ الْماهِدُونَ)(٢).١١ ــ (وَجَعَلْنــا السَّمــاءَ سَقْفاً مَحْفُوْظاً وهُمْ عَنْ آيــاتِها مُعْرِضُوْنَ)(٣).١٢ ــ (اللهُ الَّذي رَفَعَ السَّمــواتِ بِغَيْرِ عَمَد تَرَوْنَهــا ثُمَّ اسْتَوى عَلى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ).(٤)* * *

.

شرح المفردات:

لكَلمة (الَخلْق) معنيان كما يقول صاحب «مقاييس اللغة»، احدهما تقدير الاشياء، والآخر النَّقي والمسطَّحْ.ويقول الراغب في المفردات:«الخَلْقْ أصله التقدير، ويستعمل في ابداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء قال تعالى:(خَلَقَ السَّمــواتِ والأَرْضِ) اي أبدعهما بدلالة قوله: (بديعُ السَّمواتِ والأَرْضِ)،... وليس الخلق الذي هو الابداع إلاّ لله تعالى، ولذلك قال في الفصل بينه تعالى وبين غيره: (افَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقْ اَفَلا تَذَكّرون)، اما الذي يكون بالاستحالة فقد جعله الله تعالى لغيره في بعض الاحوال، وتستعمل هذه المفردة في الكذب ايضاً (وربما اطلق على الكذب بسبب اختلاق وايجاد موضوع ما في فكر السامع»(٥).

.

(١) (ابراهيم الآية: ١٠).
(٢) (الذاريات الآية: ٤٧ ــ ٤٨).
(٣) (الانبياء الآية: ٣٢).
(٤) (الرعد الآية: ٢).
(٥) مفردات الراغب ص ١٥٨.

[١٥٣]

ويقول ابنُ منظور في «لسان العرب»: الخلق في كلام العرب ابتداع الشيء على مثال لم يُسبق اليه.وعليه.. جمع انَّ كلمة الخلق تَعني في الاصل التقدير والتنظيم وتنقية الاشياء، إلاّ انها اُستخدمت فيما بعد بمعنى الابداع والايجاد وتغيير هيئة الاشياء بالنحو الذي يتبادر هذا المعنى

الآن.وتعني (السماء) استناداً الى ما قاله ارباب اللغة، الشيء الذي يرتفع عالياً، لذلك فانَّ بعضاً يعتقد إنَّ لها صبغةً نسبيةً حيث يمكن أنْ تكون نسبةُ شيء الى شيء آخر كالسماء الى الارض، واشتُقَ «الاسم» من هذه المادة ايضاً لأنَّ التسمية عاملٌ فى رفعةِ وسمو مقام المُسمى.واستناداً الى كلام مؤلف «التحقيق» فانّ السماء قد تكون ملموسةً ومادية كـــ (أنزل من السَّماء ماءً) أو معنوية كـــ (قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ في السَّماءِ).(١)ويقول «ابن منظور» في «لسان العرب» ايضاً: السمو: تعني الارتفاع والعُلو(٢).وبناءً على ذلك فانَّ كلمة السماءَ لا تعني هذه السَّماء فقط بل أيَّ نحو من الارتفاع والعلو، ولكنها جاءت فى الآيات المُنتَخبة في هذا البحث بشكل عام بمعنى السماء.وتُطلقُ (الاَرْض) فى الاصل على الجزء الاسفل لكل شيء قبالة «السماء» التي هي الجزء الاعلى لكل شيء، قال هذا الكلام صاحب «مقاييس اللغة»، ويقول الراغب في تعبير مشابه: الارض هي الجرمُ الذي يقابلُ السماء، ويعبَّرُ عن اسفل كل شيء بـــ «الارض».وورد فى كتاب «التحقيق» ان الارض لها مسمّيات متعددة بعضها أوسعُ من بعضها الآخر، فهي تُطلقُ على المسكنِ، والمحلِّ، والقريةِ، والمدينةِ، والبلد،

---

(١) (البقرةالآية:١٤٤) .

(٢) فى كتاب «العين» للخليل بن احمد ذُكرت «سما» بمعنى الارتفاع ايضاً، ص ٣٩١.

والكرة الارضية، وما تحت السماء، وحتى ما موجود في عالم الجسم وتحت عالم الارواح، حيث يقال لكلٍّ منها «ارض»، وفي هذه المفاهيمِ يلاحظ قيدان هما الانخفاض، ومقابلةِ الارتفاع.(أرَضَة) (على وزن حَدَقَة) وتعني الحشرة التي تخرج من الارض وتأكل الخشب.واللطيف هو ان أحد معاني «الارض» هو مرض الزكام، والآخر هو «الرِّعْدَة».ولعلَّ السبب في ذلك انَّ هذه الامراض تُقعدُ الانسان وتُخلدُهُ الى الارض(١).* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

كان ارتفاعُ السماء آية حق!الحديث فى اول آية من البحث هو عن خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار اللذين يحصلان نتيجة دوران الارض حول نفسها مقابل الشمس اذ يقول تعالى: (اَنَّ في ذلكَ لآيات لأُولي الألْباب).وكما وضَّحنا فى بحوث المعرفة فى المجلد الأول فانَّ (الالباب) جمع «لُبْ» أي العقل الصافي والعميق، نَعمْ.. فَمَنْ لهم مثل هذه العقول والالباب يستطيعون أن يَرَوا آيات وبراهين كثيرةً عن الله تعالى في خلق السماوات والارض، واختلاف الليل والنهار، وليس آية واحدةً أو براهاناً واحداً فقط.واللطيف ما جاء في الرواية المشهورة الواردة في الكثير من التفاسير فى ذيل

---

(١) مقاييس اللغة، مفردات الراغب، لسان العرب ، مجمع البحرين، والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم ص ١٢ ج ٧ ص ١١٣.

هذه الآية حيث ورد فيها: قال ابن عمر: قلت لعائشة اخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله((صلى الله عليه وآله وسلم))، فبكت وأطالت ثم قالت: كل أمره عجب، أتاني في ليلتي فدخل في لحافي حتى الصق جلده بجلدي، ثم قال لي: يا عائشة هل لك ان تأذني لي الليلة في عبادة ربي؟ فقلت يا رسول الله اَني لأحب قربك واحب مرادك قد اذنت لك، فقام الى قربة ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء، ثم قام يصلي، فقرأ من القرآن وجعل يبكي، ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بلت الارض، فأتاه بلال يؤذن لصلاة الغداة فرآه يبكي، فقال: يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟فقال ((صلى الله عليه وآله وسلم)): يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً، ثم قال: ما لي لا أبكي وقد انزل الله في هذه الليلة (انَّ في خَلق السَّمــوات والارض)، ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها(١).صحيحٌ انَّ كلَّ من ينظر الى السماوات والاجرام السماوية يَعثرُ على آيات من الله تعالى، اَلاّ أنَّ ذوي العقول والالباب يستفيدون اكثر من سواهم، فهؤلاء يَرَوْنَ آثارَ قدرةِ الله تعالى في كلِّ بقعة من السماء، فهم يجدون في خلق كلَّ منظومة، وكلَّ مجرَّة، وفي حركاتها المنظَّمةِ العجيبةِ اسراراً لم يجدها سوى اولي الالباب.وما يلفت النظر انّهُ ذُكر في الآية الثانية (قَوْمٌ يَعْقِلُوْنَ) بدلا من (اُولي الأَلْباب)، وفي الآية الثالثة (عالِمين)، والرابعة والخامسة (مؤمنين).وفي الحقيقة، كما فصّلّ سابقاً في بحث (مصادر ومجالات المعرفة) في المجلد الاول من هذا التفسير فانَّ كلا من

الميزات اعلاه (الالباب، التعقل، العلم، والايمان) تعتبر ارضيةً مناسبةً لمعرفة واطلاع اكثر عن آيات الله.وهذه مسألةٌ جديرةٌ بالاهتمام حيث يصف القرآنُ الكريم (أُولي الألْباب)

---

(١) تفسير «ابي الفتوح الرازي» ج ٣ ص ٣٨٤، تفسير «الفخر الرازي»٩ ص١٣٤، وروح المعاني ج ٤ ص ١٤٠، تفسير «القرطبي» ج ٣ ص ١٥٥٢ وتفاسير اخرى.

الذين تُفتَحُ امامهم ابوابُ معرفةِ الله من خلال مشاهدة خلق السماوات والارض اذ يقول تعالى: (الَّذِيْنَ يَذْكُرُوْنَ اللهَ قِياماً وَقُعُوْداً وَعَلى جُنُوْبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُوْنَ في خَلْقِ السَّمــواتِ والأَرْضِ رَبّنا مــا خَلَقْتَ هذا باطِلا).(١)* * *

وفي الآية الثالثة ذكر مسألة اختلاف الالسن والالوان، التي هي من آيات الانفس، الى جانب مسألة خلق السماوات والارض التي هي من آيات الآفاق، حيث يقول تعالى: (وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمــواتِ والأَرْضِ وأخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوانِكُمْ).وقد يكون اختلاف الالسن والالوان بمعنى اختلاف اللغات التي يتكلم بها الناس، والوان وجوههم، او بمعنى لحن اصواتهم واسلوب حياتهم، وتفكيرهم

---

(١) آل عمران الآية: ١٩١.

* * *

وفي الآية السادسة طُرِحَ موضوعٌ جديدٌ ألا وهو خلق السماوات والارض في ستة ايام، اذ يقول تعالى: (إنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّمــواتِ والأَرْضِ في سِتَّة أيّام).وقد ورد ذكر خلق السماواتِ والارض في ستة ايام في سبع آيات من القرآن الكريم(١).وهذا يُبرهنُ على انَّ (القرآنَ الكريم) يولي اهتماماً خاصاً لمسألةِ الخلق التدريجي للعالم، وهو بذاته دليلٌ آخر على عظمة الخالق جلَّ وعلا.ومع أنَّ بعضَ الماديين غير الواعين وبسبب عدم معرفتهم بمعنى (اليوم)، انتقدوا مثل هذه الآيات واستهزؤوا بها(٢) حيث انهم يعتقدون انَّ (اليوم) هنا بمعنى بياض النهار أو (اربع وعشرين ساعة)، إلاّ ان الجميع يعلم ان اليومَ بهذا المعنى هو وليدُ حركةِ الارض وضوء الشمس، وعندما لم يكن وجودٌ للسماوات والارض لم يكن هناك مفهوم لليل والنهار بهذه الهيئة.

(١) الفرقان/ ٥٩، السجدة/ ٤، ق/ ٣٨، الحديد/ ٤، الاعراف/ ٥٤، هود/ ٧.(٢) المادية التاريخية ص ٨٧.

فقد غَفَلَ هؤلاء عن هذه المسألة وهي ان كلمة (اليوم) وما يماثلها في بقية اللغات لها معان مختلفة من حيث المفهوم والاستعمالات اليومية، فمنها ما يعني «المرحلة» وقد تكون هذا المرحلة قصيرةً أو طويلةً جداً، كما يقول الراغب في كتاب (المفردات) الذي هو من النصوص اللغوية المعروفة: اليومُ يُعَّبرُ به عن وقت طلوع الشمسِ الى غروبها، وقَدْ يُعبر به عن مدة مِنَ الزَّمانِ أيَّ مدة كانت.ونقول في الاستعمالات اليومية، إنَّ الناس كانوا في يوم ما يسافرون على ظهور الحيوانات، واليوم بوسائط النقل السريعة، وكلا هذين التعبيرين (يومٌ، واليوم) اشارة الى حقبة طويلة، ونقرأ في الحديث المعروف عن امير المؤمنين((عليه السلام)): (واعلَمْ بانَّ الدَّهرَ يومانِ: يومٌ لكَ ويومٌ عليك)(١).بل ان الدنيا كلها عُدَّت يوماً واحداً، وكذلك كل الآخرة في بعض العبارات، فيقول امير المؤمنين((عليه السلام)): «وانَّ اليوم عملٌ بلا حساب، وغداً حسابٌ بلا عمل».والبيتان المعروفان عن الشاعر كليم الكاشاني تعبير لطيفٌ في هذا المجال، وهذه ترجمتها العربية:انَّ الحياة سيئة الصيت يومان ليس اكثرَ (كليم)فدَعْني اُخبركَ كيف مضت؟فيومٌ مرَّ بتعلُّق القلبِ بهذا وذاكويوم آخر مضى بانقطاع القلب عن هذا وذاكوعليه فانَّ المقصود من خلق السماوات والارض في ستة أيام هو ست مراحل، وقد تمتد كلُّ مرحلة من هذه المراحل ملايين أو آلاف الملايين من السنين،ومن الواضح عدم توفُّرِ أيِّ دليل يعارض هذا التحديد من الناحية العلمية.(٢)ولكن من المحتمل ان تكون هذه المراحل الست حسب التسلسل الآتي:

(١) نهج البلاغة الرسالة ٧٢.(٢) ذُكِر ايضاً فى كتاب القاموس المقدَّس الذي هو شرحٌ لمفاهيم التوراة والانجيل، شرحٌ فيما يخص خلق السماوات والارض فى ستة ايام حيث يشبه ما ورد اعلاه فى بعض الجوانب بالرغم من اختلاطه ببعض الخرافات كاستراحةِ الله في اليوم السابع (القاموس المقدس ص ٨٤ كلمة الخلق).

١ ــ مرحلةٌ كانَ العالمُ كلَّه فيها مجاميعَ عظيمةً جداً من غازات التي تدور حول نفسها.٢ ــ مرحلةُ انفصال مجاميع عظيمة عنها والاخذ بالدوران حول محور المجموعة المركزية.٣ ــ المرحلة التي فيها شكَّلت بعض هذه المجاميع منظومات كمنظومتنا الشمسية على اثر

الدوران.٤ ــ المرحلة التي تكونت فيها الارض واستعدت للحياة، وظهرت عليها المياه، وتكونت البحار.٥ ــ مرحلةُ ظهور الاشجار والنباتات وتهيئة الاقوات والاطعمة على الارض.٦ ــ مرحلة ظهور الحيوانات وبعدها الانسان على الارض.والمسألة الجديرة بالاهتمام هي انَّ من بين الآيات الثماني التي بَينَت خلق السماوات والارض في ستة ايام، تمت الاشارة في اربع آيات منها فقط الى خلق السماوات والارض في ستة ايام(١).وفي ثلاث آيات ورد خلق السماوات والارض وما بينهما(٢).وفي آية واحدة فقط أُشير بشكل عام الى تفصيل هذه المراحل الست، فمرحلتان لخلق السماوات ومثلهما لخلق الارض، ومرحلتان لايجاد النباتات والحيوانات (الَّذي خَلَقَ الأرْضَ في يَوْمَيْنِ... وَقَدَّرَ فِيْهــا اَقْواتَها في أرْبَعَةِ ايّام)(٣).

بناءً على ذلك، فانَّ المراحل الست اعلاه تتعلق بخلق السماوات والارض وموجوداتهما المتنوعة.(٤)

---

(١) الحديد ــ ٤، الاعراف ٥٤، يونس ٣ وهود ٧.(٢) الفرقان ٥٩، السجدة ٤، ق ٣٨.(٣) فصلت الآية: ٩ و ١٠.(٤) ومن اجلِ توضيح أكثَر في هذا المجال يراجع (التفسير الأَمثل) فيما يرتبط بالآيات المذكورة (ج ٦ ص ٢٠٠، ج ٢٠ ص ٢٢٢ ذيل الآيات٥٤ الاعراف، و ١٠ فصلت).

* * *

ومع انَّ الآية الثامنة تقصدُ مسألة المعاد والقيامة بدلالةِ الآيات التي تليها وتقول إن القادرَ على خلق السماوات والارض بهذه العظمة، قادرٌ على ان يحييَ الموتى، لأنَّ خلق السماوات والارض اكبرُ من خلق الانسان.لكنها مع ذلك دليلٌ واضحٌ على مسألة معرفةِ الله ايضاً، لأنَّ وجودَ الانسان بل وحتى وهو عضو واحد من اعضاء جسمه كالعين والاذن، بل حتى بناء خلية واحدة من خلايا هذه الاعضاء بكل ما فيها من التعقيد والابهام والأسرار والانظمة يمكن ان يكون من آيات الله تعالى. بناءً على ذلك فانَّ (خلق السماء والارض الذي هو اكبرُ واعظم من خلق الانسان اوضحُ برهان على عظمة الله تعالى) (لَخَلْقُ السَّمــواتِ والأَرْضِ أكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النّاسِ).ومن المؤكد ان يرجح خلقُ الانسان اذا ما قيسَ مع كل جزء من اجزاء هذا العالم، إلاّ انَّه اذا قيس بكل السماوات الواسعة والارض، فمن المسلَّم به ان يرجحَ خلقُها.والظريف ان القرآن الكريم حينما جاء بهذا التصريح لم يكن للناس حينذاك

ــولا سيما المتخلّفين في الحجازــ معرفة بعظمة السماوات، ولعلهم كانوا يظنّون انَّ السماء سقفٌ رماديّ اللون قريبٌ منهم، ضُربت عليه مسامير النجوم الفضيّة !أجَلْ.. اننا اليوم ندرك جيداً المفهوم العميق لهذه الآية، لأنَّ العلماء تفحّصوا هذه السماء الواسعة من خلال المراصد الفلكية العملاقة، وأَهْدَوا الينا عجائب مذهلة عن عظمتها والنظام السائد فيها، ومن اين ندري ان ما يشاهدونه اليوم لا يبلغ معشار عظمة هذا العالم، ولعل هذه الحقيقة تتضح غداً للملأ، لهذا يقول تعالى في آخر الآية: (وَلَكِنَّ اكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُوْنَ)(١).وفي الآية التاسعة تمَّ جمع دورة كاملة من دروس التوحيد ومعرفة الله فى استفهام إنكاريٍّ حيث يقول: (أفي اللهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّمــواتِ وَالأرْضِ).والجدير بالاهتمام هنا ان كلمة (فاطر) تعني المشَقِق، وجاء استخدام هذا التعبير اما بسبب تمزيق حجاب العدم والظلمة اثناء خلق السماوات والارض واشراق نور الوجود في خلق السماوات والارض، او اشارةٌ الى ما يُعرفُ اليوم لدى علماء الفلك حيث ان جميع هذه الكُرات والمنظومات كانت في اليوم الاول على هيئة مجموعة كبيرة تترابط معاً، وانفصلت عن المركز نتيجة لحركتها حول نفسها والقوة الطاردة، والقت بقطع منها الى الخارج وظهرت المنظومات والمجرّات الثابتة والسّيارة(٢).على أيّة حال، سواء كان المشركون هم المخاطَبون في هذه الآية أو منكروا وجود الله تعالى، او كلاهما. ويُستفاد من هذه الآية الكريمة هذه الحقيقة، وهي انَّ

---

(١) ما معنى «لا يعلمون» هنا؟ هناك احتمالات مختلفة: اولها هو: ان الناس يجهلون عظمتها قياساً مع الانسان، والآخر انهم يجهلون القدرة الالهية اللامتناهية، والثالث، انهم يجهلون قدرته على مسألة المعاد، أو يعلمون، وحيث انهم لا يفصحون عن عملهم هذا، فهم في حكم الجهلاء (ولكن لا يُستبعد أن تجتمع كل المعاني الثلاثة الاولى في الآية وكما قالوا بان حذف المتعلق دليل على العموم).(٢) يقول «الراغب» في «المفردات»: (فَطْر) (على وزن سَتْر) أي الشَّقُ طولياً، ثم جاءت بمعنى الايجاد والابداع، و «فِطْر» (على وزن مِتْر) تعني الافطار وترك الصيام، وكأنَّ الصيام ينفطر، (والفطرة تعني الخلقة وهي مأخوذة من هذه المادة ايضاً).

* * *

ويشير في الآية العاشرة الى خاصّية اخرى من خصائص السماء والارض اذ يقول تعالى: (والسَّمــاءَ بَنَيْناهــا بِأَيْد).فمن المسلَّم بهِ انَّ خلقَ مثل هذه العوالم الجبّارة يستلزم قدرةً مناسبةً له، وهي قدرة الباري عزوجّل وحدها.ويضيف فيما بعد (وإنّا لَمُوْسِعُوْنَ).وبالرغم من إنَّ بعض المفسّرين اعتبروا ذلك بمعنى توسعةِ الرزق عن طريق هطول المطر وغيره(١) تنفصل عن بعضها بسرعة.يقول احد العلماء المعروفين ويُدعى (جورج غاموق) في كتابه (بداية ونهاية

العالم): «يمرُّ فضاءُ الكون الذي يتألف من مليارات المجرّات بحالة من الامتداد السريع، والحقيقة هي انَّ عالَمَنا ليس ثابتاً بل انَّ إتساعَهُ مسلَّمٌ به، والوقوف على كون عالمنا يمرُّ بحالة من الاتساعِ يهيء لنا المفتاح الحقيقي لكنوز اسرار النظرية الكونية، فلو ان العالَمَ يمرُّ اليومَ بحالة من الاتساع والامتداد فهذا يعني انّه كان يمرُ بحالة من الانكماش الشديد في عابر الازمان»(٢).ومما يبعث على الدهشةِ إنَّ هذا التوسعَ يسيرُ سريعاً بالقَدرِ الذي يقول عنه (فورد هوفل) فيكتاب (حدود النجوم): (لقد تم قياس اقصى سرعة لتباعد الكرات حتى الآن بما يقارب٦٦ ألف كيلو متر في الثانية، وتُدَلِلُ الصور الملتقطة عن السماء على هذا الاكتشاف المهم بوضوح، حيث انَّ الفاصلة بين المجرّات النائية تتضاعف بسرعة اكثر من المجرّات القريبة)(٣)!

---

(١) وقد فسَّر بعض المفسرين لفظة (موسعون) بمعنى (قادرون) ايضاً، لانه مفردة (الوسع) تأتي احياناً بمعنى «القدرة»، اما مفهوم «التوسيع» فهو اوضح.

(٢) (بداية ونهاية العالم) ص ٧٧ (مع الاختصار).(٣) حدود النجوم ص ٣٣٨.

* * *

ونقرأ في الآية الحادية عشرة تعبيراً جديداً حول خلق السماء إذ يقول: (وَجَعَلْنا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوْظاً).فهل هناك سماءٌ في العالم على هيئة سقفٌ يُحفظُ من تغلغل الكائناتَ الخارجية؟ نعم.. فالسماء هنا يمكن ان تكون اشارة الى الفضاء الذي يحيط بالارض ويبلغُ سمكُهُ مئات الكيلو مترات، فهذه الطبقة التي تتألف من الهواء المضغوط اللطيف وبقية الغازات المحيطة بجوانب الكرة الارضية على هيئة سقف دائري، قويةٌ بالقدر الذي يصفها بعض العلماء بانَّ لها مقاومةً بقدر سقف فولاذيٍّ بسُمكِ عشرة امتار، وهي لا تمنع نفوذ الاشعاعات المدمرة فحسب، بل تمنع سقوط الصخور الفضائية التي تنجذب نحو الارض بأستمرار، لأصطدامها بهذه الطبقة الجوية بسرعتها الخارقة، فتكون مانعاً لحركة تلك الصخور، كما ويؤدي هذا الاصطدام الى احتراق تلك الصخور وانصهارها.فلو لم تكن هذه الطبقة الجوّية العظيمة واصبح اهلُ الارض عُرضةً للملايين من قذائف الصخور الفضائية الصغيرة والكبيرة ليلَ نهار، فماذا سيحصلَ؟ وهل يكون هناك وجودٌ للاستقرار فى «مهد الارض»؟ وهل سيكون اسمُ المهد والمرقدِ لائقاً بها؟.لا ضير ان تقرأ هذا الكلام الوارد على لسان عالم معروف يُدعى (فرانك آلن)

حيث يقول في كتابه (النجوم للجميع): (إنَّ الجوَّ الذي تألَّفَ من الغازات التي تحفظ الحياة على سطح الارض له من المقدار والسمك «بحدود ٨٠٠ كم» بحيث يستطيع ان يكون كالدرع للارض يصونها من شر اصطدام ٢٠ مليون صخرة فضائية مدمرة تبلغ سرعتها ٥٠ كيلو متراً في الثانية يومياً!)(١).صحيحٌ انَّ وزنَ بعض هذه الشهب التي تتقاطر نحو الارض يعادل١٠٠٠١من الغرام اَلاّ انَّ القوة الناتجة عن سرعتها تعادل قوة انطلاق ذرات القنبلة النووية!.. وقد يبلغ حجمُ ووزن بعض هذه الشُهُب مقداراً كبيراً بحيث تجتاز هذه الطبقة وتصيب الارض، ومن الشهب التي اجتازت الغلاف الغازي ووصلت الى الارض شهاب «سيبريا» العظيم المعروف الذي اصاب الارض عام١٩٠٨م وكانَ قطرُهُ بقَدْر كبيرحيث احتلَ (٤٠كم) تقريباً من الارض، وادّى الى حدوث اضرار جسيمة «وكأنَّ الله تعالى يُنذُرنا بهذا الاسلوب.. لنتصور حالنا فيما لو تعرضنا لقصف الصخور السماوية يومياً».فلو كان الغلاف الجوي حولَ الارض يشكل أرقٌ مما هو عليه «لأصابتَ الارضَ يومياً عدةُ ملايين من الاجرام السماوية والشُهب الثابتة، كما يقول (غرسي مورسِن) مؤلف كتاب (سرُّ الخَلْق): «ولم تَعُدِ الارض صالحةً للحياة»(٢).* * *

ويشير في الآية الثانية عشرة والاخيرة الى خاصِية اخرى من خصائص السماوات، وهي من المعجزات العلمية للقرآن الكريم اذ يقول: (اللهُ الَّذي رَفَعَ

---

(١) النجوم للجميع ص ٧٤.(٢) سرُ خلق الانسان ص ٣٤.

السَّمــواتِ بِغَيْرِ عَمَد تَرَوْنَهــا).ويبرهنُ هذا التعبير على أنَّ للسمــوات عموداً إلا أنّهُ غيرُ قابل للرؤيةِ، فهو عمود غيرُ مرئيٍّ، فايُّ شيء يمكنُ أنْ يكونَ هذا العمود سوى توازن قانون «الجذب» و «الطرد»، أي «القوة الطاردة المركزية»؟ أجَلْ ان تعادل الجذب والطرد هذا هو عمود قويٌ بحيث يرفع جميعَ كُرات المنظومة الشمسية وبقية المنظومات في مداراتها بأَحكام، مع أنّه غيرُ مرئيٍّ، كما ويمنع تساقطها على بعضها، أو الابتعاد عن بعضها فيختَلُّ نظامُها.وينغي الانتباه الى ان (عَمَدْ) (على وزن صَمَدْ) اسمُ جمع من مادة «عمود»، ولو اراد القرآن ان يقول: «انَّ السماءَ مرفوعة بلا عمود»، لكان يكفي أن يقول: (رَفَعَ السَّمــواتِ بِغَيرِ عَمَد)، إلا انَّ اضافة عبارة (تَرَوْنَها) يُدلُ على ان المقصود هو نفي الاعمدة المرئية، ويستلزمُ ذلك اثبات العمود اللامرئي.لذلك نقرأ في الحديث المشهور عن الامام الرضا((عليه السلام)) حيث كان يتحدث الى بعض الجهلاء الذين كانوا يقولون: انَّ السماء بلا عمود، فقال الامام((عليه السلام)): (سبحان الله أليسَ اللهُ يقول بغير عَمَد تَرَونَها)، ويجيب ذلك الشخص

بنعم، فيقول الامام((عليه السلام)) مباشرة: (ثَمَّ عَمدٌ ولكن لا تَرَوْنَها)(١).وقد رُوي هذا المعنى بتعبير «عمود من نور» في حديث شيِّق لأمير المؤمنين((عليه السلام)) حيث يقول: (هذه النجوم التي فى السماء مدائنُ مثل المدائن التي في الارض مربوطةٌ كلُّ مدينة الى عمود من نور)(٢).والذى يثير الانتباه هنا هو بالرغم من انَّ قانون الجذب والطرد لم يكن مذكوراً في تفاسير القدماء والسالفين، فانَّ منهم فسَّر الآية كما ذكرنا آنفاً، حيث قال بوجود عمود غير منظور للسماء، بالرغم من إنَّ البعض عبَّر عن هذا العمود غير المنظور

---

(١) تفسير البرهان ج ٢ ص ٢٧٨.(٢) بحار الانوار ج ٥٥ ص ٩١ / البحار ج ٥٨ ص ٩١ / القرطبي ج٩ ص٢٧٩.

بقدرةِ الله(١).* * *

النتيجة:

مع انّ الآيات المتعلقة بخلق السموات والارض في القرآن الكريم ليست محصورةً بما اوردناه آنفاً، واذا تقررَ أنّ تُبحثَ كموضوع مستقل تحت عنوان (السماء والارض في القرآن الكريم) فانها تؤلّف كتاباً مستقلا(٢)، إلاّ اننا اقتطفنا هذه الآيات الاثنتي عشرة من بينها واوردناها، ومن المستطاع ان يفتَح هذا البحث ــأي بحث معرفة الله وآيات وجوده في هذا العالم الكبيرــ الطريق امامنا، ويوضح لنا بأنَّ في هذا الخلق العظيم دلائل وافرة للسائرين في طريق الله، يُمكنهم من خلال التمعن في هذا الكتاب العظيم المليء بالاسرار أَنْ يزدادوا قُرباً منه، وتُملأ اوعيةُ قلوبهم وأنفسهم من حُبِّهِ اكثر فاكثر، فيرددون هذا الكلام القرآني بأستمرار (رَبَّنا مــا خَلَقْتَ هذا باطِلا)!.

.

توضيحات:

١ ــ عَظَمَةُ ووُسَعَةُ السمــوات:

لا عِلْمَ لأحد بحدود سعةِ وامتدادِ السماوات، فانَّ علَمنا بمقدار تطور علم

(١) مجمع البيان ج ٥ ص ٢٤٧، روح المعاني ج ١٣ ص ٧٨، تفسير الرازي ج ١٨ ص٢٣٢، والقرطبي ج ٥ ص ٣٥٠٨.
(٢) في القرآن الكريم ذُكرت «السماء» اكثر من ثلاثمائة مرة بصيغة مفردة أو جمع (السمـــوات).

[١٦٧]

ومعرفة الانسان، فقد تعاظمت السموات في نظره، أي انّهُ اكتشف ابعاداً جديدة عنها، وتقول آخر معلومات علماء الفلك بهذا الخصوص:«انَّ منظومتنا الشمسية ترتبط بـــ «درب التبانة» التي هي في الواقع احدى المجرات. وقد توصلَ العلماء في بحوثهم الى انها تتألف من مائةِ مليارد نجمة احداها شمسنا هذه والتي تُعتبر اوسطها حجماً (لا تَنْسَى ان الشمس اكبر من الارض باكثر من مليون مرة)، واذا ضَربنا هذا العدد بمائة تصبح النتيجة مائة مليون مليار، أي ان حجم مجموع كرات هذه المجرة يعادل الكرة الارضية بهذا المقدار!.واذا اضفنا هذا العدد الى العدد الذي اكتشفه العلماء في هذا العالم وفقاً لبحوثهم، وهو مليار مجرّة على الاقل، يقفُ العقل والعلم البشري متحيراً امام عظمة الاَله الذي خلقَ هذا العالم اللامتناهي. (تفحصوا الارقام اعلاه وتفكَّروا في عظمتها).علماً ان هذه الاعداد والارقام هي ضمن حدود علم واطلاع البشر في الوقت الحاضر، وليس واضحاً ما سيُكتَشَفُ من معالم جديدة فى المستقبل.وهناك شهادةٌ لطيفةٌ جداً لمرصد (بالومار) بخصوص عظمة السماوات حيث يقول:في الوقت الذى لم تتم صناعة عدسة مرصد (بالومار) العملاق لم تكن سعة الدنيا حسب علمنا اكثر من٥٠٠ سنة ضوئية (والمقصود من السنة الضوئية هو مقدار المسافة التي يقطعا الضوء بسرعةِ ثلاثمائة الف كيلو متر فى الثانية خلال سنة واحدة، وثلاثمائة الف كيلو متر في الثانية تعني الدوران حول الارض سبع مرات خلال طرفة عين).ولكن هذه العدسة ضاعفت دنيانا الى الف مليون سنة ضوئية، وفي النتيجة تم اكتشاف الملايين من المجرّات الجديدة، حيث يبعدُ بعضها عنّا مليار سنة ضوئية، ولكن هناك فضاءاً عظيماً مهيباً ومظلماً بحيث لم يُرَ شيء من خلاله ابداً ويبعد الف مليون سنة ضوئية... اَلاّ ان مما لا شك فيه وجود مئات الملايين من

[١٦٨]

المجرّات فى ذلك الفضاء المهيب المظلم حيثُ تُصانُ الدنيا من خلال جاذبية تلك المجرّات، ويُعتقد انَّ هذه الدنيا العظيمة التي نراها ليست سوى ذرة صغيرة متناهية من عالم اعظمْ، ولسنا نقطع بعدم وجود عالم آخر في مكان آخر من الدنيا!(١).* * *

٢ ــ الدّقة العجيبةُ في القوانين التي تحكمُ السماءَ والارض:

من المعروف انه كلما تعاظمت الموجودات فلابد أنْ تتضاءل دقة القوانين السائدة فيها، بينما لا يصدقُ هذا المعنى على هذا العالم الشاسع ابداً، أي انه مع عظمته وسعته العجيبة واثارته للجدل، فهو ذو انظمة دقيقة وظريفة، ومن اجل ادراك هذه الحقيقة يكفينا الالتفات الى المسائل الآتية:أ ــ نحن نعلم انَّ الانسانَ قد افلحَ في نهاية المطاف أنْ يُنزلَ سفينة الفضاء بطاقم يتألف من شخصين في النقطةِ التي حدّدها العلماء فى كوكب القمر، ثم عادا الى الارض (تأمل جيداً..) فعلى مدى الايام الثلاثة التي قضتها السفينةُ فى قطع المسافة بين الارض والقمر، كانت الارض تدور حول نفسها وتغيرُ مكانها في السماء حول الشمس، وكوكبُ القمر كان يدور حول نفسه وحول الارض ايضاً، فكم يجب ان تكون هذه الحركات مُنظمةً ودقيقةً ومحبوكة وثابتة يستطيع العلماء أن يحسبوا حسابَ هذه الحركات ويقدّروها من خلال العقول الالكترونية حتى تحط سفينةُ الفضاء في المكان الذي حددوه على نحو كوكب القمر، ومِنْ ثمَّ المكان الذي عيّنوهُ لعودتها الى كوكب الارض؟ فاذا اختلفت احدى هذه الحركات وتداخلت فيما بينها ونقصت او ازدادت مقدار ثانية واحدة فمن المسلَّم به ان حسابات العلماء سترتبك ويبقى عملهم عقيماً.اَجَلْ.. ان نظام عالم الوجود الدقيق هو الذي يمنح الانسان فرصةَ القيام بمثل هذا العمل، أي الهبوط على سطح كوكب القمر وفي المكان الذي حددهُ.

---

(١) مجلة الفضاء العدد ٥٦ فروردين ١٣٥١.

* * *

٣ ــ السموات السبع:

مايلفت النظر هو ان الحديث عن (السموات السبع) ورد فى سبع آيات من القرآن الكريم(١).

---

(١) البقرة ٢٩، الاسراء ٤٤، المؤمنون ٨٦، فصلت ١٢، الطلاق ١٢، الملك ٣، نوح١٥ (واشيرَ فى آيتين (المؤمنون ١٧ ــ النبأ١٢) الى (سبع طرائق) وسبعاً شداداً ايضاً حيث يمكن ان يكونا اشارة الى السموات السبع ايضاً.

وتمت الاشارة في احدى هذه الآيات الى طبقات الارض السبع ايضاً، حيث يقول تعالى: (اللهُ الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمــوات وَمِنَ الاَرْضِ مِثْلَهُنَّ)(١).ومن بين جميع التفاسير المختلفة التي ذُكرت عن السموات السبع، يظهر ان التفسير الصحيح هو إنَّ المقصود من «السموات السبع» هو المعنى الحقيقي للسموات السبع، أي انَّ السماء لا تعني الكرات، بل مجموعة النجوم والكواكب في العالم العلوي، والمقصود من العدد (سبعة) هو الرقم المعروف، وليس هو للكثرة.اَنَّه ما يظهر من الآيات الاخرى هو انَّ كل ما نراهُ من نجوم ثابتة، وسيّارة، ومجرّات، وسُحُب يتعلق (بالمجموعة السماوية الاولى) وعليه فهناك ست مجاميع عظيمة اخرى (ست سموات) تلي هذه المجموعة العظيمة، حيث ان بعضها اكبر من البعض الآخر، وتلك خارجةٌ عن متناول علم الانسان (لحد الآن على الاقل).نقرأ في الآية٦ من سورة الصافات: (اَنّا زَيَّنّــا السَّمــاءَ الدُّنيا بِزِيْنَة الْكَواكِبِ).وجاء فى الآية ١٢ من سورة فُصلت: (وزيَّنّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيْحَ).وورد هذا المعنى ايضاً باختلاف طفيف في الآية الخامسة من سورة المُلك.والجدير بالذكر انَّ المرحوم العلامة المجلسي قد ذكر هذا الاحتمال كأحد التفاسير لهذه الآية اذ يقول: «الثالث: ما خطر بالبال القاصر، وهو ان تكون جميع الافلاك الثمانية التي اثبتوها لجميع الكواكب فلكاً واحداً مسمى بالسماء الدنيا»(٢).صحيحٌ أنَّ معداتنا العلمية الحديثة ثم تكشف استار عن العوالم الستة الاخرى غير أنه ليس هنالك من دليل ينفيها من الناحية العلمية ايضاً، ويحتمل ان يكشف النقاب عن هذا السر في المستقبل.

---

(١) الطلاق الآية: ١٢.

(٢) بحار الانوار ج ٥٨ ص ٧٨.

بل يظهر من اكتشافات بعض علماء الفلك انَّ هناك الآن براهين تلوح في الافق عن وجود عوالم اخرى شبيهة لما نقلناه آنفاً عن مرصد (بالومار) الشهير فيما يتعلق بعظمة العالم، ونكرر الجملة التي تشهد على كلامنا هذا «تم اكتشاف الملايين من المجرّات الجديدة حيث يبعد بعضها عنّا مليار سنة ضوئية، لكن هناك فضاءً عظيماً مَهيباً ومظلماً لم يُرَ أيُّ شيء من خلاله ابداً ويبعد مسافة مليار سنة ضوئية، إلاّ انَّ مما لا شك فيه وجود مئات الملايين من المجرّات فى ذلك الفضاء المهيب المظلم، حيثُ تصانُ الدنيا من خلال جاذبية تلك المجرّات، ويُعتقد انَّ هذه الدنيا العظيمة التي نراها ليست سوى ذرّة صغيرة متناهية من عالم أعظمْ، ولسنا نقطعُ

بعدمِ وجود عالم آخر فى مكان آخر من الدنيا»(١).يقول أحدُ العلماء في مقال كتبهُ حول عظمة عالم الوجود، بعد ذكر المسافات الهائلة والمذهلة للمجرّات، وبيان الارقام المدهشة المحددة طبقاً الى السنةِ الضوئية ما يأتي:«لا زال المنجمّون يعتقدون انهم لم يقطعوا سوى منتصف طريق ما يُمكنُ رؤيتُهُ من العالم العظيم، ولا زال عليهم اكتشاف فضاءات أُخَر غير مكتشفة»(٢).

وعليه فان العوالمالتي تكشَّفت للبشر لحد الآن مع عظمتها ما هي إلا زاوية صغيرة من هذا العالم الكبير، وتصلح للمطابقة مع مسألة السموات السبع(٣).* * *

٤ ــ لِمَ لا تنظرون الى السماء؟!

إنَّ كثرة ووفرة آيات الله في عرض السموات، وجمال السماء في الليل، دَفَعَ

---

(١) مجلة الفضاء العدد ٥٦ فروردين ١٣٥١.(٢) مجلة (نيوز ويك) السنة ١٩٦٤ (لا ينبغي ان ننسى إنَّ هذه الشهادة تعود الى ما قبل٢٤ سنة).(٣) من اجل المزيد من الايضاح حول التفاسير المختلفة التي ذكرت فيما يخص السموات السبع، يُراجع التفسير الامثل (ج ١ الآية ٢٩ من سورة البقرة).

القرآن الكريم والاحاديث الى دعوة الناس باسرهم وخص المؤمنين منهم الى التفكُّر في السموات من اجل كسب المزيد من الايمان، فيقول القرآن الكريم فى الآية٦ من سورة ق: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوْا إلى السَّمـــاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناهـــا وَزَيَّناهـــا وَمالَها مِنْ فُرُوْج)؟!.وقد أمَرت الروايات «المستيقظين في الاسحار» خاصة، أن ينظروا الى السماء أولا حينَ ينهضون «لصلاة الليل»، وأن يقرؤوا الآيات الاخيرة من سورة آل عمران التي تنعكس فيها جميعُ هذه الحقائق بنحو عرفانيٍّ: (إنَّ في خَلْق السَّمـــواتِ وَالاَرْضِ...)ثم يتوجهون نحو العبادة (حيث يمتليء الدعاء بعطر التوحيد ومعرفةالله)(١).ورُويَ ان النبي((صلى الله عليه وآله وسلم)) حينما كان ينهض الى صلاة الليل يبتدأ بالمسواك ثم يلقي نظرةً على السماء، ويردد هذه الآيات(٢).وورد في صفات امير المؤمنين((عليه السلام)) ايضاً عن احد اصحابه ويدعى (حبة العرنيّ) حيث قال: «بينا أنا ونوف (احد اصحاب الامام علي((عليه السلام))) نائمين في رحبة القصر إذ نحن بأمير المؤمنين((عليه السلام)) في بقية من الليل، واضعاً يديه على الحائط شبيه الواله، وهو يقول: (إنَّ في خَلْق السَّماوات وَالاَرْضِ) الى آخر الآية، قال: ثم جعل يقرأ هذه الآيات ويمرّ شبه

الطائر عقله، فقال لي: أراقدٌ انت يا حبّه ام رامق؟ قال: قلت: رامقٌ هذا أنت تعمل هذا العمل فكيف نحن؟ فأرخى عينيه فبكى، ثم قال لي: يا حبّه، إن لله موقفاً ولنا بين يديه موقفا لا يخفى عليه شيء من أعمالنا، يا حبّه ان الله أقرب اليَّ واليك من حبل الوريد، يا حبّه إنه لن يحجبني ولا إياك عن الله شيء....»(٣).

---

(١) مجمع البيان ج ٢ ص ٥٥٤ الآيات الاخيرة من سورة آل عمران.

(٢) مجمع البيان ج ٢ ص ٥٥٤ الآيات الاخيرة من سورة آل عمران.(٣) بحار الانوار ج ٤١ ص ٢٢.

والقمر والنجوم

[١٧٤]

[١٧٥]

تمهيد:

مع أنَّ الشمسَ والقمر تُعدّانِ من كواكب وكرات السَّماء، وقد تم الحديث بشكل منفصل عن عظمة السموات، ولكن لقربهما من كرتنا الارضية فانَّ لهما تأثيرات جمَّة على حياتنا، وقد اشار القرآن الكريم اليهما بشكل خاص، ووصف كلا منهما بآية عظيمة من آيات الله، واشار الى الفوائد الخاصة للنجوم إذ اعتبرها من آيات الله، وانَّ التفحُص في كل منها لا سيما في ظل اكتشافات العصر من الممكن ان يوضح لنا عظمةَ الباري تعالى من جهة وعظمة تعاليم القرآن الكريم من جهة اخرى.وبعد التمهيد المختصر نستمع خاشعين الى الآيات الآتية:١ ــ (هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً والْقَمَرَ نُوْراً وقَدَّرَهُ مَنازلَ لِيَتعلَمُوا عَدَدَ السّنينَ والْحِسابَ مــا خَلَقَ اللهُ ذلكَ إلاّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْم يَعْلَمُوْنَ)(١).٢ ــ (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمــواتِ طِباقاً ــ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيْهِنَّ نُوْراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً)(٢).٣ ــ (وسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ والْقَمَرَ دائبَيْنِ)(٣).٤ ــ (وسَخَّرَ الشَّمسَ والْقَمَرَ كُلٌّ يَجْري لأَجَل مُسَمّىً)(٤).٥ ــ (ومِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا للشَّمْسَ ولا لِلقَمَرِ واسْجُدُوا للهِ الّذي خَلَقَهُنَّ إنْ كُنْتُمْ إيّاهُ تَعْبُدُوْنَ)(٥).

---

(١) (يونس الآية: ٥) .

(٢) (نوح الآية: ١٥ و ١٦).
(٣) (ابراهيم الآية: ٣٣) .
(٤) (فاطر الآية: ١٣) .
(٥) (فُصلت الآية: ٣٧).

٦ ــ (والشَّمْسُ تَجْرِي لمُسْتَقَر لَها ذلكَ تَقْدِيْرُ الْعَزِيْزِ الْعَلِيْم ــ والْقَمَرَ قَدّرناهُ مَنازِلَ حَتّى عادَ كَالْعُرْجُوْنِ الْقَدِيْمِ ــ لا الشَّمْسُ يَنْبَغي لَها أنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ولا اللَّيلُ سابقُ النَّهارِ وكُلٌّ في فَلَك يَسْبَحُوْنَ)(١).٧ ــ (وهُوَ الّذي خَلَقَ اللَّيلَ والنَّهارَ والشَّمْسَ والقَمَرَ كُلٌّ في فَلَك يَسْبَحُوْنَ)(٢).٨ ــ (فَلا أُقْسِمُ بربِّ الْمَشارق والْمَغارب إنّا لَقادِرُوْنَ)(٣)٩ ــ (كَلاّ والقَمَرِ ــ واللَّيْلِ إذْ أدْبَرَ ــ والصُّبْحِ إذا أَسْفَرَ ــ إنَها لاَحْدى الكُبَرِ)(٤).١٠ ــ (وهُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُوْمَ لِتَهْتَدُوا بِهــا في ظُلُماتِ الْبَرِّ والبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنا الآياتِ لِقَوم يَعْلَمُونَ)(٥).****

.

جمع الآيات وتفسيرها:

القَسَمُ بالشمس والقمر والنجوم:بالرغم من ندرةِ معلومات الانسان عن الشمس، والقمر، والنجوم، أو انَ نزولِ هذه الآيات، واختلاطها بكثير من الخرافات (لا سيما في مهد نزول هذه الآيات)، فانَّ القرآن الكريم يتحدث عن الشمس والقَمَرِ والنجومِ بتعظيم عجيب، اَذ تحدَّثَ كثيراً عن صفاتها، فكانَ يصفُها بأنّها آياتُ الله وبراهينُ على ذاته المقدّسة.فيقول تعالى في الآية الاولى التي نبحثها: (هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضياءً والقَمَرَ نُوراً).

---

(١) (يس الآيات: ٣٨ ــ ٤٠) .
(٢) (الانبياء الآية: ٣٣) .
(٣) (المعارج الآية: ٤٠) .
(٤) (المدّثر الآيات: ٣٠ ــ ٣٢)
(٥) (الانعام الآية: ٩٧) .

* * *

وورد هذا المعنى في الآية الثانية بتعبير آخر، فَبَعد أن يُشير الى خلق السموات السبع يضيفُ

قائلا: (وَجَعَلَ القَمَرَ فيهنَّ نوراً وجَعَلَ الشمسَ سراجاً)وعبَّرَ عن الشمس بـــ (السراج) في آيتين اُخريين من القرآن الكريم ايضاً (الفرقان/٦١، النبأ / ١٣)، ونحن نعلمُ انَّ نورَ المصباح ينبعثُ من داخلهِ وليسَ مُكتَسباً من الخارج، وقد جاء في بعض نصوص اللُّغة انَّ الضياءَ اكثر شدةً من النور(١)، ولعلَّ هذا الاختلاف مُستَمَدٌ من الاختلاف الاول ويعود اليه(٢).على ايةِ حال، فقد اُشيرَ هنا وقبل كل شيء الى نور «الشمس» و «القمر» كآيات من آيات الله ومن آلائه جلَّ وعلا.فالشمسُ بضوئها المشرق على الكون لا تقوم بتدفئة وانارة مهد الكائنات في العالم فحسب، بل لها نصيبٌ اساسيٌ في نمو النباتات وحياة الحيوانات.

---

(١) تفسير الكشّاف ج ٢ ص ٣٢٩ ــ وروح البيان ج ٤ ص ١٢.(٢) ينبغي الانتباه الى ان «الضياء» يأتي بصيغة «المفرد» و «الجمع» ايضاً، ويعتقد بعض المفسرين اَنَّ له صيغة الجمع في الآية اعلاه، وانه إشارة لطيفةٌ الى تركيب ضوء الشمس من سبعة الوان.

واليوم قد ثبتت هذه الحقيقة، اَذ انَّ كلَّ حركة تُشاهدُ في الارض هي من بركاتِ ضوء الشمس، فلو فكّرنا بامعان في حركة الرياح، والغيوم وامواج البحار وجريان الانهار، والشلالات، والحيوانات والناس لوجدناها تنبعُ من ضوء الشمس بدون استثناء (فتأمل جيداً).ولو انطفأت الشَّمس وانقطعت هذه الاشعةُ التي تهبُ الحياة عن الارض فسَيَعُمُّ الموتُ والسكوتُ والظلامُ كلَّ مكان خلال فترة قصيرة جداً.كما ان نورُ القمرِ الجميلِ لايعتبر مصباحاً في لياليا الحالكة ودليلا لقاطعي الصحراء ليلا فقط، بل إنَّ نورَهُ اللطيف والمناسب يبعثُ الطمأنينةَ والنشاط في البشر باسرِهم.ويرى بعضُ المزارعين ان (نور القمر) ذو دور حساس في نمو الفواكه والنباتات ايضاً.وطبعاً ان ما كلَّ ماذكرناه يختصُ بنور الشمس والقمر، وسنقوم ببحث ما يخص بقية بركاتهما بشكل مستقل.ثم يشيرُ القرآن الكريم في نهاية هذه الآية الى احدى البركات والفوائد المهمة لهاتين الكرتين السماويتين حيث يضيف (وقدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنينَ وَالْحِسابَ).فالقمرُ بسيرِهِ المنَّظم، وحركته الدقيقة يُعتبر تقويماً واضحاً وحيّاً وطبيعياً للغاية، تَسهُلُ قراءَتُه على العالم والجاهل، ويُنَظِّمُ برامج حياته على اساسهِ، ولو أمعّنا التفكير لوجدنا انَّ مسألة تنظيم حياة الانسان ترتبط بقوة بحساب السنين والشهور ووجودِ تقويم طبيعي، حيث يتكفلُ القمرُ والشمسُ ودوران الارض المنَظَّم حول نفسها وحول الشمس بانجاز هذا الدور، وانَّ التقويمات الحالية التي نُظِّمت استناداً الى حسابات المُنجمِّين لا تنفعُ إلاّ الذين لديهم امكانية فهمها، والتقويم الوحيد المفهوم والمعلوم والمفيد للجميع هو التقويم الطبيعي الذي يتوفر لدينا من حركة القمر، منذ مرحلة (الهلال) وحتى وصوله الى مرحلة (البدر الكامل)، ومن

* * *

والحديث في الآية الرابعة والخامسةِ عن تسخير الشمس والقمر للانسان: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ والْقَمَرَ).بَيْدَ أنَّهُ عبَّر في آية بـــ (دائبَيْن) أي (الحركة وفقاً لسُنَّة ثابتة)(١) وفي الاخرى ورد تعبير (كُلٌّ يَجْري لأَجَل مُسمّىً) أَيْ «انَّ كُلا منهما يستمر في حركته الى حد مُعيَّن».وهذه الجملةُ تشيرُ الى انَّ حركةَ الشمس والقمر ستنتهي على المدى البعيد، ويتغير نظام المنظومة الشمسية بعد ملايين السنين، وهذا بحد ذاته أحد المعجزات العلمية للقرآن الكريم.وفي الحقيقةِ ان المقصود بحركة الشمس هو دوران الارض حول الشمس طبعاً، لأن ما يظهر للعيان ان الشمس هي التي تتحرك، حيث انَّ الارض في الواقع هي التي تُوجدُ هذا الشعور لدى الانسان، اَذ ان الشَّمسَ تتحرك باستمرار مع المنظومةِ الشمسية داخل المجرّات، وسيُشار اليه فيما بعد.والمقصود بتسخير الشمس والقمر وبقية الكائنات التي يعتبرُها القرآن الكريم مسخَّرَةً للانسان، هو إنّها تتحرك في مجال مصالح الانسان وخدمته، فكما قُلنا سابقاً

---

(١) « دائبين » من مادة (دؤوب) وتعني استمرار العمل وفقاً لعادة وسُنَّة دائمة وهو تعبيرٌ للحركة المنظمة والمتَسّعة للشمس والقمر، ولا يُعتقدُ بوجودِ تعبير افضلَ من هذاالتعبير.

اَنَّ لضوءِ الشمس والقمر دوراً مهماً في حياة الانسان وكافة الكائنات الحيّة، لا سيما ضياء الشمس إذ تستحيلُ الحياةُ على سطح الارض بدونه لحظةً واحدةً، وحتى في الليالي المُظلمة فاننا نستفيدُ من الحرارة المتبقية عن ضوة الشمس في الارض والجو ولولاها لانجمدت الكائنات الحيَّةُ بأسرها، اضافةِ الى الفوائد الاخرى كالمدِّ والجَزرِ في المحيطات، فهو مصدرٌ للكثير من الخدمات، وسنشير الى ذلك في بحث آياته في البحار ــ ان شاء الله ــ، وكذلك وضع تقويم طبيعيٌ وخدمات اخرى.وبلا شك فان ما نعرفه اليوم من بركاتِ الشمس والقمر اكثر مما كان يعرفه السالفون والمخاطَبون بهذه الآيات عند نزولها، ولهذا فانَّ دروس التوحيد التي نقرؤها على صفحاتها اكثر مما كان يقرؤه السابقون، لهذا يقول في نهاية هذه الآية: ان ربَّكُم هو الذي سخَّر لكم كلَّ هذه الموجودات، اما الذين تدعونَ من دونه فهم لا يملكون الحكمَ والمُلكَ في هذا العالم قدَرِ قشرةِ نواة التمر (والّذينَ تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِهِ مـــا يَمْلِكُوْنَ مِنْ قِطْمِيْر)(١).* * *

وفي الآية الخامسة يُعبِّرُ بصراحة عن خلق الليل والنهار والشمس والقمر بأنَّها من آياته، اَلا

أنَّهُ يأمُرُ في نفس الوقت بضرورة عدم الاعتقاد بانَّ هذه هي الإله كما يتصور عبدة الشمس والقمر.. كلا.. (لا تَسْجُدُوْا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ واسْجُدُوا لِلّهِ الّذي خَلَقَهُنَّ اَنْ كُنْتُمْ إيّاهُ تَعْبُدُوْنَ).فأيُّ دقة يتكلمُ بها القرآن الكريم؟ اَذ من الممكن ان يتركَ عَدُّ البركات المختلفةِ للشمس والقمر والليل والنهار وبقية الموجودات في هذا العالم هذا الأثَر على العقول القاصرة، وَهُوَ إننا مدينونَ الى هذه الموجودات بنعمها، إذن يجب ان نَسْجُدَ لها ونتوسلَ اليها، كما ابتُليَ بذلك الوثنيون على مرِّ التاريخ.

---

(١) القطميرُ، بتعبير بعض المفسِّرين هو القشر الخفيف الذي يغطي نواة التمر، ويقول البعض إنه النتوء الصغير الموجود خلف نواة التمر، وعلى اية حال فهو كنايةٌ عن موجودات متصاغره ودنيئة.

* * *

ويتحدث في الآيتين السادسةِ والسابعةِ عن حركة الشمس والقمر ومنازلهما، ويصرَّحُ في نهاية هاتين الآيتين بأن كلا من هذين الجُرمين يسبح في فلكهِ ومداره وخطه (وَكُلٌّ في فَلَك يَسْبَحُوْنَ)(١)، وهذه التعابير من عجائب القرآن من ناحية، ومن عجائب عالم الخلق وعلمِ وقدرةِ البارى تعالى من ناحية اخرى.وتوجد هنا عدةُ تفاسير لما تَعنيه جملة (والشَّمْسُ تَجْري) ومفهوم (لِمُسْتَقَر لَها).

.

اولها:

اَن المقصودَ هي الحركة الظاهرية للشمس التي تبدأ منذ شروق الشمس وحتى استقرارها عند الغروب، حيث يظهر للعيان أنَها تختفي (ونعلمَ جيداً إنَّ حركة الارض حول نفسها هي التي تُجسدُ لنا مثل هذه الظاهره في الواقع)..

الثاني:

اَنّ المقصود هي حركات الشمس المحورية، حيث تنحرف نحو الجزء الشمالي للكرة الارضية مع بداية فَصل الربيع، وتستمر هذه الحركة حتى بداية فصل الصيف حيث تستقر (في النصف الشمالي للكرة الارضية) محاذية لمدار السرطان (٢٣° شمالا) وهو ما يصطلح عليه بالميل الاعظم الشمالي، ثم تبدأ حركتها نحو الجنوب وتصل الى محاذاة خط الاستواء أوائل فصل الخريف، ثم تنحرف نحو جنوب الكرة الارضية، وتستمر هذه الحركة حتى بداية فصل الشتاء

حيث تصل الى محاذاة مدار رأس الجدي (٢٣° جنوباً) ويعبّرون عن هذا الانحراف بالميل الاعظم الجنوبي، ثم تبدأ حركتها نحو الشمال وتكون بمحاذاة خط الاستواء في فصل الربيع.

---

(١) يسبحون من مادة سباحة ونعني الحركة السريعة في الماء او الهواء (مفردات الراغب).

بناءً على ذلك فانَّ المقصود من جريان الشمس هو هذا الانحراف نحو الشمال والجنوب، والمقصود من المستقر هو آخر نقطة للانحراف الجنوبي والشمالي أي (مدار رأس السرطان ومدار رأس الجدي).والمعروف (طبعاً) اَنّ هذه الحركةَ ناتجةٌ عن دوران الارض حول الشمس ومع الاخذ بنظر الاعتبار انحراف محور الارض بمقدار ٢٣°، ولكن ما يبدو لنا هو انَّ الشمس لها مثل هذه الحركة..

الثالث:

المقصود هو الحركة الموضعية للشمس حول نفسها، فقد ثبت اليوم ان الشمس تدور حول مركزها ايضاً (إذ ذكَرُوا ان مدة هذه الحركة في دورة كاملة تعادل٢٥ يوماً ونصف اليوم)، وفي هذه الحالة ستَكون اللام في (لمستقر لها)بمعنى (في) أي ان الشمس تتحرك في مكانها (وطبعاً فقد اشكَلَ بعض المفسّرين على هذا التفسير باعتباره لا يتناسب مع مفهوم كلمة جريان)..

الرابع:

المقصود هو حركة الشمس في ابراج السماء على مدى اشهر السنة، والتي تقابل في كل شهر أحد هذه الصور الفلكية الاثنا عشر ومن هنا تظهر السنة باثنتي عشر شهراً هذه الابراج(١)، وعليه فانَّ المقصود من المستقر هو نهاية هذه الدورة..

الخامس والسادس:

الحركتين اللتين اكتشفهما العلماء مؤخراً للشمس، احدها مع مجموعة المنظومة الشمسية في دورتها حول مجرتنا التي تأخذها باتجاه أحدى الصور الفلكية المعروفة بـــ (صورة الجاثي) الواقعة شمالا بالنسبة للشمس، إذ تقطع اثناء هذه الحركة اكثر من (٦٠٠ مليون كم سنوياً) وهذا ما يشبه تماماً جلوس مجموعة في طائرة وانشغالهم بالدوران حول مركز واحد بينما

تسير الطائرة بسرعة نحو اتجاه ما، وقد تكون حركةُ الطائرة هادئةَ وخفيفة بالقدر الذي لا يحس الانسان

---

(١) المقصود من «البرج» هنا مجموعة النجوم المتجمّعة والتي تكوِّنُ شكلا خاصاً، والابراج الاثنا عشر كما يلي: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والاسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت.

بهذه الحركة السريعة.والحركة الاخرى هي دوران المنظومة الشمسية مع بقية المجرّات حول المركز الاصلي لهذه المجرّات التي نرتبط بها، ومما يثير العجب فقد ذكروا انَّ سرعة هذه الحركة المذهلة تقدر بـــ٩٠٠ الف كيلو متر في الساعة (بل اكثر من ذلك قليلا)(١).وطبقاً لهذا التفسير فانَّ المقصود من المستقر هو المستقر الذي تبلغه الشمس عند نهاية العالم وحلول القيامة، حينها تصبح الشمس بلا ضياء ويزول نظامها.و (طبعاً) لا تتعارض هذه التفاسير مع بعضها، فيمكن ان تجتمع كلُ هذه التفاسير الستة في مفهوم هذه الآية، لأن حركة كل من الارض والشمس ليست نوعاً واحداً.وتعبير (يُسبِّحون) تَعبيرٌ لطيفٌ حيث يعبّر عن حركة الشمس والقمر السريعة والرقيقة والمتوازنة في نفس الوقت.وذكر في الآيات اعلاه منازل معينة للقمر حيث قال: (والقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِل).والمقصود تلك المنازل الثمانية والعشرون التي يطويها القمر كل شهر منذ بداية مرحلة الهلال وحتى المحاق (الظلام المطلق)، وفي الليلة الثامنة والعشرين يظهر ثانيةً على هيئة هلال اصفر رفيع جداً وقليل الاشعاع والنور ويبقى ليلتين حيث يقال له (محاق) اذ تتعذر رؤيتُه.ويشبِّهُ القرآنُ الكريمُ هلال آخر الشهر بـــ (العَرجَوُنَ القَدَيمْ)(٢)، وهذا التعبيرُ لطيفٌ وجذّاب للغاية من عدة وجوه.ونختتم هذا البحث الذي قد طال بعض الشيء بذكر هاتين المسألتين:

---

(١) راجعوا كتاب العوالم البعيدة ص ٢٩٣، وتسخير النجوم ص٣٩٢.(٢) «العرجون» من مادة «انعراج» أي الاعوجاج والانحناء، ويصفه البعض بذلك القسم من القرن المقوَّس الذي يتبقى على النخل بعد قطف التمر، و «القديم» تعني العتيق.

* * *

وورد في الآيتين الثامنة والتاسعةِ أَيْمَانٌ تَبعثُ على التأمل فيقول في احداهما: (فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ

المَشارِق والمَغارِب)، فيمكن ان يكون هذا التعبير اشارة الى المشارق والمغارب و «المكانية» المختلفة، لانَّ كروية الارض تؤدي الى وجود مشرق ومغرب بعدد نقاط سطح الارض، أو أن يكون اشارة الى المشارق والمغارب «الزمانية»، لاننا نعلم ان حركةَ الارض حول الشمس تؤدي الى استحالةِ شروق الشمس وغروبها من نقطة واحدة خلال يومين متتاليين.هذا الاختلافُ في المشارق والمغارب الذي يتم من خلال نظام دقيق ومنهجي سبّب في حدوث «الفصول الاربعة» بما فيها من بركاتٍ من جهة، ومن جهة

اخرى فهو يؤدي الى موازنة الحرارة والبرودةِ والرطوبةِ على سطح الارض، ويمنحُ حياةَ الانسانِ والحيوانات والنباتات نظاماً وترتيباً، وكلٌ منها آية من آيات الله وبرهان من براهينه.وفي مكان آخر يُقسمُ بالقمر (كَلاّ وَالقَمرِ والليلِ إذا اَدْبرَ والصُّبحِ إذا اسْفرَ) ثم يضيف: اَنَّ هذه الأَيْمانُ تُنبيءُ عن تحذير في أمر المعاد فيقول: «إنَّ أحداثَ القيامةِ وجهنَّم من عظيمات الامور (إنّها لأحْدى الكُبَرِ)»(١).* * *

وجاءت الآية العاشرة الاخيرة بالحديث عن نعمةِ وجود النجوم والنظام الدقيق الذي يحكمها فيقول: (وَهُوَ اَلّذي جَعَلَ لَكُمْ النجُومَ لِتَهتَدوُا بِهـا في ظُلُمـاتَ البَرِ وَالبَحرْ) ثم يضيفَ: (قَدْ فصَّلْنا الآيـاتِ لَقَوم يَعْلَمُون).

---

(١) يقول الفخر الرازي: إنَّ جهنَّم لها سبع مقامات ودركات وهي كما يلي، جهنَّم، ولظى، والحطمة، والسعير، وسقر، والجحيم، والهاوية (ج٣٠ص٢٠٩).

لقد كانت النجوم دائماً وعلى مدى مراحل التاريخ من اهم وسائل ارشاد الانسان في الليالي المظلمة، حيث ينجو بمساعدتها في اسفاره البحرية والبرّية، حتى انَّ بعض العلماء يظنون انَّ الطيور المهاجرة، أي الطيور التي تقطع آلاف الكيلو مترات في السنة احياناً، وبعضُها يستمر في طيرانه ليلا ونهاراً بلا توقف، تحدد طريقها نهاراً عن طريق الشمس، وليلا عن طريق نجوم السماء، ولهذا فانها تتوقف مؤقتاً اذا كان الجو غائماً تماماً حتى تنكشفَ الغيوم وتظهر السماء والنجوم!والعجب امكانية تحديد فصول السنة ايضاً من خلال النجوم.على أيّةِ حال، فانَّ هذه الآية تُلفتُ نظرَ كلِّ المفكِّرين الى هذه المسألةِ وهي ان حركة النجومِ في السماء واستقرارها في هذا الميدان العظيم تتمتع بنظام وحساب خاص، وإلاّ لما استطاعَ أيُّ أحد العثور على طريقهِ في ظلمة الليل من دونها.وهذا النظام يدل على أنَّ الخالق المدبِّر قد خطَّطَ له بكل حكمة، ولهذا فانَّ

النظام السائد على نجوم السماء يُحررنا من ظلماتِ الشرك والكفر ايضاً!.ومع تطور علم الفَلَكْ، فقد افلحَ العلماء في تقدير سرعة الكثير من كواكب السماء، وحجمها ومسافاتها وبقية خصائصها، وتوصلوا عن هذا الطريق الى حقائق جديدة عن هذا النظام العظيم.صحيحٌ قدتم اختراعُ آلاتِ ووسائلَ دقيقة يستطيعُ الانسانُ بمساعدتها أن يعثرَ على طريقة في البر والبحر، ولكن لا ينبغي نسيانُ عدم امكانية استخدام جميع المسافرين لهذه الوسائل العلمية المتنوعة، اضافة الى حدوث الخلل في هذه المعدات والآلات الدقيقة احياناً مما يسبب الانحراف عن الطريق، فاذا كان الانسانُ مطلعاً على مواقع ومواضع النجوم يستطيعُ من خلال ذلك إصلاح اخطاء هذه المعدات.ورد في بعض الروايات تفسيرٌ آخرٌ لهذه الآية عن اهل البيت((عليهم السلام)) يمكنُ أن يُعدَّ جزءً من المعاني الباطنيةِ والثانويةِ لهذه الآية، وذلك ان المقصود من «النجوم» هم القادةُ الربانيّون والائمة المعصومون الذين ينجو الناسُ بهم من ظلمات الحياة كما

ورد في تفسير علي بن ابراهيم في بيان معنى الآية (وَهُوَ الّذي جَعَلَ لَكُمُ النُّجومَ لِتَهْتَدُوا بِهـا في ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) حيث قال: «النجوم هم آل محمد»(١)، و * * *

توضيحات:

١ ــ هوية الشمس:

لقد أتَضح لنا اليوم تقريباً ان الشمسَ عبارة عن كرة، وانها اكبر من الارض بمليون وثلاثمائة الف مرة، أي لو كانت الشمس مقعَّرةَ الوسط لكان من الممكن أن تستوعب مليوناً وثلاثمائة الف كرة ارضية! وتتضح هذه العظمة المذهلة من خلال التأمل في قُطر الشمس عند الوسط الذي يقرب من (مليون واربعمائة الف كيلو متر).وتبلغ الفاصلةِ بيننا وبينها١٥٠ مليون كيلومتراً تقريباً، وانَّ نورها الذي يقطعُ طريقهُ بسرعةِ٣٠٠ الف كيلومتر في الثانية يصل الينا خلال٨ دقائق تقريباً.ان جُرمَ الشمس العظيم يؤدي الى زيادة وزن الاشياء فيها، فمثلا إنَّ الانسان الذي يبلغُ وزنُه ٦٠ كيلوغراماً على سطع الارض سيكون وزنه ١٥٠٠ كغم فيما اذا كان على سطح الشمس!.لقد قدَّر العلماء وزن الشمس بما يعادل:

٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ طن.واخيراً فهُم يُقدِّرون عمر الشمس منذ تكونها بشكلها الحالي بما يقارب٥ مليارات سنة.إنَّ للشمس ثلاثة انواع من الحركة تقريباً، فحركةٌ حول نفسها (كلَّ٢٥ يوماً مرّة

---

(١) تفسير نور الثقلين ج ١ ص ٧٥٠ ج ٢٠٣ .

واحدة تقريباً، وحركةٌ مع المنظومةِ الشمسية في قلب المجرّات نحو الصورة الفلكية (الجاثي) حيث تبتعد عن مكانها اكثر من٦٠٠ كم كل ساعة، وحركةٌ حول مركز المجرّات، وتدور حول هذا المركز خلال هذه الحركة مرّة واحدة كل٢٥٠ مليون سنة.أَما حرارةُ سطح ومركز الشمس فهي عجيبةٌ للغاية، وتُبينُ حسابات العلماء انَّ حرارة سطح الشمس تعادل ٦٠٠٠ سانتغراد تقريباً، ولا تحصل هذه الحرارة على الارض في أيِّ مختبر أو فرن أبداً، ودليلُ ذلك واضحٌ جداً لأنَّ جميع المواد بطيئة الذوبان التي نعرفها والتي يمكن بناء فرن منها لا تذوب في مثل هذه الحرارة فقط، بل تصبحُ بخاراً، ولهذا فانَّ جميع المواد الموجودة على سطح الشمس ذائبةٌ على هيئة بخار.والأعجبُ من ذلك حرارةُ عمقها التي تبلغُ٢ مليون درجة سانتِغراد! وتندلعُ من سطح الشمس السنةُ نيرانٌ يبلغُ ارتفاعها احياناً١٦٠ الف كم، ومن السهولة ان تضبع الكرةُ الارضية فيها (لان قطر الارض ليس اكثر من١٢ ألف كيلو متر).انَّ هذه الحرارة لا تحصل بسبب

الاحتراق، وإلاّ لو كانَ جرم الشمس قد صُنِعَ من الفحم الحجري الخالص لانتهت تماماً على مدى عدةِ آلاف من السنين كما يقول «جورج غاموف» في كتاب «تكوُّن وموت الشمس»، ولا يبقى شيء سوى الرَّماد. فالحقيقة ان مفهوم الاحتراق لا يصدقُ بخصوص الشمس وما يصدقُ هو الطاقة الناتجة عن الانشطار النووي، ولكن بهذا الحال وطبقاً للحسابات العلمية فانَّ كلَّ ثانية تمرُّ على الشمس ينقصُ من وزنها ٤ ملايين طن، أي إنَّ هذا المقدار من ذراتها يتحول الى طاقة، فبالرغم من انَّ هذا الأمر ليس له تأثيرٌ على المدى القريب، إلاّ انّه من المسلَّم به سيساعدُ في فناءِ الشمس على المدى البعيد، وهذا ما صرَّحَ به القرآن الكريم في آياته، حيث سيأتي اليوم الذي ينطفيءُ هذا المصباح السماوي العظيم المنير(١).

---

(١) اقتباس من كتب ١ ــ (تركيبات الشمس)، ٢ ــ (نجوم بلا منظار)، ٣ ــ (تكوُّن وموت الشمس)، ٤ ــ (تاريخ العلوم)، ٥ ــ (من العوالم البعيدة)، ٦ ــ (الاسلام والهيئة).

* * *

٢ ــ البركات العظيمة للشمس:

مهما تحدثنا حول فوائد وجود هذا النجم السماوي وتأثيره البالغ على حياة الانسان وبقية موجودات الارض، فأننا نكون مقصرّين، وفي الحقيقة يمكنُ تأليف كتاب كبير في هذا المجال يتسلسل كما يلي:١ ــ انَّ جاذبيةَ الشمس تؤدي الى ان استمرار الارض في دورانها في مدارها الثابت وإلاّ لسقطت في إحدى زوايا هذا الفضاء اللا متناهي ككُرة مضطربة.٢ ــ ان الحرارة الصادرة عن الشمس التي تُشرقُ نهاراً مباشرةً وتعود ليلا على هيئةِ احتياطيٍّ في الاجسام التي على سطح الارض تساعدُ على نمو النباتات وديمومةِ حركة وحياة الحيوانات.إنَّ الشمسَ تَضعُ في خدمة الانسان نوراً سليماً ومجانياً وغَير حار او مُحرق ولا بارد وخال من الأثر، بشكل دائم، واذا قارنّا قيمة الطاقة الناتجة عن الشمس مع قيمة مصادر الطاقة الاخرى فلابد أنْ تدفعَ البشرية اموالا عِوَضاً عن النور والحرارة التي تستلمها من الشمس مقارنةً مع ثمن «الكهرباء» (ملياراً و ٧٠٠ ألف دولار كل ساعة).عندئذ يجب ان نفكِّرَ كم ستكون هذه الميزانية على مدى سنة كاملة؟وبتعبير آخر، لو أرادَ أهلُ الارض تأمين الحرارة التي تمنحُها إياهم الشمس، عن طريق شراء الفحم الحجري فيجب عليهم توفير ٦١ الف مليار طن منه سنوياً، او

بعبارة اخرى توفير ٢٠ ألف طن لكل شخص، أيٌّ تأمين ميزانيةِ باهضة.٣ ــ نحنُ نعلمُ انَّ ضوء الشمس يتركبُ من٧ ألوان مُزجت مع بعضها وظهرت على هيئة هذا النور الابيض والشعاع الحالي، وهذا النورُ يُعتَبرُ عاملا مساعداً

[١٩٠]

للنباتات حيثُ يمتصُ غاز ثاني اوكسيد الكاربون من الجو ويطرحُ في المقابل غاز الاوكسجين الذي هو عِمادُ حياتنا، فهو يساعد النباتات في نموها بسحب ثاني اوكسيد الكاربون.ونحنُ نميزُ الاشياء حسب العادةِ عن طريق الوانها، وهذه الالوان تحصلُ في شعاع الشمس، لأنَّ كلَّ موجود يقوم وحسب تكوينه بامتصاص جانب من الوان الشمس فنطلقُ على اللون الذي لم يُسحبْ لونَ الشيء، أي انَّ الورق الاخضر للنباتات يمتص جميع الوان الشمس عدا اللون الاخضر، إذن فنورُ الشمس هو الذي يُظهرُ جميع الالوان.٤ ــ إنَّ الاشعةَ فوق البنفسجية والتي هي من اشعاعات الشمس تُفيدُ في القضاء على٩٠% من الجراثيم، وتقوم بدورِ منعِ التعفن بنجو تام، ولولاها لتبدَّلت الارضُ الى مستشفىً كبير، ولعلَّ أشعة الشمس اعتبرت لهذا السبب من المطهرّات في الاسلام «مع شروط خاصة طبعاً».٥ ــ لقد استطاعَ العلماءُ من خلال استخدامهم للعدسات المحدبة الفخمة من توليد حرارة هائلة بامكانها تشغيل المصانع المهمة، ولعل الكثير من المؤسسات الصناعية الحسّاسة سيتم تَشغيلها في المستقبل القريب بالاستفادة من نور الشمس، وتحلُّ الطاقةُ الشمسية عندئذ محلَّ الكهرباء في البيوت.٦ ــ إنَّ تكوُّنَ الغيوم نتيجةً لاشعةِ الشمس على المحيطات وهبوب الرياح نتيجةً لاختلاف درجات الحرارة على الارض بسبب اشعة الشمس، ثم حركة الغيوم نحو اليابسة وهطول الامطار التي تبعث الحياة، هي احدى الفوائد المهمة للغاية لنور وحرارة الشمس.٧ ــ انَّ حركة الشمس المنظمة في ابراج السماء (الصور الفلكية) وشروقها وغروبها المنهجي الّذي يجري بنظام وتعاقب دقيق ومحسوب على مدى أيام السنة، اضافة الى مساعدتها في تكوين الفصول المتعددة، فهي تساعد في ايجاد

[١٩١]

تقويم وحساب منظم للزمان الضروري جداً للحياة الاجتماعية للبشر(١).* * *

٣ ــ القمر وبركاته:

إنَّ القمر كوكبٌ صغيرٌ نسبياً فهو اصغر من الارض بـــ(٤٩ مرَّة) وفقاً لحسابات العلماء، لهذا فانَّ قوة جاذبيته تعادل ١ ٦ قوة جاذبية الارض، ومتوسط بُعده عن الارض اكثر من٣٨٤ الف كيلومتر، لذلك فانَّ نور القمر يصل الينا خلال اكثر من ثانية واحدة بقليل.وتَبلغ سرعةُ حركته في دورته حول الارض كيلو متراً واحداً في الثانية، ويدور حول الارض مرة واحدة على مدى شهر قمريٍّ واحد أي «اكثر من٢٩ يوماً بقليل»، ويدور حول نفسه ايضاً مرةً واحدةً خلال نفس هذه الفترة، وبما انَّ هاتين الحركتين متناسقتَين فانَّ جانب القمر الذي يقابل الارض يكون ثابتاً على الدوام، ولا عجبَ اذا قُلنا انَّ نورَ القمر حين اكتمالهِ ليلة البدر أقلُ من ضوء الشمس بـــ(٤٦٠) ألف مرة، إلاّ ان هذا النور الضئيل يضيء الليالي المقمرة، ويظهر كمصباح جميل كثيف الشعاع ومُريح للفؤاد وبمنظر شاعريٍّ محبَّب.ولم تكن الاشارة الى القمر في الآيات السابقةِ فقط، فقد تمت الاشارة الى القمر وبركاته وفوائده في آيات كثيرة من القرآن الكريم، ووردَ القَسَمُ به في آيات اخرى ايضاً، وجاء الحديث عن «القمر» في ما مجموعه «٢٧» آية من القرآن الكريم، واُشيرَ الى تسخير القمر في سبع آيات من هذه الآيات التي تُبيِّنُ اهمية

---

(١) فكما قلنا انَّ السبب الرئيسي لحصول هذه الامور هو في الواقع دوران الارض حول الشمس، ولكن بما انَّ حركة الشمس هي التي تُرى كسبب لهذا حسب الظاهر، فان القرآن الكريم يعتبر كلا من الشمس والقمر (حسبان) أي (وسيلةً للنظام والحساب)ـــ الانعام٩٦.

فوائده في حياة البشر(١).انَّ فوائد وبركات القمر كثيرةٌ للغاية، حيث نشير هنا الى عدد منها:١ ــ انَّ دوران القمر حول الارض يُشكِّلُ تقويماً طبيعياً لطيفاً، وقد مرَّ شرحُهُ في الابحاث السابقة.٢ ــ انَّ الضياء المناسب الذي يمنحه القمر بالرغم من انه لا يزيل ظلمةَ الليل كُليّاً (ولا ينبغي ان يزيلها لأنَّ نفس الظُلمةِ لها فلسفة مهمة)، ولكن يُمكن ان يساعد الانسان الى حد ما في الكثير من الليالي على اكتشاف طريقه في المدن والصحارى والبحار، لا سيما ان نور القمر مناسبٌ وملائم بحيث لا يزعجُ الانسان والموجودات الاخرى اثناء النوم والراحةِ ليلا، بل يشعر الانسان باطمئنان خاص من خلال نور القمر.٣ ــ انَّ مسألةَ المدِّ والجزر في البحار إحدى الآثار البارزة لوجود القمر، فالذين ذهبوا الى البحار كان بامكانهم ملاحظة هذا الأمر في الليل والنهار حيث يرتفع وينخفض منسوبُ المياه مرتين كل يوم، ويُعبَّرُ عن ذلك بالمد والجَزر، ويستمر كلٌ منهما لمدة٦ ساعات تقريباً.فاثناء المدِّ يرتفعُ منسوبُ المياه ويغطي معظم سواحل البحر، وخلال الجزر تنكشف سواحل البحار.ولهذا المدّ والجزر فوائد مهمة في حياة البشر منها: تراجع مياه الانهار التي تصب المياه العذبة في البحار مما يؤدي الى ري الاراضي

الواسعة عن طريق ذلك كما يشاهد في بساتين النخيل الساحلية الواسعة في خوزستان.ومن الفوائد الاخرى للمد والجزر هي حركة المكائن في المصانع ونشاط الخزانات الكهربائية، وكذلك الإبحار، حيث ان السفن الكبيرة تستطيع خلال المد ان ترسو في معظم السواحل حيث يتم تحميل وتفريغ حمولتها، وتنظيف

---

(١) الاعراف ٥٤، ٢ ــ الرعد ٢، ابراهيم ٣٣، النحل ١٢، لقمان ٢٩، فاطر ١٣، الزمر ٥.

المواني ء، وصيد الاسماك، وتحريك مياه البحر وموازنة حرارته ومركباته ايضاً وامور اخرى(١).* * *

٤ ــ القمر والشمس في كلام الائمة المعصومين ((عليهم السلام)):

عندما تقع عين الامام السجّاد ((عليه السلام)) على القمر فهو يخاطبه، وهذه الكلمات درسٌ في التوحيد ومعرفة الله حيث يقول:(ايها الخلق المطيع! الدائب السريع المتردّد في منازل التقدير المتصرف في فلك التدبير، آمنت بمن نوَّر بك الظلم، وأوضح بك البُهم، وجعلك آية من آيات ملكه، وعلامة من علامات سلطانه... سبحانه ما اعجب ما دبّرَ في أمرك، وألطف ما صنع في شأنك جعلك مفتاح شهر حادث لامر حادث...)(٢).وفي توحيد المفضّل عن الامام الصادق((عليه السلام)):(فكّر يا مفضل في طلوع الشمس وغروبها لاقامة دولتي النهار والليل، فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كلّه فلم يكن الناس يسعون في معايشهم، ويتصرّفون في امورهم، والدنيا مظلمة عليهم ولم يكونوا يتهنؤون بالعيش مع فقدهم لذة النور وروحه، والإرب في طلوعها ظاهر مستغن بظهوره عن الإطناب في ذكره، والزيادة في شرحه، بل تأمّل المنفعة في غروبها، فلولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع عظم حاجتهم الى الهدوء والراحة...
ثم فكر بعد هذا في ارتفاع الشمس وانحطاطها لاقامة هذه الازمنة الاربعة من السنة وما في ذلك من التدبير والمصلحة...
فكّر الآن في تنقل الشمس في البروج الاثني عشر لاقامة دور السنة... وفي هذا المقدار من دوران الشمس تدرك الغلات والثمار، وتنتهي الى غاياتها، ثم تعود

---

(١) اعجاز القرآن في نظر العلوم المعاصرة، ودائرة المعارف للمصاحب وكتب اخرى.(٢) «بحار الانوار» ج ٥٨ ص ١٧٨ ج ٣٦ .

[١٩٤]

فيستأنف النشوء والنمو...انظر الى شروقها على العالم كيف دّبر ان يكون، فانها لو كانت تبزغُ في موضع من السماء فتقف لا تعدوه لما وصل شعاعها ومنفعتها الى كثير من الجهات .أفلا يرى الناس كيف أنَّ هذه الامور الجليلة؟ التي لم تكن عندهم فيها حيلة صارت تجري على مجاريها، لا تعتل ولا تتخلف عن مواقيتها لصلاح العالم وما فيه بقاؤه؟

استدلّ بالقمر، ففيه دلالة جليلة تستعملها العامة في معرفة الشهور، ولا يقوم عليه حساب السنة... فكّر في انارته في ظلمة الليل والإرب في ذلك، فانه مع الحاجة الى الظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء على النبات لم يكن صلاح في أن يكون الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها فلا يمكن فيه شيء من العمل، لانه ربما احتاج الناس الى العمل بالليل لضيق الوقت عليهم في تقصّي الاعمال بالنهار، او لشدّة الحر وافراطه... وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض، ونقص مع ذلك من نور الشمس وضيائها لكيلا ينبسط الناس في العمل انبساطهم بالنهار، ويمتنعوا من الهدوء والقرار...)(١).

---

(١) بحار الانوار ج ٥٥ ص ١٧٥ الحديث ٣٦ «مع الاختصار».

[١٩٥]

٩ ــ آياتُهُ في خلق الليل والنهار

[١٩٦]

[١٩٧]

تمهيد:

بالرغم من انَّ الليل والنهار من الظواهر التي تحصل نتيجة لضوء الشمس وحركة الارض، ويعتبران من بركاتهما، لكن نظراً لاهتمام القرآن بهما في آيات التوحيد بشكل خاص، واستناده الى هاتين الظاهرتين في الكثير من الآيات، لذلك من الواجب الاهتمام بهما بشكل مستقل، كي نرى فيهما آيات تلك الذات الغير معلومة، ونتعرفُ اكثر على خالق وإله عالم الوجود، ونزداد

حباً له، ونتشرف بالنظر الى حضرته المقدَّسة.بعد هذا التمهيد نقرأ خاشعين الآيات الاثنتي عشرة الآتية:١ ــ (وَهُوَ الَّذي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ والشَّمْسَ والْقَمَرَ)(١).٢ ــ (يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ والنَّهارَ إنَّ في ذلكَ لَعِبْرَةً لأُوْلي الأبْصار)(٢).٣ ــ (هُوَ الّذي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسكُنُوا فِيْهِ والنَّهارَ مُبْصِراً انَّ في ذلك لآيات لِقَوْمٌ يَسْمَعُوْنَ)(٣).٤ ــ (وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلِ والنَّهارِ والشَّمْسِ والْقَمَرُ)(٤).٥ ــ (وجَعَلْنا اللَّيلَ والنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنــا آيَةَ اللَّيْلِ وجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ ولِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِنِيْنَ والْحِسابَ)(٥).٦ ــ (وجَعَلْنا اللَّيلَ لِبــاساً ــ وَجَعَلْنا النَّهارَ مَعاشاً)(٦).

---

(١) (الانبياءالآية:٣٣).
(٢) (النورالآية:٤٤).
(٣) (يونسالآية:٦٧).
(٤) (فصلتالآية:٣٧).
(٥) (الاسراءالآية:١٢).
(٦) (النبأالآية:١٠و١١).

٧ ــ (وَهُوَ الَّذي جَعَلَ اللَّيْلَ والنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أرادَ أنْ يَذَّكَّر أو أرادَ شُكُوراً)(١).٨ ــ (وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهــارَ)(٢).٩ ــ (إنَّ في خَلْقِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ وَمــا خَلَقَ اللهُ في السَّمــواتِ والأَرضِ لآيــات لِقَوْم يَّتقُوْنْ)(٣).١٠ ــ (قُلْ ارَأيْتُمْ إنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمْ اللَّيْلَ سَرْمَداً إلى يَومِ القِيــامَةِ مَنْ إلــهٌ غَيْرُ اللهِ يَأتِيْكُمْ بِضِياء أفَلا تَسْمَعُوْنَ ــ قُلْ ارأيْتُمْ إنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إلى يَوْمِ الْقِيــامَةِ مَنْ إلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأتِيْكُمْ بِلَيْل تَسْكُنُونَ فِيْهِ أفَلا تُبْصِرُونْ ــ وَمِنْ رَحمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيلَ والنَّهــارَ لِتَسْكُنُوا فَيه وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ لَعَلَكُمْ تَشْكُرُوْنَ)(٤).١١ ــ (واللَّيلِ إذا يَغْشى ــ وَالنَّهارِ إذا تَجَلّى)(٥).١٢ ــ (ذلكَ بِأنَّ اللهَ يُوْلِجُ اللَّيلَ في النَّهارِ وَيُوْلِجُ النَّهارَ في اللَّيْلِ وإنَّ اللهَ سَمِيْعٌ بَصيْر)(٦).* * *

تفسير وفذلكة:

النظام العجيب للّيل والنّهار:لقد تكرّرت كلمة (الليل) في القرآن الكريم اكثر من «٧٠» مرة، وكلمة

(١) (الفرقانالآية:٦٢).
(٢) (النحلالآية:١٢).
(٣) (يونسالآية:٦).
(٤) (القصصالآيات:٧١ــ٧٣).
(٥) (الليلالآية:١و٢).
(٦) (الحجالآية:٦١).

* * *

في الوقت الذي يقول في الآية الثانية: (يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلِ والنّهــارِ إنَّ في ذلِكَ لَعِبْرَةً لأُولي الأبْصار).وقد يكون هذا التغيير في التعبير اشارة الى حصول اللّيل والنّهار، او زيادة ونقصان مقداريهما، او اختلافهما من حيث البرودة والحرارة الذي يحدث خلالهما(١)، ولكن لا مانع من شمول هذا التغيير كل هذه المعاني ابداً.* * *

واشار في الآية الثالثة الى احدى فوائد «اللّيل» و «النهار» المهمة، حيث يقول: (هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيلَ لِتَسْكُنُوا فِيه والنّهارُ مُبصِراً).والواضح ان الاطمئنان في ظلمة الليل أحدُ أهمِ النعم الالهية، كما انَّ نور النّهار الضروري لمختلف النشاطات يُعتبر نعمةً مهمةً اخرى.والملاحظ في هذه الآية إنَّ النَّهار اُعتُبرَ (مُبصراً)، والمُبصرُ في الأصل تعني البصير، ونحنُ نعلمُ انَّ النّهار ليس بصيراً في نفسهِ، ولكن بما انّه يؤدي الى أن يُبصرَ

(١) وردت هذه الاحتمالات الثلاثة في تفسير روح المعاني ج ١٨ ص ١٧٣، وتفسير الفخر الرازيج٢٤ص١٥، ولكن ذُكر التفسير الاول والثاني فقط في تفسير مجمع البيان (ج٧ ص١٤٨).

* * *

وفي الآية السادسة يشير الى هذا المعنى وبنحو آخر حيث يقول: (وَجَعَلْنــا اللَّيْلَ لِبــاساً ــ والنَّهــارِ مَعــاشاً).وقد يكون (المعاش) اسم زمان أو مكان أو مصدراً صميمياً، وهو يلائم المعنى المصدري(١).والتعبير بــ (اللباس) بخصوص «اللّيل» تعبيرٌ لطيفٌ جداً، حيث انَّ الليل كاللباس بالنسبة لنصف الكرة الارضية، أو كالملابس بالنسبة للانسان، فكما ان اللباس يحفظ جسم الانسان من مختلف الاضرار ويمنحه جمالا ورونقاً، فانَّ ظلمةَ

(١) قال بعض المفسرين: ان التعبير بـــ «المعاش» اي «الحياة» بخصوص النهار هو لاجل ان النوم في الليل يشبه الموت كما يقول العرب في امثالهم «النوم أخُ الموت»، وعليه فانَّ النقطة المقابلة له اي النهار هو اساس الصحوة والحياة، (الحياة بكل ابعادها).

* * *

والحديث في الآية السابعة عن استخلاف الليل والنّهار لبعضهما البعض، فيقول: (وَهُوَ الَّذي جَعَلَ اللَّيْلَ والنَّهارَ خِلْفَةً).و (خِلْفَة) على وزن «فتنه»، وكما يقول الراغب في «المفردات» فانّها تُطلقُ على شيئين يستخلفُ احدُهما الآخرَ باستمرار، لكن «خلفة» تعني «مختلف» وفقاً لرأي الفيروز آبادي في «قاموس اللغة»، ففي الحالة الاولى ينصب الاهتمام على تناوب الليل والنّهار، فلو لم يكن هذا التناوب دقيقاً ومحسوباً، فأمّا أنْ تحترق موجودات الارض من شدة حرارة ضوء الشمس أو تنجمد منْ شدةِ برودة اللّيل، وفي الحالة الثانية اشارة الى اختلاف اللّيل والنّهار وحصول فصول السنة الاربعة إذ إنّها ذوات آثار خاصة في حياة الانسان.واختار بعضُ المفسرين المعنى الاول، بينما ذهبَ البعضُ الآخر وراء المعنى الثاني، ولكن ليس هنالك من مانع في الجمع بين هذين المعنيين.وورد في الروايات ان الانسانَ يستطيع ان يقضي في النّهار ما فاته من عبادات الليل وبالعكس، واعتُبِرا الآية ناظرة الى هذا المعنى(١).ولا يتعارض هذا التفسير مع التفاسير السابقة ايضاً. وعلى أية حال، فانَّ الآية تشير الى نظام خاص ومتناوب لليل والنّهار حيث يبرهن على العلم والقدرة اللامتناهية للخالق جلَّ وعلا، بشكل لو كانت دورة الارض حول نفسها اسرعُ بقليل او اكثر بطءً مما عليه الآن لطال اللَّيلُ والنّهار وتعَّرضت حياة الناس بل كافة الموجودات على الارض الى الخطر.

(١) ورد هذا التفسير في حديث عن النبي ((صلى الله عليه وآله وسلم)) «طبقاً» لما نُقل في تفسير الفخر الرازي، وفي حديث عن الامام الصادق ((عليه السلام)) «طبقاً» لما نُقل في نور الثقلين ج٣ الآية المختصة بالبحث.

* * *

إنَّ اهمية موضوع الليل والنّهار بلغت الى الحد الذي يُقسمُ القرآنُ بهما في آيات عديدة من بينها ما يقوله في القسم الحادي عشر من هذه الآيات: (واللَّيلِ إذا يَغْشى والنَّهارِ إذا تَجَلّى).وورد هذا المعنى في مكان ثان وبتعبير آخر فيقول: (واللَّيلِ إذا أدبَرَ والصُبْحِ إذا أسْفَرَ)(١).ويقول في مكان آخر: (واللَّيْلُ إذا عَسْعَسَ والصُّبْحِ إذا تَنَفَّسَ)(٢).ويضيف في مكان آخر: (والضُحى واللّيْلِ إذا سَجَى)(٣).* * *

وفي الآية الثانية عشرة والاخيرة نواجه تعبيراً جديداً في هذا المجال إذ يقول: (ذلِكَ بِأنَّ اللهَ يُوْلِجُ اللَّيْلَ في النَّهارَ ويُوْلِجُ النَّهارَ في اللَّيْلِ).(يُوْلِجُ) من مادة «ايلاج» وتعني الادخال، وبما انها جاءت بصيغة «الفعل المضارع» وحيث اننا نعلمُ انَّ الفعل المضارع يفيد الاستمرار، فقد تكون اشارة الى طول وقصر اللَّيل والنهار التدريجي والمنَّظم على مدى فصول السنة المختلفة حيث ينقصُ احدهُما ويضاف الى الآخر، فهذا النظام التدريجي عاملٌ مؤثرٌ في نمو النباتات وتكامل الكائنات الحيّة، فلو حدثَ فجأةً سيختلُ توازنُ هذه الموجودات فيكون مضراً، لهذا فقد جعلَهُ الباري تعالى أمراً تدريجياً.ومن الممكن ان تكون اشارة الى مسألة شروق وغروب الشمس، لانَّ الشمس حينما تقتربُ من الشروق يشعُ نورُها نحو الطرف الاعلى من الجو، ويضيء الجو

---

(١) (المدثرالآية:٣٣).

(٢) (التكويرالآية:١٧).

(٣) (الضحىالآية:١و٢).

قليلا، وكلما ارتفعت الشمس من وراء الافق يزداد هذا الضياء، وعلى العكس اثناء الغروب، فلا يحلُّ اللَّيلُ دفعةً واحدةً، بل تختفي اشعةُ الشمس رويداً رويداً في الطبقات السفلى من الجو، ويحلُّ الظلامُ محلَّها، فهذا الانتقال التدريجي من النور الى الظلام وبالعكس يؤدي الى أنْ يتأقلمَ الانسانُ معه من الناحية الجسمية والروحية، ولو حلَّ اللّيلُ أو النّهار بشكل مفاجيء لتركَ آثاراً سيئةً.والجدير بالذكر انَّ ظاهرَ الآية هو انَّ دخولَ اللّيل في النّهار والنهار في الليل يحدث في آن واحد، والواقع هو كذلك، لأنَّ اللَّيلَ يقلُّ تدريجياً اثناء فصل الصيف في المناطق الواقعة شمال خط الاستواء ويصبح جزءً من النهار أي إنّه مصداقٌ لـــ (يُوْلِجُ اللَّيْلَ في النَّهارِ)، وفي ذات الوقت يقلُّ النّهار في جنوب خط الاستواء ويصبح جزءً من اللَّيل حيث يكون مصداقاً لـــ (يُوْلِجُ النَّهارِ في اللّيْلِ)(١)!.وجاء في الحديث المشهور عن المفضل، انَّ الامام الصادق((عليه السلام)) قال:فكّر في دخول احدهما ــالليل والنهارــ على الآخر بهذا التدريج والترسّل، فانك ترى احدهما ينقص شيئاً بعد شيء، والآخر يزيد مثل ذلك حتى ينتهي كل واحد منهما منتهاه

في الزيادة والنقصان، ولو كان دخول احديهما على الاُخرى مفاجأة، لأضرّ ذلك بالابدان وأسقمها، كما أن احدكم لو خرج من حمّام حار الى موضع البرودة لضرّه ذلك واسقم بدنه، فلمّ يجعل الله عزوجل هذا الترسل في الحر والبرد الاّ للسلامة من ضرر المفاجأة؟(٢).

*** * ***

التوضيحات:

١ ــ اهمية النور والظلام وفوائد اللَّيل والنّهار:

لاحظنا في الآيات الآنفة كيف انَّ الله تبارك وتعالى يدعو الناس الى التفحصِ

---

(١) لقد ذكر «الطريحي» في «مجمع البحرين» هذه النكتة في مادة «ولج».(٢) بحار الانوار ج ٣ ص ١١٨.

في هاتين الظاهرتين اللتين تبدوان عاديتين للعيان، ويعُدهما من آياته، والحقيقة اننا كلَّما امعّنا النظر في هذا المجال نتوصل الى امور جديدة:أ ــ فنحنُ نعلمُ انَّ اللَّيل والنّهار في جميع انحاء العالم يختلفان تماماً، فطول الليلِ عند خط الاستواء (١٢) ساعة، وطول النّهار (١٢) ساعة ايضاً في كافة الفصول، إلاّ إنَّ السَّنَةَ كلَّها في المنطقة الجنوبية وعلى خط ٩٠ْ ليست اكثر من يوم واحد وليلة واحدة حيث تكون مدة كلٍّ منهما ستة اشهر تقريباً «ومثل هذه المناطق غير مأهولة طبعاً»، وهنالك مراحل وسط بين هذين الوضعين في باقي بقاع العالم.إلاّ إنَّ مايثير العجب هو بالرغم من هذا الاختلاف فانَّ جميع بقاع الارض تستفيد من اشعة الشمس بنفس النسبة على مدار السنة وهذا نظامٌ عادلٌ للغاية!.ب ــ انَّ النّهار اكثرُ طولا اثناء الصيف والليل اكثرُ طولا في الشتاء، أي انَّ هذين الامرين يسيران بشكل متزامن، زيادة طول النّهار، والاشعاع العمودي «أو المنحرف عمودياً» للشمس، فيكمل احدُهما أثر الآخر، ويؤديان الى زيادة حرارة الجو فتثمرُ الفواكه والمحاصيل الزراعية، وفي الشتاء يؤدي الى زيادة البرودة وخمول الاشجار والنباتات، واللطيف انه في المناطق الاستوائية حيث يشع ضوء الشمس عمودياً لا يطول النّهار ابداً، وإلاّ لداهمها خطر السّخونة واحترقت النباتات.ج ــ إن ضوء الشمس يسبب اليقظةَ والحَذَرَ والغليان والحركة باستمرار، على العكس من اللّيل الذي يبعث على السكون والاستقرار والنوم، ويُلاحَظُ هذا الأمر على وجه الخصوص في عالم الحيوانات، حيث تستيقظ الطيور مع بزوغ الصبح وتتجه نحو الصحراء، وتعود وتستريح في اوكارها مع افول الشمس، وفي الارياف حيث ان لمعظم الناس حياةً طبيعية، ويكون برنامج حياتهم كذلك ايضاً، ولكن نظراً لتطور الآلة، وصناعة النور الاصطناعي، فانَّ الكثير من الاشخاص يسهرون جزءً من اللَّيل وينامون بعض النهار، وهذا أحدُ الاسباب لبعض انواع الامراض، وفي الحقيقة ان القرآن يُحذِّرُ مثل هؤلاء الافراد بانَّ ترك النوم ليلا يؤدي الى فقدان الاطمئنان

الروحي وذلك من خلال عبارة: (هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيْهِ والنَّهــار مُبْصِراً)(١).*
* *

٢ ــ ظاهرة اللّيل والّنهار في القرآن الكريم:

لقد ذُكِرَتْ ظاهرة اللّيل والّنهار اكثر من ثلاثين مرّة في القرآن الكريم كبرهان على وجود الله ودليل على عظمته وقدرته، حيث يقول احياناً: (إنَّ في ذلِكَ لَعِبْرَةً لأُولي الألْباب)(٢).ويقول كذلك: (لآيات لقوم يتّقون)(٣).ويقول: (آياتٌ لِقَوُم يُؤمِنُونْ)(٤).وفي الواقع، انَّ العلاقة بين هذه الامور الثلاثة تتضح هنا حيث انَّ التفكُر والتأمُّل الناضج والعميق كما ورد في حق (أُولُوا الألباب)يؤدي الى ظهور الايمان ورسوخه، والايمانُ بدوره يؤدي الى ظهور التقوى في القلب والروح ايضاً.ولهذا فانَّ التمعُنَ في آيات عظمةِ الله وعلمه وقدرته فى عرض عالم الوجود، يُرسِّخ العقيدة ويُربّي الانسان من الناحية العملية ايضاً.

---

(١) (يونسالآية:٦٧).
(٢) (النورالآية:٤٤).
(٣) (يونسالآية:٦).
(٤) (النملالآية:٨٦).

١٠ ــ آياته في خلق الجبال

تمهيد:

الكلُّ يعرفُ بشكل عام انَّ الارياف واغلبَ المدن المهّمة تتوسط الجبال الشامخة او تقع فى اعماقها، وانَّ الانهار الكبيرة التي هي عمادُ ازدهار المدن تنبعُ من الجبال الشاهقة، إلا إنَّ دورَ الجبالِ فى حياة الانسان لا ينحصر بذلك فقط على الرغم من إنه مهمَّ بدوره ايضاً.فالجبالُ لها دورٌ مهمٌ جداً في حياة الانسان بل جيمع الموجودات التي تعيش على الارض، وفوائدها وبركاتُها عديدةٌ جداً، ولا مبالغةَ اذا قلنا باستحالة الحياة على الارض بدون وجود الجبال.ولهذا فانَّ القرآن الكريم اشار في آيات كثيرة الى مسألة خلق الجبال كاِحدى آيات التوحيد وبراهين على علم وقدرة الخالق جلَّ وعلا.بعد بهذا التمهيد نقرأ خاشعين الآيات الآتية:١ ــ (أَفَلا يَنْظُرُوْنَ إلى الأبلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ــ وإلى السَّمــاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ــ وإلى الْجبــالِ كَيْفَ نُصِبَتْ)(١).٢ ــ (أَلَمْ نَجْعَلُ الأرْضَ مِهــاداً ــ وَالْجبــالَ أوتــاداً)(٢).٣ ــ (وَهُوَ الَّذي مَدَّ الأرْضَ وَجَعَلَ فِيْهــا رَواسيَ وأنْهــاراً)(٣).٤ ــ (وَألْقَى في الأرْضِ رَواسيَ أنْ تَمِيْدَ بِكُمْ وأنْهــاراً وَسُبُلا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُوْن)(٤).٥ ــ (وَجَعَلْنــا في الأرْضَ رَواسيَ أنْ تُمِيْدَّ بِهُمْ وَجَعَلْنــا فِيهــا فِجــاجاً

---

(١) (الغاشيةالآيات:١٧ــ١٩).
(٢) (النبأ الآية:٦و٧).
(٣) (الرعد الآية:٣).
(٤) (النحل الآية:١٥).

سُبُلا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُوْن)(١).٦ ــ (وجَعَلَ فِيْهــا رَواسيَ مِنْ فَوقِهــا وَبــارَكَ فِيهــا وَقَدَّرَ فِيْهــا أقْواتَهــا في أرْبَعَةِ أيام سَواءً لِلسّائِلِيْن)(٢).٧ ــ (وجَعَلْنــا فِيهــا رَواسيَ شــامِخــات وأسْقَينــاكُمْ مــاءً فُراتاً)(٣).٨ ــ (أمَّنْ جَعَلَ الأرْضَ قَراراً وَجَعَلَ خِلالَها أنْهــاراً وَجَعَلَ لَهــا رَواسِيَ وجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنَ حــاجِزاً أَ إلهٌ مَعَ الله بَلْ أكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُوْن)(٤).
٩ ــ (واللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمّا خَلَقَ ظِلالا وجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْجبــالِ أكْنــاناً)(٥).١٠ ــ (وَمِنْ الْجبــالِ جُدَدٌ بِيْضٌ وحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهــا وَغَرابِيْبُ سُوْدٌ)(٦).* * *

شرح المفردات :

(جبل) على وزن «عَسَلْ»، بالرغم من انَّ بعض ارباب اللغة فسَّرها بأنّها النقطة التي تعاكس الاراضي المنبسطة، وفسَّرها بعضهم بالاجزاء المرتفعة من الارض حيث تكون عالية وطويلة،

فالظاهر انَّ جميع هذه التعابير تشير الى معنىً واحد.وطبعاً قد يُستعمل هذا اللفظ في المعاني الكنائية ايضاً، فقد يُقال (جبل) للاشخاص الصامدين والعظماء، و «جِبِلّي» للصفات الثابتة في طبيعة الانسان والتي

---

(١) (الانبياء الآية:٣١).
(٢) (فصلت الآية: ١٠).
(٣) (المرسلات الآية:٢٧).
(٤) (النمل الآية:٦١).
(٥) (النحل الآية:٨١).
(٦) (فاطر الآية:٢٧).

لا تتبدل ولا تتغير «كالجبل»، وكذلك يقال (جِبِلّ) بكسر الجيم والباء وتشديد اللام، للرهط والمجموعة في لغة العرب من باب التشبيه بالجبل في العظمة(١).* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

البركات والاسرار العجيبة للجبال:في القسم الاول من هذه الآيات يدعو الباري تعالى الناسَ الى التفحص في آيات الله في السماء والارض، ثم يشير الى كيفية خلق الابل وكذلك ارتفاع السموات حيث ارتفعت بدون عَمَد مع مالها من عظمة، واشار الى نصب الجبال فقال (وإلى الجِبـــالِ كَيْفَ نُصِبَتْ).ولعلَّ هذا التعبير اشارة الى ثبات واستقرار الجبال في امكنتها ومنع حدوث الزلازل التي سيشار اليها في الآيات القادمة أو أُشيرَ اليه آنفا، او الوقوف أمام الاعاصير والعواصف، وتوفير الملاجيء الآمنة للبشر، ومستودعات حفظ المياه على هيئة ينابيع وقنوات وانهار.ويمكن ان يكون هذا التعبير اشارة ظريفة الى مسألة طبيعة تكوين الجبال

---

(١) المفردات «للراغب»، و «مجمع البحرين»، و «لسان العرب».

* * *

ويقول فى الجزء الثاني من الآيات كبيان للنعم الالهية: (أَلَمْ نَجْعَل الأَرْضَ مِهـــاداً ــ والْجِبـــالَ أَوْتـــاداً)؟.و (الاوتاد) جمع «وَتَدْ» (على وزن حَسَدْ)، وتُطلقُ على المسامير الضخمة القوية جداً، وقد فسَّرها البعض بالمسامير التي تغور في الارض وتُربط اليها حبالُ الخيمة(١).وهنا كيف تكون الجبال بمنزلة أوتاد الارض؟ هناك تفاسير متعددة: أولُها وهو ما ثبت اليوم بانَّ الجبال لها جذورٌ عظيمة في اعماق الارض، وهذه الجذور متشابكة معاً وتُمسكُ بقشرة الارض كالدرع وتحفظها في مواجهة الضغوط الناشئة عن الحرارة الداخلية، ولولاها لما كان لسطح الارض من قرار.وفضلا عن ذلك فكما ان جاذبية القمر والشمس تترك تأثيراتها على المحيطات، وتسبب الجزر والمد، فانَّ اليابسة لها تأثيرها أيضاً، فيمنحُ درعُ الجبالِ قشرةَ الارض قدرةَ المقاومة امام هذا الضغط الهائل.ومن ناحية ثالثة فانَّ الجبال تصونُ بقاعَ الارض المختلفة من العواصف والسيول وتقف امامها كالسور العالي، بحيث لو كان وجه الارض كلُّه على هيئة صحراء لتعسَّرت حياة الانسان على سطحها امام هذه السيول العارمة.

---

(١) تفسير المراغي ج ٣٠ ص ٤ .

واهم من كل ما مضى فان الجبال تعتبر بمنزلة الاوتاد القوية لنظام حياة البشر لكونها مركزاً لذخائر المياه.وجاء فى تفسير الميزان أنّ الاوتاد جمع وتد وهو المسمار الاّ انه اغلظ منه(١)*

* *

وفي الآيات الثالثة والرابعة والخامسة عُبِّر عن الجبال بـــ (الرواسي) حيث يقول: (وجَعَلَ فِيْهـــا رَواسِيَ وَأَنْهـــاراً).ويقول فى مكان آخر: (وألْقى في الأَرضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيْدَ بِكُمْ وَأَنْهـــاراً وَسُبُلا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُوْن).ويشاهد هذا المعنى في الآية الخامسة ايضاً.يستفادُ من مجموع هذه الآيات انَّ اَحَد اهم فوائد الجبال هو منع الحركات المضطربة والزلازل الارضية.و (تَميدُ) من مادة «مَيد» (على وزن صَيْدْ) أي اضطراب الاشياء الضخمة، وقال البعض انّها الحركة المتزامنة مع الاضطراب يميناً وشمالا، كحركة السفن الخالية بسبب امواج البحر، ولهذا يقال «مَيْدان» حيث الحركة فيه اثناء المسابقات او الحروب.وقد تحدثنا في شرح الآيات السابقة عن تأثير الجبال في منع حركات قشرة الارض أثر الضغط الداخلي، وجاذبية الجَزْر والمد للشمس والقمر، والاضطرابات الناتجة عن السيول المستمرة، ولا حاجة الى التكرار.ويُفهم من هذه الآيات بصورة عامة ايضاً، إنَّ لتكوين الانهار علاقةً بوجود

---

(١) « الميزان » ج ٢٠ ص ٢٥٩ .

[٢١٥]

الجبال، وهو الصحيح، فالانهار الكبيرة التي تجري على مدى السنة وتسقي الاراضي اليابسة هي من بركة المياه التي تجمعت في اعماق الجبال او قممها على هيئة جليد أو بَرَد، ولهذا تُعتبر الجبال العملاقة في العالم ينابيع لانهار العالم العظيمة.ونظراً لاحتمال تسبب وجود الجبال في حصول هذا الخلط لدى البعض حيث يتصورون انها تعزلُ اجزاءً من الارض عن بعضها، وتغلقُ منافذ العبور والمرور، فقد ورد في الآيات اعلاه انَّ الله تعالى قد جَعَلَ فيها طُرقاً واودية، كي يهتدي الناس ويبلغوا مآربهم.وهذه نكتةٌ مهمةٌ جداً حيث توجد على الدوام في اعماق الجبال العظيمة الشاهقة ممرات وطرقٌ تمنح الناس فرصة المرور والعبور، أي انها في ذات الوقت الذي تشكلُ سداً قوياً امام السيول، فهي لا تمنع عبور ومرور الناس، ونادراً ما تقوم هذه الجبال بعزلِ اجزاء من الارض بشكل كامل.وهنا نكتةٌ جديرةٌ بالاهتمام ايضاً، فلو كان سطح الارض مسطحاً لأصبحَ حاراً جداً واحترق بحيث تتعسر الحياة عليه بسبب حركة الارض السريعة حول نفسها، وحركة الهواء السريعة على سطح الارض.لكن الباري تعالى الذي جَعَلَ الارض مهداً لراحة الانسان، أمر الجبال ان تُلقي بقبضتها في طبقات الجو، وتديرها معها حول الارض، كي تمنع اهتزاز الجو وحصول الحرارة.بناءً على ذلك نلاحظ جيداً اهمية الدور الذي يلعبُهُ وجود هذه القطع الصخرية الصمّاء في حياة الموجودات.بالاضافة الى ذلك فانَّ الجبالَ تُوجدُ مساحات مسطَّحة شاسعة بسبب التعرجات والانكسارات وتؤدي الى مضاعفة الجزء الذي يمكن استغلاله من الارض لعدة مرات، وفي نفس الوقت فانَّ أغلبها يعتبر مكاناً لنمو اشجار الغابات الكثيفة وانواع النباتات الطبية والغذائية والمراتع.

[٢١٦]

* * *

واشار في الآية الثامنة الى اربع نِعَم الهية: فالارضُ مستقرةٌ بنحو يستطيع الانسان والموجودات الاخرى من العيش عليها براحة واطمئنان، وتكوين الانهار في بطن الارض، وخلق الجبال الصلبة الراسخة، وتكوين البرزخ بين البحرين (من الماء العذب والمالح) كي لا يختلط احدهما بالآخر.وهذه النعم الاربع ترتبط مع بعضها بنحو مدهش، فالجبال اساسُ استقرار الارض، ومصدر وجود الانهار، وهذه الانهار عندما تصبُ مياهها في البحر فهي

[٢١٧]

* * *

وفي الآيتين التّاسعة والعاشرة أشار الى مجموعة اخرى من خصائص ومنافع الجبال، فبعد أنْ ذكرَ خلقَ الجبال التي تقي الانسانَ حرارة الشمس المحرقة، يشير الى الملاجيء الموجودة فيها حيث يقول: (وَجَعَلَ لَكُمُ مِنَ الْجِبـــالِ أكْنـــاناً).و (الاكنان) جمع «كنّ» (على وزن جنّ) وكما قال صاحب مجمع البيان هو المكان الذي يضم الانسان بداخله، إلاّ انَّ البعض ذكر ذلك بمعنى كلّ نوع من اللباس، حتى انهم اعتبروا «الرداء» «كنّاً» للانسان، والمقصود بـــ«اكنان الجبال» هذه المغارات والكهوف التي يستطيع الانسان أن يستخدمها كملجأ له. قد تكون اهمية الملاجيء الجبلية والمغارات مجهولة بالنسبة لأهل المدن الآمنين، غير انها ذات اهمية حسّاسة جداً للمسافرين العُزّل، وقاطعي الصحراء، والرعاة، والسائرين ليلا، وغالباً ما تنقذهم من الموت المحتوم، لا سيما وانَّ هذه الملاجيء دافئة في الشتاء وباردةٌ في الصيف.فضلا عن ذلك فان بعض الناس منذ غابر الازمان وحتى يومنا هذا ينحتون

بيوتهم في بطن الجبال، وهي مُحكَمَةٌ جداً وآمنة تماماً في مواجهة الحوادث الطبيعية، كما ورد في القرآن الكريم حول «اصحاب الحجر» (قوم ثمود): (وكـــانُوا يَنْحَتُوْنَ مِنَ الجِبـــالَ بُيُوْتاً آمِنِيْنَ)(١).* * *

---

(١) (الحجر الآية:٨٢).

التوضيحات:

.

١ ــ دور الجبال والاعجاز العلمي للقرآن:

١ ــ لعلَّ الى ما قبل قرن من الزمان كانت نظرية العلماء تنصُ على سطحية الجبال، وكان الاعتقاد السائد هو إنَّ كل الجبال عبارة عن قطع صخرية كبيرة تستقر على سطح الارض، ولكن مع مرور الزمان أُزيلَ الحجابُ عن سرٍّ مهم، وتوصلَ العلماء الى هذه الحقيقة، وهي ان الجزءَالاعظم من كل جبل يكمن تحت الارض!وكما يقول «جورج غاموف» في كتاب «قصة الارض»: (طبقاً للنظريات المعاصرة فانَ جبال الارض تشبه الجبال الجليدية التي تتكون تحت تأثير ضغط الثلوج في المناطق القطبية، فكلُ من زار المناطق القطبية يعرف جيداً انَّ القطع

الثلجية الضخمة حينما تتكسر اثر الضغط تتراكم على بعضها، وتندفع نحو البحار ــ واثناء ذلك تنهار اغلب كميات الثلج في المياه، (ولعلَّ عُشرُها فقط خارج المياه وتسعةُ اعشارها تحت الماء)، ولهذا ففي مقابل كلِّ جبل يرتفع عن الارض هنالك جبلٌ تحت سطح الارض، متكون من مادة حجر الغرانيت يَغوص في ثنايا طبقة من الصخور التحتية الناعمة)(١). وهنا نصل الى هذه المسألة الاعجازية في القرآن حيث يطلق على الجبال «اوتاد» ومسامير الارض، لاننا نعلم ان القِسمَ الاعظم من المسمار يغور في الجدار أو الاشياء الاخرى دائماً.وهنا حيث تستخدم المسامير في تحكيمِ شيء ما، او ربط القطع المختلفة مع بعضها ايضاً، فهذا التعبير يعتبر اشارة لطيفة الى التأثير المهم للجبال في منع اضمحلال قطع الارض اثر الضغط الداخلي للكرة الارضية والضغط الناتج عن حالات الجزر والمد.٢ ــ ليس للجبال أثرٌ حساسٌ في حفظ استقرار الارض فحسب، بل تساهم في استقرار الجو المحيط بالارض ايضاً، فالكل يعلم بصعوبة الحياة في الصحراء

---

(١) «قصة الارض» تأليف جورج غاموف ص ١٢٦ مع شيء من الاختصار .

* * *

٢ ــ حديث للامام الصادق((عليه السلام)) حول الجبال:

وفي حديث توحيد المفضّل وهو حديث مليءٌ بالمعاني، وكاشفٌ لاسرار الخلق في مختلف الجوانب لمعرفة الله، جاء ما يلي:(انظر يا مفضّل الى هذه الجبال المركومة من الطين والحجارة التي يحسبها الغافلون فضلا لا حاجة اليها، والمنافع فيها كثيرة: فمن ذلك ان تسقط عليها الثلوج فيبقى في قلالها لمن يحتاج اليه، ويذوب ما ذاب منه فتجري منه العيون الغزيرة التي تجتمع منها الانهار العظام، وينبت فيها ضروب من النبات والعقاقير التي لا ينبت مثلها في السهل، ويكون فيها كهوف ومقايل للوحوش من السباع العادية. ويتخذ منها الحصون والقلاع المنيعة للتحرز من الاعداء، وينحت منها الحجارة للبناء والأرحاء، ويوجد فيها معادن لضروب من الجواهر، وفيها خلال اخرى لا يعرفها الاّ المقدّر لها في سابق علمه)(١)!.

* * *

٣ ــ كلامٌ عن عالم كبير :

عندما يطرح العلامة المرحوم المجلسي بحث الجبال، يذكر في تفسير الآية (وجَعَلَ الجِبــالَ اوْتــاداً) سبعة تفاسير، ثالثها ما يلي:(ما يخطر بالبال وهو أن يكون مدخلية الجبال لعدم اضطراب الارض بسبب اشتباكها واتصال بعضها ببعض في اعماق الارض بحيث تمنعها عن تفتّت اجزائها وتفرّقها، فهي بمنزلة الأوتاد المغروزة المثبتة في الابواب المركبة من قطع الخشب الكثيرة بحيث تصير سببا لالتصاق بعضها ببعض وعدم تفرّقها وهذا معلوم ظاهر لمن حفر الآبار في الارض فانها تنتهي عند المبالغة في حفرها الى الاحجار الصلبة، وانت

---

(١) بحار الانوار ج ٣ ص ١٢٧ .

ترى اكثر قطع الارض واقعةً بين جبال محيطة بها، فكأنها مع ما يتصل بها من القطعة الحجرية المتصلة بها من تحت تلك القطعات كالظرف لها تمنعها عن التفتّت والتفرق والاضطراب عن عروض الاسباب الداعية الى ذلك)(١).

* * *

٤ ــ حديثٌ اعجازيٌ حول تكوين الجبال :

وهذه نكتةٌ جديرةٌ بالاهتمام ايضاً حيث ورد في رواية ان شخصاً سألَ اميرَ المؤمنين((عليه السلام)) قائلا: مِمّ خُلقتِ الجبالُ؟ فقال الامام((عليه السلام)) في جوابه: (من الامواج).وهذا الحديث يتطابق تماماً مع النظرية المشهورة للعلماء المعاصرين اذ يعتَّقدون بانَّ اغلبَ الجبال تكونت نتيجةً لتعرُّج قشرة الارض بسبب انجمادها كالتجعدات التي تظهر على قشرة التفاح عند جفافها وهذه التعرّجات تشبه الامواج التي تحدث على سطح الماء، وقد يكون تعبير (وألْقى في الأرْضِ رَواسيَ)(٢)، اشارة الى خلق الجبال بعد خلق الارض ايضاً.

(١) بحار الانوار ج ٣ ص ١٢٧ .
(٢) (النحل الآية: ١٥) .

[٢٢٣]

[٢٢٤]

١١ ــ آيــاته فــي تكــوين الــغيوم والــرياح والامطــار

[٢٢٥]

[٢٢٦]

تمهيد :

انَّ دورَ الغيوم، والرياح والامطار، في حياة الانسان وكافة الكائنات الحيّة واضحٌ بالقدر الذي لا يحتاج الى تفصيل، صحيحٌ انَّ الماء يغمُر ثلاثة ارباع الكرة الارضية، ولكن أولا: انَّ المياه المالحة لا تصلح للري، ولا لشرب الانسان والحيوانات، وثانياً: لو فرضنا انَّ كلَّ مياه البحار كانت عذبةً فبأي طريقة يُمكن نقلها الى المناطق والاراضي التي قد ترتفع عن سطح البحر عدة آلاف من الامتار؟هنا نرى بجَلاء القدرة العظيمة لمبدء الخلق، حيث القى هذا التكليف المهم على عاتق اشعة الشمس لتشرق على المحيطات وتَقوم بتبخير وتصفية مياهها، فيظهر على هيئة قطع من الغيوم، ثم تتجه به نحو المناطق الجافة بمساعدة الرياح، وتُنزله عليها بصورة قطرات مطر لطيفة وصغيرة وبهدوء، حيث تدُب الحياة في جميع ارجاء المعمورة، وتنشُرُ الازدهار والاعمار والخُضرةَ في كُل مكان، وهذا يأتي من خلال نظام دقيق جداً ومحبوك تصحُبه ظرافةٌ بالغة.وبعد هذا التمهيد القصير نتجه نحو آيات القرآن الكريم بهذا الخصوص فنقرأ خاشعين الآيات الآتية:١ ــ (اللهُ الَّذي يُرْسِلُ الرِّيــاحَ فَتُثِيْرُ سَحــاباً فَيَبْسُطهُ في السَّمــاءِ كَيْفَ يَشــاءُ ويَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فإذا أصــابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبــادِهِ إذا هُمْ يَسْتَبْشِرُوْنَ)(١).٢ ــ (وَمِنْ آيــاتِهِ أنْ يُرسِلَ الريــاحَ مُبَشِّرات وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بأمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(٢).

(١) (الروم الآية: ٤٨).
(٢) (الروم الآية:٤٦).

[٢٢٧]

٣ ــ (وهُوَ الَّذي يُرْسِلُ الرِّيــاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَي رَحمَتِهِ حتى إذا أقَلَّتْ سَحــاباً ثِقــالا سُقْنــاهُ لبَلَد ميِّت فأنْزَلْنــا بهِ الْمــاءَ فَأخْرَجْنــا بهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرات)(١).٤ ــ (واللهُ الَّذي أرْسَلَ الرِّيــاحَ فَتُثيْرُ سُحــاباً فَسُقْنــاهُ إلى بَلَد ميِّت فَأحيَيْنــا بهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِها)(٢).٥ ــ (إنَّ في خَلْق السَّمــواتِ والأرْض ومَــا أنْزَلَ اللهُ مِنْ السَّمــاءِ مِنْ مــاء فَأحْيــا بهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهــا وبَثَّ فِيهــا مِنْ كُلِّ دابَّة وتَصْرِيْفِ الرِّياحِ والسَّحــابِ المُسَخَرَ بَيْنَ السَّمــاءِ والارْضِ لآيات لقَوْم يَعْقِلُوْن)(٣).٦ ــ (أفَرَأيْتُمُ الْمــاءَ الَّذي تَشْرَبُوْنَ ــ أأنْتُمْ أنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أمْ نَحْنُ المُنْزِلُوْنَ ــ لَوْ نَشــاءُ جَعَلْنــاهُ أُجــاجاً فَلَوْ لا تَشْكُرُوْن)(٤).٧ ــ (أمَّنْ يَهْدِيكُمْ في ظُلُمــاتِ الْبَرِّ والْبَحْرِ ومَنْ يُرْسِلُ الرِّيــاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَي رَحْمَتِهِ أ إلهٌ مَعَ اللهِ تَعالى اللهُ عَمَّا يُشرِكُوْنَ)(٥).٨ ــ (وأرْسَلْنــا الريــاحَ لَواقِحَ فَأنْزَلْنــا مِنَ السَّمــاءِ مــاءً فأسْقَيْنــاكُمُوْهُ ومَــا أنْتُمْ لَهُ بِخــازِنِيْن)(٦).٩ ــ (أَلَمْ تَرَ إنَّ اللهَ أنْزَلَ مِنَ السَّمــاء مــاءً فَسَلَكَهُ يَنــابِيْعَ في الأرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ... إنَّ في ذلِكَ لَذِكْرى لأُوْلي الألْبــاب)(٧).

(١) (الاعراف الآية: ٥٧).
(٢) (فاطر الآية: ٩).
(٣) (البقرة الآية:١٦٤).
(٤) (الواقعة الآيات:٦٨ ــ ٧٠).
(٥) (النمل الآية:٦٣).
(٦) (الحجر الآية: ٢٢) .
(٧) (الزمر الآية: ٢١) .

[٢٢٨]

١٠ ــ (وأنْزَلْنــا مِنْ المُعْصِراتِ ماءً ثجَّاجاً ــ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً ونَبــاتاً وجَنّات أَلْفــافاً)(١).١١ ــ (وهُوَ الَّذي أرْسَلَ الرِّيــاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَي رَحْمَتِهِ وأنْزَلْنــا مِنْ السَّمــاء مــاءً طَهُوراً)(٢).١٢ ــ (أوَلَمْ يَرَوْا أنّا نَسُوقُ المــاءَ إلى الأرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأكُلُ مِنْهُ أنْعــامُهُمْ وأنْفُسُهُمْ أفَلا يُبْصِرُوْن)(٣)(٤).* * *

.

شرح المفردات :

(الرياح) تكررَ هذا اللفظُ عشرَ مرات في القرآن الكريم، تسعٌ منها اشارة الى الرياح التي تُحركُ الغيوم وتُعِدُّها لتنزل الامطار.و (الرياح) في الاصل جمع «ريح» وتعني الهواء المتحرك، واصلُها «رَوْحْ»، وغالباً ما تعتبر مؤنثاً لفظياً، والجدير بالذكر انها تستخدم بصيغة الجمع دائماً في الآيات التي تتعلق بحركة الغيوم ونزول الامطار في القرآن الكريم، وذكر البعض دليلا على ذلك بانَّ الرياح اذا تحركت بشكل جماعي فانها تنشر الغيوم وتُكوِّنُ امطاراً غزيرة ومليئة بالبركة، واذا تحركت على هيئة اجزاء متفرقة فانها تكون عقيمة وغير مفيدة، بل مضرّةً عندئذ، لذلك ورد في الدعاء ــ اللهم اجعلهُ رياحاً ولا تجعلها ريحاً ــ(٥).

---

(١) (النبأ الآيات: ١٤ ــ ١٦).

(٢) (الفرقان الآية: ٤٨).

(٣) (الم السجدة الآية: ٢٧) .

(٤) توجد في القرآن الكريم آياتٌ كثيرةٌ في هذا المجال ، وما ورد اعلاه مقتطفات من هذه الآيات بامكانها تبيان ابعاد هذه الامور الثلاثة المهمة وهي كما يلي: الانعام٩٩ــ ابراهيم٣٢ ــ النحل٦٥ــ طه٥٣ــ الحج ٦٣ ــ النمل ٦٠ ــ العنكبوت ٦٣ ــ لقمان ــ ١٠ و ١١ ــ فاطر ٢٧ ــ فصلت ٣٩ ــ الرعد ١٧ ــ الاعراف٥٧ ــ الحجر٢٢ ــ النمل ٦٣ .(٥) مجمع البحرين ــ مادة «ريح» .

ويقول «الراغب في المفردات»: في جميع الموارد التي ذكر الله تعالى لفظة (الريح) بصورة مفردة (في القرآن) فهي تحكي عن «العذاب»، واينما ذكرت بصيغة الجمع فهي تحكي عن الرحمة.وقول الراغب صائبٌ في ما يَخص «الرياح» في صيغة الجمع، ولكن ليس هناك تعميمٌ في مورد «الريح» بصيغة المفرد، لانَّ «الريح» استخدمت في القرآن بصيغة المفرد في مورد النعمة ايضاً، كما في: (حَتى إذا كُنْتُمْ في الْفُلْكِ وجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَة وفَرِحُوا بِهــا)(١).ونقرأ ايضاً بخصوص سليمان ((عليه السلام)): (ولِسُلَيْمــانَ الرِّيْحَ غُدُوُّها شَهْرٌ ورَواحُهــا شَهْرٌ)(٢).و (تَصْرِيفِ الرِّياح) تعني نقل الرياح من حال الى حال (من الشمال الى الجنوب ومن الجنوب الى الشمال)، وهي من مادة (صرف) (على وزن حرف) أي تحويل الشيء من حالة الى حالة اخرى أو إبداله بشيء آخر(٣).وقد يكون هذا التعبير إشارة الى انَّ الرياح لو سارت باتجاه واحد باستمرار فمن الممكن ان تدفعَ بالرطوبة والغيوم المتصاعدة من البحار نحو جهة واحدة فقط أما تغيُّر الرياح فانه يؤدي الى ان تتحرك الغيوم من مكان الى مكان آخر، وتَستفيد اغلبُ المناطق الجافة من الامطار الى اقصى حد.

فضلا عن ذلك وكما سيأتي فان فائدة الرياح لا تنحصر بحركة الغيوم، بل لها منافع كثيرة اخرى سنشير اليها في تفسير الآيات ــان شاء اللهــ(٤).

و (السَّحاب) من مادة «سَحْب» (على وزن مَحْو)، وتعني في الاصل الجرَّ،

---

(١) (يونس الآية: ٢٢).

(٢) (سبأ الآية: ١٢).

(٣) «مجمع البحرين» ومفردات الراغب.(٤) يُقسِّمُ العربُ الرياحَ الى اربعة اقسام: «الشمالية» التي تهب من الشمال، و «الجنوبية» التي تهبُّ من الجنوب، و «الصبا» التي تهبُّ من الشرق، و «الدبور» التي تهبُّ من الغرب.

حيثُ تُسحبُ الغيوم بواسطة الرياح، أو انَّ الغيوم تسحبُ المياهَ نحو أيِّ اتجاه، فيُطلقُ اسم «السحاب» عليها، وقد يُستخدم هذا المفهوم بمعنى الظِّل أو الظلام من باب التشبيه.واللطيف إنَّه قد تمَّ التعبير في الآيات اعلاه بـــ (سُقناه) من مادة «سوق» أي «الدفع» وقد استُعمِلَ هذا التعبير لأنَّ الله تبارك وتعالى يدفعها نحو اتجاه معيَّن (بالرغم من انَّ السحاب يتحرك طبيعياً).و (مُزن) على وزن «حُزن» و تعني «الغيوم الواضحة»، وفسَّرها البعض بـــ(الغيوم

الممطرة)(١).ولهذا يُطلقُ على الهلال الذي يبرز من بين الغيوم بـــ (ابن مُزنة)، و (مازن) تعبيرٌ يُستخدم في مورد النمل الابيض.و (بُشْر) (على وزن عُشر)، وحسب ما جاء في (مصباح اللغة) فهي مأخوذة من (بَشَرْ) (على وزن سَقَرْ) أي السرور والفرح(٢).* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

ظاهرة الريح والامطار المليئة بالاسرار:يشيرُ في الآية الاولى من البحث وكتعريف بالذات الالهية المقدّسة الى مسألة هبوب الرياح وحركة الغيوم بواسطتها حيث يقول: (اللهُ الَّذي يُرْسِلُ الرِّيـــاحَ فَتُثِيْرُ سَحـــاباً).ثمَّ يشيرُ الى بسط الغيوم على وجه السماء، وتراكمها فوق بعضها، وفي

---

(١) مفردات الراغب ولسان العرب ــ مادة مُزن .(٢) «بُشْر» اسم مصدر وتأتي بمعنى اسم فاعل (مُبَشِّر) ايضاً .

الختام يشير الى خروج قطرات الامطار من وسطها، ويقول: (فَيَبْسُطُهُ في السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ و يَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ).و (الكِسَفْ) تعني هنا تراكم قطعِ الغيوم حيث تستعد لنزول المطر، و «وَدْق» (على وزن خَلْقْ) تُطلقُ على الرذاذ الذي يشبه الماء، وفسَّرها البعض بانها قطرات المطر.وفي نهاية الآية يشير الى استبشار عباد الله أثر نزول المطر فيقول: (فَإذا أَصـــابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبـــادِهِ إذا هُمْ يَستَبْشِرُوْن).وعليه فانَّ الرياح لا تُحرِّكُ الغيومَ فقط، بل تبسطها في السماء ثم تركُمَها على بعضها وتتعهد بتبريد أطراف الغيوم واعدادها لانزال المطر.فالرياح ذات تجربة غنية كالرعاة حين يقومون بجمع قطيع الماشية في وقت محدَّد من اطراف الصحراء ويسوقونها في طريق معين، ثم يحضرّونها للحلب.وليس سُمكُ الغيوم يكون الى الحد الذي يمنع خروج قطرات المطر، ولا شدة الرياح بالقدر الذي يمنع نزول هذه القطرات الى الارض.ولا تكون قطرات الامطار صغيرة بالقَدَرِ الذي يجعلها تبقى معلقةً في السماء، ولا كبيرة حيث تؤدي الى تدمير المزارع والبيوت.ولا يُعتبر نزول المطر مُبشِّراً للناس لأنَه اساس الاعمار والازدهار فقط، بل انَّه يُصَفّي ويُلطِّفُ الجو ويبعثُ على النشاط.واللطيف انّه يقول في سياق هذه الآية من سورة الروم: (فَانْظُرْ إلى آثارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيي الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِها)؟!.ومن اجل ادراك مفهوم هذه الآية يكفينا مشاهدة صور من بعض الصحارى، ومزارع

بعض المناطق في أفريقيا كيف خيَّم عليها شبحُ الموت أثر التصحُّر المستمر، ورَحَلَ عنها مَلَكُ الحياة.والعجيب انَّ هذه الامواج اللطيفة للرياح التي تَخترقها قطراتُ الامطار بسهولة، تقوم باقتلاع الاشجار الضخمة، وتُدمِّرُ المبـــاني، وتختطفُ الانسان معها

* * *

وتتعقبُ الآية الثانية هذا الموضوع ايضاً بشيء من الاختلاف، فهي تصفُ الرياحَ بالمبشِّرات، وبالاضافة الى مسألة نزول الامطار فهي تشير الى حركة السفن بواسطة الهبوب المنظَّم للرياح ايضاً، فجاء في النهاية: (ولِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْن).ومن الممكن ان تكون عبارة (وَلِيُذِيْقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ) اشارة الى بقية فوائد الرياح، كتلقيح النبات، ودفع البخار المكثف، والتعفن المتصاعد، وتنقية الجو وغيرها كما تم توضيحه في تفسير الميزان(١).

* * *

وإهتَّم في الآية الثالثة بهذا الأمر ايضاً مع هذا التفاوت وهو اعتبار الرياحَ مقدمة لرحمته، ووصفَ الغيوم بـــ (الثِّقال) أي (الأحمال الثقيلة، جمع ثقيل) لانَّ الغيوم الممطرة اثقل من بقية الغيوم، وتكون قَريبة من الارض، لذلك عبَّر عنها القرآن الكريم بـــ(الثِّقال).و (اقلَّت) من مادة «إقْلالْ» وتعني حملُ شيء يكون خفيفاً بالنسبة لقدرة الحامل، فهو يعتبره قليلا ولا قيمة له، انَّ وجود هذا التعبير في الآية اعلاه يبرهنُ

---

(١) تفسير الميزان ج ١٦ ص ٢٠٩.

على انَّ الغيوم الثقيلة التي قد تحملُ معها ملايين الاطنان من المياه لا تُحّملُ الرياح

* * *

واستند في الآية الخامسة من بحثنا الى خلق سبعةِ اشياء مختلفة كآيات لله تعالى بالنسبة للمتفكرين والعقلاء وهي: خلق السماء، والارض، واختلاف الليل والنهار، والفُلك التي تجري

في البحر بما ينفع الناس، والامطار، وهبوب الرياح واختلافها، والسحب المعلقة بين الارض والسماء.واستند في هذه الآية على مسألة الحركات المختلفة للرياح (وَتَصْرِيْفِ الرِّياحِ)، وكذلك الغيوم المعلقة بين الارض والسماء (وَالسَّحــابِ الْمُسَخَّر بَيْنَ

السَّمــاءِ والأرْضِ)، السحبُ التي تحتوي البحار في ذاتها، وهي في ذات الوقت معلقة بين الارض والسماء، فهي في الواقع من اعظم آيات الله، «فعندما تُحيي الارضَ بنزول المطر فهي تبّثُ انواعاً مختلفةً من الدّواب على وجه الارض» (فأَحْيــا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَبَثَّ فِيْهــا مِنْ كُلِّ دابَّة).وعندما نشاهد انَّ الرياح والغيوم قد طُرحت في هذه الآية بعد نزول الامطار فلعلّها من اجل تعليم هذا الامر، وهو انَّ فائدة الرياح لا تنحصر بتحريك الغيوم وانزال المطر فحسب، بل لها فوائد جمّة اخرى تمّت الاشارة اليها سابقاً، وسيشار اليها في الفذلكة ايضاً.ناهيك عن نزول الامطار، فانّ الغيوم لوحدها تعتبر مسألة عجيبة ايضاً، لأنها تحتفظ ببحار من المياه وهي معلقةً بين الارض والسماء(١).* * *

وتستَند الآية السادسة الى مسألة مياه شرب الانسان، وتذكر موضوعاً جديداً حيث تقول: (أفَرَأَيْتُم المــاءَ الَّذي تَشْرَبُون ــ أَأَنْتُم أنزَلتُمُوه مِنْ المُزْنِ أمْ نَحنُ المُنْزِلُون)؟ ثم يضيف تعالى: (لَوْ نَشــاءُ جَعَلْنــاهُ أُجــاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُوْن) فلو أنَّ ماء البحر يصطحبُ اثناء تبخره الى السماء حبوب الاملاح الصغيرة، وتنزلُ المياه المالحة والمرَّة من الغيوم لتحولّت الارضُ الى مملحة، فلا ينمو نباتٌ، او شجر، واذا اراد الانسان ان يدفع الموت عنه اثر العطش لم يستطع ان يتجرع منه أبداً.هذا الامر الموجَّه الى المياه بالتّبخر، والاملاح الموجودة في مياه البحر بالبقاء في مكانها، قد اضفى طابعاً آخر على حياة الانسان، بل كل الاحياء على سطح المعمورة، فهل يستطيع شخصٌ ان يؤدي شُكرَ هذه النعمة مدى حياته؟!وكما قلنا فان (المُزْن) تعني الغيوم الممطرة و (الأجاج) تعني الماء

---

(١) يجب الانتباه الى انَّ السحاب : البخار المتراكم تسميه العرب (ضباباً) ــبالفتحــ مالم ينفصل من الارض فاذا انفصل وعلا سمي (سحاباً وغيما وغماماً) «الميزانج١ ص٤١١).

* * *

وفي الآية الثامنة يتحدث عن مسألة الرياح ونزول الامطار بتعبير جديد، فيقول: (وأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَواقِحَ).فهل انَّ المقصود هو تلقيح النباتات بواسطة الرياح ونثر لقاح ذكور النباتات على الاناث، وحملُ الفواكه والحبوب الذي يحدث عن طريق الرياح؟ أو حَمْل قطع الغيوم والحاق بعضها ببعض.نظراً لقوله في تكملة الآية: (فَأَنْزَلنَا مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوْه)، فيظهر انَّ المعنى الثاني اكثر تناسباً، بالرغم من امكانية الاستفادة من المعنيين معاً.على أية حال، فانَّ التعبير اعلاه تعبيرٌ لطيفٌ جداً حيث شَبَّه قِطعَ الغيوم بالامهات والآباء، حيث يخلطها عن طريق الرياح ثم تحملُ، وتضعُ جنينها أي قطرات الامطار على الارض!ويشيرُ في ختام الآية الى خزانات المياه المغطّاة تحت الارض، والتي هي من

[٢٣٦]

* * *

وفي الآية التاسعة، الاضافة الى اشارته الى نزول الامطار من السماء، فهو يشير الى مسألة تكوُّنِ الينابيع، فيقول: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ اَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيْعَ).و (ينابيع) جمع «ينبوع» وتعني العَيْن، وهي في الاصل مأخوذة من مادة (نَبْعْ) وتعني انبثاق الماء من الارض، ومن الطبيعي إنَّ تكوُّنَ الينابيع في الارض الذي يجعل الانسان يستفيد من الماء الجاري بدون الحاجة الى قوة اخرى، يتبع ظروفاً خاصةً اولُها: ان تكون طبقة الارض قابلة للاختراق كي يتغلغل الماء خلالها، ثم يجب ان يكون ما تحت هذه الطبقة صلداً كي يتوقف الماء ويُخزنَ هناك، وان يكون هناك فارقٌ في المستوى بين خزانات المياه والمناطق الاخرى حتى ينسابَ الماء من هناك الى بقية النقاط، ومن المسلَّم به استحالةُ تناسق هذه الأمور لولا تخطيط مُبديء العلم والقدرة.ويضيف في سياق الآية (ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعَاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ).فيمكنُ أنْ يكون اختلاف الالوان هذا اشارة الى الوان النباتات المختلفة تماماً، أو إشارة الى انواع النباتات وازهار الزينة والطب والغذاء والصناعة التي لها انواع لا تحصى في الواقع.أَجَل.. انَّ الله تعالى يستخرج من هذا الماء الذي لا لون له مئات الآلاف من

[٢٣٧]

* * *

وتمّت الاشارة في الآية العاشرة الى نكتة جديدة اخرى، فيقول: (وأَنْزَلْنا مِنَ المُعْصِراتِ مَاءً ثُجّاجاً).و (مُعْصِرات)جمعُ «مُعْصِر» من مادة «عَصْر» وتعني الضغط، والمُعصرات تعني الضاغطات، وهنا ما هو المقصود بهذا التعبير؟ لقد ذكروا تفاسير متعددة: فالبغض اتخذها صفةً

للغيوم، إذ اعتبرها اشارة الى نظام خاص يتحكم بها عندما تتراكم على بعضها، فكأنما تعصُر نفسها كي تجري الامطار منها، واعتبر هذا التعبير من المعاجز العلمية للقرآن الكريم(١).إلاّ انَّ البعض الآخر اتخذها صفةً للرياح، واعتبرها اشارة الى العواصف والزوابع الترابية، حيث لها تأثيرٌ عميق في تكوين الامطار والرعد والبرق (علماً ان «الاعصار» يعني الزوابع الترابية).فيقول هؤلاء.. اثناء هبوب الزوابع الترابية الشديدة على سطح البحار والمحيطات فانها تحمل معها البخار من على سطح المحيط، وحينما تصل به الى نقاط الجو العليا الباردة جداً، وحيث تكون قدرة اشباع البخار هناك ضعيفة، يحصل الرعد والبرق الشديد، وبما انَّ «ثجّاج» صيغة للمبالغة، وهي من مادة «ثجّ» (على وزن حج) وتعني سكب الماء تتابعاً وبكثرة فهي تتناسب كثيراً مع مثل هذا الرعد

---

(١) يُراجَع كتاب «الريح والمطر» ص ١٢٦ .

والبرق(١).
واعتبرها البعض اشارة الى الغيوم التي تتزامن مع الزوابع الرملية والعواصف(٢)، فهذه العواصف تسوق الغيوم نحو الاعلى، وتأخذها نحو مناطق

* * *

وفي الآية الحادية عشرة، وبعد بيان ما جاء في الآيات السابقة (وَهُوَ الذي يُرسلُ الرِّيــاح بُشراً بَيْنَ يَدَي رَحْمَتِه)، يَرِدُ ما يلي (وأنْزَلنــا مِنَ السَّماءِ مــاءً طَهُوْراً).وهذا موضوع جديد حيث يستند اليه في هذه الآية.و (الطّهور) صيغة مبالغة من «الطهارة» والنقاوة حيث تفيد طهارةَ الماء وكذلك كونه مطهّراً، ولو لم تكن للماء صفة التطهير لتلوثت كلُّ مقومات حياتنا واجسامنا وارواحنا خلال يوم واحد، ويمكن ان نلمسَ حقيقة هذا الكلام اذا ما ابتُلينا تارة بفقدان ماء للتنظيف، حينها يصعبُ توفير الغذاء، وسنفقد نظافة الجسم والنشاط والطراوة والصحة والسلامة. صحيحٌ انَّ الماء لا يقتل الجراثيم ولكن لكونه (مُحَلَّلا) جيداً فهو يقوم بتحليل انواع الجراثيم ويزيلها، ولهذا فهو عاملٌ مؤثرٌ من

---

(١) (اعجاز القرآن في نظر العلوم المعاصرة) ص ٦٧ .(٢) «التفسير الكبير للرازي» ج ٣١ ص ٨ إذ ذكر هذا المعنى كأحدِ التفاسير لهذه الآية.

* * *

ثم نواجه في الآية الثانية عشرة والاخيرة مسألةً جديدةً وهي انَّ الله تعالى يسوق المياه الى الارض «الجُرُز» أي الجافة اليابسة الخالية من الكلأ، فيقول: (أولَمْ يَرَوْا انّا نَسُوْقُ المـــاءَ الى الأرضِ الجُرُز)؟! (فَنُخرِجُ بِه زَرَعاً تَأكُلُ مِنْهُ أنْعــامُهُمْ وأَنْفُسُهُمْ)، فيَأكلون الحبوب وتأكل بهائمهُمَ السوق والاوراد والجذور.ويستفاد من كلام ارباب اللغة ان (الجُرُز) ماخوذة في الاصل من مادة (جَرَز) (على وزن مَرَضْ) وتعني (الانقطاع) أي انقطاع الماء، والنبات، والاعمار والطراوة، ولذا يقال للناقة التي تأكل وتقطع كل شيء بـــ «ناقة جروز»، ولمن يأكل كل ما موجود على خوان الطعام ويفرغها تماماً بـــ «رجل جروز»(١).ويقول في نهاية الآية داعياً الى التفحص في هذه النِعَم الالهية العظيمة وآيات التوحيد: (أَفَلا يُبْصِرُوْن).ولكن لماذا تقدمت (الانعام) على الانسان في الآية اعلاه؟ يقول بعض المفسِّرين: لأنَّ الزرعَ اول ما ينبت يصلح للدواب ولا يصلح للانسان بالاضافة الى انَّ الزرعَ غذاء الدَّواب وهو لابدَّ منه، في حين ان للانسان اغذية اخرى(٢).

.

النتيجة :

يستفادُ جيداً من الآيات الآنفة وبالانتباه الى المسائل الدقيقة والظريفة التي انعكست فيها، انَّ هناك نظاماً دقيقاً جداً ومضبوطاً يسود وجود الرياح والغيوم والامطار، حيث كلّما أطالَ الانسانُ التمعُن فيها تزداد معرفته بالظرافة والمنافع

---

(١) (التحقيق في كلمات القرآن الكريم) و «مصباح اللغة» .(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٢٥ ص ١٨٧ .

والبركات الكامنه فيها.فقد اعتُبر الماء في بعض هذه الآيات اساساً للحياة، وفي بعضها وسيلةً للنظافة، وفي بعضها كموجود مبارك (سورة ق ٩)، وفي البعض الآخر كمشروب سائغ (مـــاءً فُراتاً)(١).* * *

.

التوضيحات :

.

١ ــ تكوين الرياح وفوائدها:

إنَّ مصدرَ حصول الريح هو الاختلاف في درجة الحرارة بين منطقتين مختلفتين من الارض، ويمكن تجربة هذا اثناء فصل الشتاء حيث يكون هواء الغرفة حاراً وفي خارجها بارداً، فلو وضعنا شمعتي إضاءة عند طرفي الباب العلوي والسفلي وفتحنا الباب قليلا سيتضح هذا الأمر جيداً إذ انَّ الهواء البارد وبسبب ثقله يدخلُ من الاسفل والهواء الحار يخرج من الاعلى لخفّته ويجرُّ شعلةَ الشمع معه (انَّ الهواء الحار يكون ممتداً و خفيفاً والهواء البارد ثقيلا ولو لم تكن هذه الصفة وتتوقف الرياح فايُّ بلاء عظيم ينزلُ على الانسان؟!).كما نعرفُ ايضاً انَّ للكرة الارضية ثلاث مناطق، فالمنطقة الباردة (الاطراف القطبية)، والحارّة جداً (المناطق الاستوائية)، والمعتدلة (المناطق التي تتوسط هاتين المنطقتين).وهذا الاختلاف في درجات الحرارة على الارض يُنتجُ انتقال الهواء من جهة الى اخرى واهمه الرياح التي تُسمى «الرياح القطبية» (وهي الرياح التي تهبُّ من القطب نحو المنطقة الاستوائية ولأنّها تكونُ باردةً فهي تسير مع الارض)، والرياح

---

(١) (المرسلات الآية: ٢٧).

«الاستوائية» (وهي الرياح التي تهبُّ من المنطقة الاستوائية نحو القطب وبما انّها تكون حارَّة فهي تتحرك في طبقات الجو العليا)(١).فضلا عن ان ماء المحيطات لا يكون حاراً كحرارة السواحل اثناء شروق الشمس، اضافة الى انَّ ماء البحر يفقد حرارته ليلا اسرعُ مما يفقده الساحل، فهذا الاختلاف في درجات الحرارة بين ماء البحر والساحل يتسبب ايضاً في هبوب الرياح باستمرار من البِّر الى البحر ومن البحر الى البِّر ايضاً.واضافة الى كل هذا فانَّ كروية الارض تؤدي الى أن تقع بعضُ المناطق في مواجهة الشمس مباشرة (اثناء الظهر)، وأن تَشِّعَ الشمسُ على المناطق الاخرى بشكل مائل (اثناء الشروق والغروب)، فهذا الاختلاف في درجات الحرارة احد اسباب حصول الرياح في مختلف المناطق ايضاً (وكذلك هناك عوامل معقّدة اخرى).وتتظافر هذه الاسباب في تحريك الرياح في سائر انحاء الكرة الارضية وتتزامن معها الفوائد الجمَّة التالية التي تمَّت الاشارة اليها في الآيات السابقة:١ ــ للرياح نصيبٌ مهمٌ في

تكوين الغيوم بسبب هبوبها على المحيطات.٢ ــ انَّ الرياحَ تصطحبُ معها الغيوم الى المناطق الجافة واليابسة ولولاها لاحترقَ جانبٌ كبير من الكرة الارضية بسبب الجفاف.٣ ــ انَّ الرياحَ تلطِّفُ الجوَّ وتجلبُ الاوكسجين الضروري من المناطق البعيدة.٤ ــ انَّ الرياحَ تأخذ معها التلوث حيث تساعد في تنقية الجو عن هذا الطريق.٥ ــ انَّ الرياحَ تُقللُ من ضغط حرارة الشمس على اوراق النباتات، وتمنع الاحتراق، وبصورة عامة فانها وسيلةٌ مهمةٌ لاعتدال الجو في بقاع الارض.

٦ ــ انَّ الرياح ــ وكما قلنا في تفسير الآيات ــ تعصُر الغيوم وتُعدُّها لانزالِ المطر.٧ ــ انَّ الرياح تسوقُ الغيوم نحو طبقات الجو العليا، وبسبب البرودة وفقدان قدرة التشبُّع تتحول الى قطرات مطر تهبُ الحياة.

---

(١) اعجاز القرآن في نظر العلوم المعاصرة ص ٦٥ .

* * *

٢ ــ اسرار تكوين الغيوم وهطول الامطار:

لا يخفى انَّ الغيوم هي ذرّات بخار الماء، أو بتعبير اكثر دقة هي ذرات الماء التي انفصلت جزئياتها عن بعضها وتحولت الى بخار، انَّ التمعنَ في ما يخص تكوّن الرياح والامطار يكشف لنا اسراراً لطيفةً عن هاتين الظاهرتين العجيبتين منها: ١ ــ انَّ اغلبَ السوائل لا تتبخر اذا لم تصل الى درجة الغليان، إلا أنَّ الماء من السوائل المستثناة حيث يتبخر في أي درجة من الحرارة، ولولا هذه الميزة في الماء

لما تبخرت قطرة واحدة من ماء البحر، ولم تتكون الغيوم، ولم ينزل المطر ولاحترقت اليابسة من الجفاف.

٢ ــ وهذا ما يجدر بالاهتمام ايضاً، فاثناء عملية التبخر يتبخر الماء الصافي فقط، وتبقى الاملاح والذّرات الاخرى التي فيه في مكانها، أي أن هناك عملية تصفية طبيعية كي ينالَ البشرُ المياهَ الصالحة.٣ ــ لو لم تكن الطبقات العليا من الجو اكثر برودة من الطبقات السفلى لما

امطرت الغيوم المضطربة في الجو أبداً، ولكن هذا الاختلاف في درجات الحرارة هو الذي يؤدي الى نزول الامطار، وكذلك لو كانت قدرة اشباع ذرات البخار متساوية في الهواء البارد والحار لما نزلت الامطار، ولكن بما انَّ الهواء البارد له قدرةُ اشباع ضعيفة فانّه يُنزلُ البخار الذي تحول الى ماء.٤ ــ ان الامطار اضافة الى توفيرها للماء الضروري لنمو النباتات، تقوم بغسل الارض وتحمل الاوساخ معها نحو البحار.٥ ــ انَّ الامطار تُنّظفُ الجوَّ ايضاً، وتقوم بانزال التراب والغبار والذّرات المعلَّقة في الجو التي تذوب فيها الى الارض، ولولا هطول الامطار لتلوَّثَ الجو بعد مدة قصيرة واستحالَ التنفُس على الانسان.٦ ــ انَّ الامطار تغسلُ صخور الجبال شيئاً فشيئاً، ليخرجَ منها التراب الذي يمكن استثماره، فتمتد السهول الواسعة على سطح الارض.٧ ــ انَّ الامطار تحمل معها الاتربة الغنيّة من المناطق البعيدة وتنشرها في المزارع لتقويتها، كما يجلب جريان الماء معه افضل الاسمدة الطبيعية للنباتات الى بعض المناطق (كسواحل النيل).٨ ــ انَّ الامطار لا تهبُ الحياة في المناطق الجافة فحسب، بل انَّ هطول الامطار على البحار يُعتبر مؤثراً للغاية ايضاً، وليس اقل من تأثيره في المناطق اليابسة كما يقول بعض العلماء، لأنَّ سقوط الامطار في البحر يساعد على نمو النباتات الصغيرة في وسط امواج المياه، حيث تكون طعاماً مناسباً جداً للاسماك والاحياء

البحرية، وفي السنة التي يقلُّ فيها نزول الامطار يسوء فيها وضع الصيد.٩ ــ انَّ ارتفاعَ الغيوم عن سطح الارض اكثر من ارتفاع اعلى نقاط الارض ولهذا فلا تُحرم أيةُ بقعة من الاستفادة من ماء المطر.١٠ ــ انَّ العديد من اشجار الغابات والاعشاب الطبيعية والغذائية تنمو على الجبال الشاهقة، وهذا يدل على انَّ الامطار تقوم بايصال الكمية اللازمة من الماء اليها، ولولا الامطار لجفَّت جميعها.١١ ــ لو تأملنا جيداً بالسدود الضخمة التي انشئَتْ في عصرنا هذا والتي تُؤمِّنُ جانباً مهماً من الطاقة الكهربائية في العالم، وتقوم بتشغيل المعامل العملاقة لوجدناها من بركات هطول الامطار على المناطق الجبلية.١٢ ــ انَّ بعض ترشحات الغيوم تنزلُ الى الارض على هيئةِ جليد فتُخزَن في قمم الجبال كمصادر للمياه، وتقوم بمساعدة خزانات المياه الموجودة تحت الارض ايضاً لأنها تذوب تدريجاً وتَنْفُذُ داخل الارض، ولكن لو تساقط الجليد باستمرار بدلا من المطر فلا وجود عندئذ للكثير من المنافع التي ذُكرت اعلاه.١٣ ــ الغيوم بحار معلقة في السماء، وما اعظمَ الاله الذي يُرسلُ كلَّ هذا الماء الى السماء خلافاً لقانون الجاذبية، ويقوم بنقله بسهولة من نقطة الى اخرى.١٤ ــ بالاضافة الى كل هذا فانَّ للغيوم تأثيراً ملموساً في خفض درجة البرودة شتاءً وخفض درجة الحرارة صيفاً.١٥ ــ انَّ الغيوم تحمل الشحنات الكهربائية المختلفة حيث تؤدي الى وقوع الرعد والبرق، وسوف نتحدث

عن هاتين الظاهرتين في البحث الذي يتعلق بالرعد والبرق ان شاء الله.وعلى العموم فانَّ هاتين الظاهرتين اللّتين نعتبرهما من الامور العادية جداً نتيجة لأُنْسِنا بهما، مدهشتان ومليئتان بالاسرار، ويمكن مشاهدة آيات التوحيد العظيمة في اعماق اسرارهما، والوصول الى عظمة تلك الذات المقدسة من خلال هذه الآيات العظيمة.

* * *

٣ ــ الرياح والامطار في الروايات:

نقرأ في الحديث المعروف بتوحيد المفضّل عن الامام الصادق((عليه السلام)) انه قال:«وانبهك يا مفضل على الريح وما فيها، ألست ترى ركودها اذا ركدت كيف يحدث الكرب الذي يكاد أن يأتي على النفوس، ويحرّض الاصحاء وينهك المرضى، ويفسد الثمار، ويعفّن البقول، ويعقّب الوباء في الابدان، والآفة في الغلات؟ ففي هذا بيان أنّ هبوب الريح من تدبير الحكيم في صلاح الخلق.ولو انّ ملكاً من الملوك قسّم في اهل مملكته قناطير من ذهب وفضة ألم يكن سيعظم عندهم ويذهب له به الصوت؟ فأين هذا من مطرة رواء؟ اذ يعمر به البلاد ويزيد في الغلاّت من قناطير الذهب والفضة في اقاليم الارض كلها.تأمل نزوله على الارض والتدبير في ذلك فانّه جعل ينحدر عليها من علو ليتفشّى ما غلظ وارتفع منها فيروّيه ولو كان انما يأتيها من بعض نواحيها لما علا على المواضع المشرفة منها ويقل ما يزرع في الارض وبها يسقط عن الناس في كثير من البلدات مؤونة سياق الماء من موضع الى موضع، وما يجري في ذلك بينهم من التشاجر والتظالم حتى يستأثر بالماء ذوو العزة والقوة ويحرمه الضعفاء. ثم انه حين قدّر ان ينحدر على الارض انحداراً جعل ذلك قطراً شبيهاً بالرش ليغور في قطر الارض فيرويها ولو كان يسكبه انسكابا كان ينزل على وجه الارض فلا يغوُر فيها ثم كان يحطم الزرع القائمة اذا اندفق عليها فصار ينزل نزولا رقيقاً فينبت الحب المزروع وفي نزوله ايضا مصالح اخرى فانه يلين الابدان ويجلو كدر الهواء فيرتفع الوباء الحادث من ذلك ويغسل ما يسقط على الشجر والزرع من الداء».ويقول في جانب آخر من الرواية:«فكّر يا مفضل في الصحو والمطر كيف يعتقبان على هذا العالم لما فيه صلاحه، ولو دام واحد منهما عليه كان في ذلك فساده، ألا ترى انّ الامطار اذا توالت

عفنت البقول والخضر واسترخت أبدان الحيوانات وخصر الهواء فأحدث ضروباً من الامراض وفسدت الطرق والمسالك وأنّ الصحو اذا دام جفّت الارض واحترق النبات وغيض ماء العيون والاودية فأضرّ ذلك بالناس وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضروبا اُخرى من الامراض فاذا تعاقبا على العالم هذا التعاقب اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر فصلحت الاشياء واستقامت»(١).ونقرأ فى حديث آخر عن الامام السجاد((عليه السلام)):«انزل من السماء ماءً يعني المطر ينزله من أعلى ليبلغ قلل جبالكم وتلالكم وهضابكم واوهادكم ثم فرقه رذاذاً ووابلا وهطلا لتنشفه ارضوكم، ولم يجعل ذلك المطر نازلا عليكم قطعة واحدة فيفسد ارضيكم واشجاركم وزروعكم وثماركم»(٢).٤ ــ لقد كشفت البحوث الحديثة للعلماء النقاب عن اسرار جديدة وبيَّنَتْ التأثيرات المهمة للرياح في نزول الامطار بكيفية جديدة حيث يُعتبر التوضيح الآتي نموذجاً منه (يجب توفر شرطين لتكوين الغيوم وهطول الامطار) وهما:

١ ــ وجود بخار الماء في الهواء.

٢ ــ تشَبُّع الهواء بالبخار وتقطيره.أما فيما يتعلق بالشرط الأول فبالرغم من انَّ الهواء لا يخلو على الاطلاق من بخار الماء وتبلغ ادنى نسبة له نحو ٥٠ غراماً في المتر المكعب، إلاّ انَّ هذا المقدار من الرطوبة لا يكفي لتكوين الغيوم ونزول الامطار، بل يجب امدادها باستمرار، أي يجب أن يصل هواءٌ جديدٌ مُحمَّلٌ ببخار الماء بعد تكوين الغيوم ونزول الامطار تباعاً، ويستمر هبوب الريح، ويكون انطلاقها أو مسيرتها من البحر أو الغابات الكثيفة كي يتزود من الرطوبة بالمقدار اللازم.

---

(١) بحار الانوار ج ٣ ص ١١٩ ــ ١٢٦ (مع الاختصار) .(٢) «نور الثقلين» ج ١ ص ٤١ ، وفي كتاب بحار الانوار ج ٥٦ ص ٣٤٤ ــ ٣٧٤ أيضاً وردت روايةٌ اشارت الى اسرار تكوُّنِ الغيوم والمطر.

[٢٤٧]

واما الشرط الثاني أي الوصول الى حالة الاشباع وحصول ظاهرة التقطير (تعرُّق الهواء وتحول البخار الى سائل) فهذا يستلزم برودة الهواء، كما يحدث في الشتاء اذ يَتعرق زجاج شبابيك الغرف التي تحتوي على ما يكوّن البخار كالسماور والقدر....والعامل الوحيد المؤثر في برودة الهواء ويوصله الى مرحلة تكوين الغيوم والتقطير هو ارتفاع الهواء وعلوه، ويحدث ارتفاع الهواء على ثلاثة اشكال او في ثلاث حالات، وينزل في كل حالة منها مطرٌ خاصٌ وهي: أـ اصطدام الهواء بالاجزاء البارزة من الارض والصعود من وسط الجبال حيث تنتج عنه الامطار الجبلية.ب ــ حرارة وخفَّةُ الهواء وصعوده السريع اثر اشعة الشمس وملامسة المناطق الحارة وتنتج عنه (امطار العواصف).ج ــ اصطدام جناحي الهواء الحار والبارد وتقلبهما وتنتج عنه (الامطار الغزيرة)، وانَّ الغيوم والامطار كافة تنشأ عن أحد هذه الوقائع الثلاث واهمها النوع الاخير.اذن فالهواء يرتبط بالغيوم والامطار في كل المراحل فهو يتدخل ابتداءً من حمل البخار وايصاله الى المناطق الجافة، مروراً وانتهاءً بهزّ الغيوم وانزال المطر، وليس من الممكن حصول الغيوم والامطار بدون الهواء، والمعروف ان الغيوم ليست سوى الهواء (أي الهواء المحمَّل بالماء).وورد في قسم آخر من هذا البحث: «انَّ قطرات الامطار تسيل من الغيوم المتكونة من عدة طبقات والتي ترتفع اكثر من عشرة كيلو مترات، وهذه الغيوم العارية الصاخبة تظهر على هيئة جبال حيث يُغطى القسم الاعلى منها بقضبان الثلج وقطع الجليد وقد تكون ممتلئة بالبرَدِ».وحتى قبل الحرب العالمية الاولى حيث تمكنت الطائرات حينذاك من الارتفاع فوق الغيوم وشاهد الطيارون الستائر المتكونة من الجليد والناشئة من الغيوم

[٢٤٨]

المتصاعدة، لم يكن لأي شخص علمٌ بوجود الجليد والبَرَدِ في غيوم السماء.«فالصعود المتقلِّب اللاطبقي للرياح الرطبة والحارة يؤدي الى تكوين جبال عالية من الغيوم المتجمدة التي تتزامن مع الزوابع الشديدة وسط الرعد والبرق المتتابعين»(١).ويمكن ان يعطي هذا التوضيح تفسيراً جديداً للآية «٤٣ من سورة النور» ويرفع الحجاب عن معجزة علمية لطيفة للقرآن الكريم، حيث يقول: (وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبــال فِيهــا مِنْ بَرَد فَيُصِيْبُ بِهِ مَنْ يَشــاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَنْ يَشاءُ يكادُ سَنابَرْقِهِ يَذْهَبُ بالأبْصــار)فأيُّ جبل في السماء توجدُ فيه قطع البَرَدِ؟ هذا السؤال الذي كان صعباً ومعقداً بالنسبة للكثيرين، ولهذا فقد ذكروا له عدة تفاسير.ولكن من خلال الاكتشافات اعلاه يتضح عدم الحاجة الى التبرير والتقدير والمجاز وامثال ذلك لتفسير الآية المزبورة، ويتبينُ معنى الآية في ظل هذا الأمر(٢).

(١) «الهواء والمطر» ص ٥٧ ــ ٦٥ (مع الاختصار) .(٢) من اجل المزيد من الايضاح يراجع التفسير الامثل ج ١٤ ص ٥٠٢ وما بعدها .

[٢٤٩]

١٢ ــ آياته في حدوث الرعد والبرق

[٢٥٠]

[٢٥١]

التمهيد :

هنالك القليل ممن يولي ادنى اهتمام لهاتين الظاهرتين السماويتين قبل دراسة اسرار الرعد والبرق، وعادةً ما يمرُّالجميعُ عليها مرور الكرام، ولعلَّ بعضهم ينظرُ اليها وكأنَّها مزاحُ الطبيعة، كما يتحدث بعض آخر حولها بقصص خرافية، إلا انَّ الحقيقة هي انَّ هاتين الظاهرتين تحدثان من خلال نظام خاص، ولهما آثارٌ وبركاتٌ جديرةٌ باهتمام الانسان حيث سيأتي شرحها في تفسير الآيات الآتية.بعد هذا التمهيد نقرأ خاشعين بعض آيات القرآن الكريم في هذا المجال:١ ــ (ومِنْ آياتِهِ يُريْكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمــاءِ ماءً فَيُحْيي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهــا اِنَّ في ذلِكَ لآيات لِقُوم يَعْقِلُون)(١).
٢ ــ (هُوَ الَّذي يُريْكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِىءُ السَّحابَ الثِّقــال)(٢).٣ ــ (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ والْمَلائِكَةُ مِنْ خيْفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيْبُ بِهــا مَنْ يَشــاء)(٣).* * *

شرحُ المفردات :

(البرق) كما يقول الراغبُ في المفردات تعني في الاصل النورَ الذي يظهر

(١) (الروم الآة: ٢٤) .
(٢) (الرعد الآية: ١٢) .
(٣) (الرعد الآية: ١٣) .

من الغيوم، ثم استُعملت للتعبير عن كل شيء ساطع، فمثلا يقال للسيفِ اللامعِ: (السيفُ البارق).اضافة الى ذلك، يستفاد من «مقاييس اللغة» انَّ «البرق» لها معنى آخر، وهو اجتماع السواد والبياض في شيء واحد، ولكنَّ الظاهر إنَّ المعنى الثاني يعود الى المعنى الأول، لأن السواد عندما يكون الى جانب البياض يُبدي بريقاً اكثر، كما اعتبر بعضٌ مفهومَ الشَّدةِ والضغط جزءاً من معنى البرق ايضاً فيقولون: انَّ البرقَ واللمعان يحدثان بشكل خاص من خلال الشدَّة والضغط(١).ويقول «الراغب» انَّ «الرعد» هو صوت الغيوم، وتُستعمل كناية ايضاً عن تحطُّمِ وسقوط الشيء الثقيل المتزامن مع الصوت، إلا أنَّ صاحب «مقاييس اللغة» ذكرَ أنَّ معناها الحقيقي هو الحركة والاضطراب، ولكن بصورة عامة، يستفاد جيداً من كتب اللغة انَّ المعنى الحقيقي هو الصوت الذي ينطلق من الغيوم، وبقية المعاني لها صبغةٌ كنائية.و (الصواعق) جمع «صاعقة»، وتعني في الاصل الصوت الشديد المهيب الذي ينطلقُ من الجو مصحوباً ببريق ناريٍّ عظيم، وجاءت هذه المادة ايضاً بمعنى الذهول بسبب سماع الاصوات القوية، وقد تستعمل بمعنى الهلاك ايضاً.وقال بعض ارباب اللغة: إنَّ موارد استعمال الصاعقة ثلاثة وهي: «الموت» و«العذاب» و «النار»(٢) إلاّ انَّ الظاهر انَّ جميعها من لوازم المعنى الحقيقي.* * *

جمع الآيات وتفسيرها :

اسرار خلق الرعد والبرق: تعتبرُ الآية الاولى من البحث بشكل صريح، أنّ برقَ السماء أمن آيات الله

---

(١) «التحقيق في كلمات القرآن الكريم» مادة «برق» .(٢) «مفردات الراغب» و «لسان العرب» و «التحقيق في كلمات القرآن الكريم».

* * *

وورد هذا المعنى في الآية الثانية من بحثنا بتعبير آخر تعريفاً بالذات الالهية المقدّسة عن طريق آثاره فيقول تعالى: (هُوَ الَّذي يُرِيكُمْ البَرْقَ خَوْفاً وطَمَعاً).الخوفُ من الصواعق والتفاؤل بنزول المطر، أو خوف المسافرين، وتفاؤل المقيمين في المدن والارياف.واللطيف انه يقول بعد ذلك مباشرة: (ويُنْشِئُ السَّحــابَ الثِّقــال).وقيل في بيان هذه الجملة (تتزامن مع العواصف

القويّة زوابع من الغيوم، فتغطي اعالي الجو القرب من الارض، فيصبح الجو مظلماً، وتتولد الكهرباء نتيجة تلاطم الرياح، وتهتز الارض والجو بسبب صوت الرعد المتتابع، واخيراً فانَّ الغيوم المتراكمة في طبقات الجو السفلى سميكة ومحملة بكثير من قطرات المياه الكبيرة لذلك تكون ثقيلة للغاية على الرياح المحركة(١).

---

(١) «الريح والمطر» ص ١٣٨ .

* * *

ويشير في الآية الثالثة والاخيرة من بحثنا الى ظاهرة «الرعد» فيقول: (ويُسَبِّحُ الرَعْدُ بِحَمْدِهِ).ويُبَيِّنُ هذا التعبير انَّ هذه الظاهرة السماوية ليست مسألة عاديةً، بل تُنبىءُ عن علم وقدرة الله تعالى، لأنَّ (التسبيح) يَعني التنزيه عن كل عيب ونقص، و (الحمد) تعني شكره مقابل الكمالات، وعليه فانَّ صوت الرعد يتحدث عن الاوصاف الجمالية والجلالية لله تعالى!ويمكن ان يكون هذا الكلام بلسان الحال، كما يتحدثُ اختراعٌ مهمٌ عن علم ووعي المخترع، او لوحةٌ جميلةٌ جداً عن الذوق الحاد للرسام، او قطعة شعرية عن الذوق الادبي للشاعر، فتمدحه وتشكره، فتكون لسان حال، كما قالَ بعض المفسرين بانَّ لدى ذرات هذا العالم كافة عقلا وشعوراً، كل حسب حظه، وتسبيحها وحمدها ينبع من العقل والشعور والادراك.يقول الفخر الرازي في تفسيره:«فلا يبعد من الله تعالى ان يخلق الحياة والعلم والقدرة والنطق في اجزاء السحاب فيكون هذا الصوت المسموع فعلا له.فاذا لم يبعد تسبيح الجبال في زمن داود((عليه السلام)) ولا تسبيح الحصى في زمان محمد((صلى الله عليه وآله وسلم))»(١).فليكن ايٌّ الاحتمالين، فليس هنالك اختلافٌ في بحثنا، وعلى كل حال انَّ هناك اسراراً خفيّةً في هذه الظاهرة السماوية حيث تكشفُ عن عظمةَ الخالق وآيةً من آياته.والمعروف انَّ الماء والبخار، والغيوم موجوداتٌ لا تتوافق مع النار، ولكن بقدرة الخالق تنطلقُ منها نارٌ هائلة اكثر احراقاً من انواع النيران على الارض كافة، وكذلك البخار، الجسم اللطيف جداً، ولكن ينطلقُ منه صوتٌ لا ينطلقُ من سقوط

---

(١) «التفسير الكبير» ج ١٩ ص ٢٥ .

* * *

التوضيحات :

١ ــ الرعد والبرق في نظر العلم المعاصر:يعتقد العلماء المعاصرون أنَّ بريق السماء يحدث من خلال تقارب قطعتين من الغيوم المحملة بالشحنات الكهربائية المختلفة واحدة موجبة والاخرى سالبة، فتُحدِثان بريقاً كما يحصل من اقتراب قُطبَيْ الموصل الكهربائي تماماً.وحيث تتحمَّل قطع الغيوم بالشحنات الكهربائية العظيمة يكون بريقها عظيماً ايضاً، ونحن نعلمُ انَّ لكلِّ بريق صوتاً، وكلّما اشتد البرقُ كلما تعاظم صوته، ولهذا قد يكون الصوت المهيب لهذا البرق من الشدّةِ بحيث يهزُّ جميع المباني ويُحدثُ صوتاً كالقنابل الضخمة.ولكن البرق لا يظهر بين قطعتي الغيوم دائماً لتكون بعيدة عن متناول الانسان ولا تُسبب أيَّ خطر، بل قد تقترب الغيوم الحاوية على الشحنات الموجبة من الارض، وبما انَّ الارض تحتوي على الشحنات السالبة لذلك يحدث البرق بين «الارض» و «الغيوم»، وهذا البرق العظيم الذي يسمى بالصاعقة خطيرٌ للغاية، فهو يُحدثُ هزَّةً شديدةَ في المنطقة التي يقع فيها، وكذلك يولد حرارة عالية جداً بحيث اذا اصابت أيَّ شيء تجعلُهُ رماداً(١).

---

(١) مع انَّ مدة الصاعقة لا تتجاوز عُشرَ الثانية وقد تكون ١٠٠ ١ من الثانية، ولكن الحرارة التي تنتج تصل الى ١٥٠٠٠ سانتيغراد بامكانها التسبب في حدوث اخطار بالغة الشدّة (حرارة سطح الشمس ٨٠٠٠ فقط) (اعجاز القرآن ص ٧٨) .

ونظراً لتجمع الشحنات على الاجزاء المدببة للاجسام ففي الصحاري التي تحدث فيها الصواعق، يظهر البرق في النقاط المرتفعة كرؤوس الاشجار، وحتى رأس الانسان المار عبرها، لذلك يعتبر التوقف في الصحاري اثناء الجو العاصف المليء بالرعد والبرق خطيراً للغاية، وفي مثل هذه الحالات يمكن ان يزيلَ اللجوءُ الى الوديان أو الاقتراب من الاشجار واسفل الجبال والتلال الخطر الى حد ما (ان الاتكاء على الاشجار والشبابيك الحديدية لا يخلو من خطورة ايضاً).تتضح جيداً من خلال التوضيح اعلاه اخطارُ البرق وعامل الخوف الذي أُشيرَ اليه في الآيات الآنفة.

٢ ــ فوائد وبركات الرعد والبرق :

بالرغم من اخطار الرعد والبرق التي أُشير اليها سابقاً فانَ لها فوائد جمّةً ايضاً، حيث سنشير الى بعضها هنا:أ ــ الري ــ من المعروف ان البرق يولِّدُ حرارة عاليةً جداً، قد تبلغ١٥ ألف درجة سانتيغراد، وهذه الحرارة كافية لاحراق مقدار كبير من الهواء المحيط مما يؤدي الى هبوط الضغط الجوي مباشرة، ونحن نعلمُ انَّ الغيومَ تُمطرُ اثناء هبوط الضغط، ولهذا فغالباً ما تبدأ الزوابع عقبَ حدوث البرق وتنزل قطرات الامطار الكبيرة، وفي الواقع يعتبر الري من هذا الجانب أحد بركات البرق.

ب ــ رش السموم ــ عندما يظهر البرق بتلك الحرارة، تتألف قطرات المطر بكميات اضافية من الاوكسجين، فيحصل الماء الثقيل أي الماء المؤكسد (h_2O)، ونحن نعلم انَّ من آثار هذا الماء هو القضاء على الجراثيم، ولهذا يستعمل طبياً في تنظيف الجروح، فهذه القطرات تقضي على بيوض الآفات

[٢٥٧]

المسببة لامراض النباتات عندما تنزل الى الارض، وتقوم برش السموم على احسن وجه، لذلك فقد قالوا: في كل سنة يَقلُّ فيها الرعد والبرق تزداد الآفات النباتية.

ج: التغذية والتسميد ــ انَّ قطرات المطر واثر حدوث البرق وحصول الحرارة الشديدة الناتجة عنه وتركيبها الخاص، تحصل على حالة من حامض الكاربونيك، فتقوم بتكوين سماد نباتي مؤثر اثناء تناثرها على الارض وتخلُّلها فيها، فتتغذى النباتات عن هذا الطريق.ويقول بعض العلماء: إنَّ كمية السماد الحاصل من حالات البرق في السماء خلال سنة واحدة يبلغ عشرات الملايين من الاطنان، وهذا رقم مرتفعٌ للغاية.بناءً على ذلك نرى انَّ هذه الظاهرة الطبيعية العاديّة وغير المهمة الى أيَّ حدٍّ مفيدة ومليئة بالبركة؟ فهي تسقي، وترش السموم ايضاً، وتقوم بالتغذية، وهذا نموذج صغيرٌ من الاسرار العجيبة لعالَم الوجود حيث يصلح أنْ يكون دليلا في الطريق لمعرفة الله.كل هذا من بركات البرق، ولكن الحرائق التي تنتج عن نوع منه وهي الصواعق من جانب آخر قد تحرق الانسان أو البشر والمزارع والاشجار، بالرغم من انَّ هذا الأمر قليلٌ ونادر الوقوع ويُمكن اجتنابه، إلاّ أنّه بامكانه ان يصبح عامل خوف وهَلَع، وعليه فانَّ ما قرأناه في الآية السالفة بانَّ البرق اساسٌ للخوف واساسٌ للأمل ايضاً قد يكون اشارة الى مجمل هذه الأُمور.ومن الممكن ان تكون عبارة (وَيُنْشِئُ السَّحــابَ الثِّقال) الواردة في نهاية الآية اعلاه لها ارتباط بميزة البرق هذه التي تؤدي الى تحمُّلِ الغيوم بقطرات الامطار.

[٢٥٨]

.

١٣ ــ آياته في خلق البحار والفُلك

[٢٥٩]

[٢٦٠]

.

تمهيد :

نحنُ نعلمُ انَّ الماءَ يغطي ثلاثة ارباع سطح الارض، وان المحيطات والبحار ترتبط مع بعضها، كما نعلم انَّ الانسان قد استثمر البحار للحمل والنقل منذ غابر الأيام على افضل وجه، بالاضافة الى استغلاله لجانب مهم من المواد الغذائية الكامنة في البحر، وكذلك فانَّ القسم الاعظم من مختلف المواد التي تُستعمل في الصناعات يُستخرجُ من البحار.والاهم من كل ذلك، أنه لا يخفى على أي شخص دور البحار في تكون الغيوم وسقي الاراضي اليابسة كافة، وواضحٌ للجميع تقريباً وضعُ حيوانات البحار وتنوعها وعجائبها.لهذه الاسباب اعتبرَ القرآنُ الكريم البحارَ والفلك من آيات الله، ودعا الناس الى التمعنِ في اسرارها.بعد هذا التمهيد نيَممُ وجوهنا صوب القرآن الكريم ونقرأ خاشعين الآيات الآتية:١ ــ (وهُوَ الَّذي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهــا وَتَرى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيْهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون)(١).٢ ــ (وَمــا يَسْتَوي الْبَّحرانِ هــذا عَذْبٌ فُراتٌ ســائِغٌ شُرابُهُ وهــذا مِلْحٌ اُجــاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأكُلُوْنَ لَحْماً طَرِيّاً وتَسْتَخْرِجُوْنَ حِلْيَةً تَلْبَسُوْنَهــا وتَرى الْفُلْكَ فِيْهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوْا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَكُمْ تَشْكُرُون)(٢).

---

(١) (النحل الآية: ١٤).

(٢) (فاطر الآية: ١٢).

[٢٦١]

٣ ــ (اللهُ الَّذي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيْهِ بِأمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَكُمْ تَشْكُرُون)(١).٤ ــ (ومِنْ آيــاتِهِ الْجوارِ في الْبَحْرِ كَالأعْلامِ أنْ يَشَأ يُسْكِنِ الرِّيْحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إنَّ في ذلِكَ لآيــات لِكُلِّ صَبّار شَكُور)(٢).٥ ــ (أَلَمْ تَرَ اِنَّ الْفُلْكَ تَجْري في الْبَحْرِ

بِنِعْمَةِ اللهِ لِيُرِيكُمْ مِنْ آياتِهِ أنّ في ذلِكَ لآيات لِكُلِّ صَبّار شَكُور)(٣).٦ ــ (انَّ في خَلْق السَّمــواتِ والأرْضِ... والْفُلْكِ التي تَجْري في الْبَحْرِ بِمــا يَنْفَعُ النّاسَ... لآيات لِقَوْم يَعْقِلُون)(٤).٧ ــ (رَبُّكُمُ الَّذي يُزْجي لَكُمُ الْفُلْكَ في الْبَحْرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إنّهُ كــانَ بِكُمْ رَحِيْماً)(٥).* * *

شرح المفردات :

(البَحْر) حسب قول الراغب في «المفردات»، انَّ «البحر» هو المكان الواسع الذي يتجمع فيه ماءٌ كثير، كما يطلقُ على كلِّ شيء واسع، و «متبحر» او «مستبحر»: يقال للشخص الذي يمتلك علماً واسعاً، ويقال للتغيُّر الذي يحدث للعليل فجأة بــ«بُحران» (ثم أُطلقَ لفظ «بُحران» على الحوادث الحادة) واعتبر بعضٌ انَّ الملوحةَ تدخل في مفهوم «البحر» ايضاً علماً إنَ البَحر يُطلقُ على الماء العذب ايضاً(٦)، و (الفُلْك) (على وزن قُفْل) وتعني السُفن، ويستوي فيها المفرد

---

(١) (الجاثية الآية: ١٢) .
(٢) (الشورى الآية: ٣٢ و ٣٣).
(٣) (لقمان الآية: ٣١).
(٤) (البقرة الآية: ١٦٤) .
(٥) (الاسراء الآية: ٦٦).
(٦) «صحاح اللغة» و «المقاييس» و «مفردات الراغب» و «مجمع البحرين» و«لسان العرب».

والجمع والمذكَّر والمؤنث، ولفظ (فلَكْ) (على وزن فَدَك) يعني مسير ومدار النجوم وتفرَّعَ من هذا الأصل.و (الجواري) جمع «جارية» وهي مأخوذة في الاصل من «الجري» أي العبور السريع، ويقالُ «جارية» للسفن التي تجري وتتحرك في البحار، ويقالُ للشابّةِ في لغة العرب «جارية» ايضاً وذلك لنشاط الشباب الذي يملأُ كل وجودها. وجاء في «المصباح المنير» انَّ اطلاق لفظ «الجارية» على الخادمة لِكونها مسخَّرةً لأوامر مولاها وتجري لانجاز الاعمال باستمرار.و (مواخر) جمع «ماخرة» وتعني السفينة وهي من مادة «مَخْرْ» (على وزن فَخْر) كما تطلق على جريان الماء في الارض وانفطارها، وكذلك تطاير الماء من على جانبي السفينة، كما تستعمل هذه المفردة لاصوات هبوب الرياح، والظاهر انها من لوازم المعنى الاول(١).* *

*

جمع الآيات وتفسيرها :

عجائب البحار !تقول الآية الاولى معرّفة بالذات الالهية المقدسة (وَهُوَ الّذي سَخَّرَ البَحْر).ويدلِّلُ هذا التعبير على انَّ البحر بكل وجوده في خدمة الانسان، والحق كذلك، فاولُ براعم الحياة تتفتحُ في البحار، وقد كان البحر فيما مضى وحاضراً مصدراً مهماً لانواع حاجات الانسان وديمومة حياته.

(١) «مفردات الراغب» «المصباح المنير» «التحقيق في كلمات القرآن» «لسان العرب».

ويستند في سياق هذه الآية الى ثلاثة مواضع:.

اولها:

يستطيع الانسان أنْ يستخرج من البحر لحماً طرياً اذ يقول: (لِتَأكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً).لحمٌ كثيرٌ لم يتحمل الانسان عناءَ تربيته ابداً، ويكون طريّاً بشكل كامل وفي متناول يده في اغلب نقاط الارض.انَّ الاستناد الى طراوة وطزاجة هذا اللحم، اضافة الى اشارته الى لذة لحم الاسماك، فهو تذكيرٌ بهذه النكتة، وهي انَّ الناس في تلك العصور والازمان كانوا يستغلّون اللحوم القديمة بسبب المشكلات التي تواجههم في صيد اللحوم الطريّة، وهذه النعمة ذات اهمية خاصة، وفي عصرنا وزماننا حيث تتوفر اللحوم القديمة والمجَمَّدة لاسباب مختلفة تتضح اهمية هذا التعبير.ويقول بعض المفسرين: هذا التعبير اشارة الى عظمة الله عز وجل وقدرته في خلق اللحوم الطرية اللذيذة في المياه المالحة(١).ويُمكنُ ان يكون التعبير بـــ (اللحم) اشارة الى انَّ القسم الاعظم من جسم السمك يتكون من اللَحم وفيه قليلٌ من العظام، على العكس من بقية الحيوانات.وتتضح اهمية هذه النعمة الالهية اكثر من خلال الالتفات الى ان استغلال لحوم الاسماك لتغذية البشر اصبحت تحظى باهتمام بالغ بسبب ندرة المواد الغذائية..

وثانيها:

يذكر فائدة البحر في استخراج وسائل الزينة لا سيما الجواهر (وتَسْتَخرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُوْنَهـــا).فكأنّه يقول: يخرجُ من البحر المواد الغذائية الضرورية جداً وحتى الحاجات غير

الضرورية والكمالية، (وكُلُّها مُسخَّرةٌ لَكُم).وفي الموضع الثالث يخاطب النبي((صلى الله عليه وآله وسلم)) قائلا: (وَتَرى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيْهِ).

---

(١) روح المعاني ج ١٤ ص ١٠٢ .

* * *

وفي الآية الثانية تكررت ذاتُ النِّعم الثلاث التي أُشيرَ اليها في الآية السابقة (اللَّحم الطري، والحُلي، وحركة السفن على سطح البحار) ايضاً، واستند اليها، مع هذا الاختلاف حيث يشير في مطلع الآية الى بحار الماء العذب والماء المالح فيقول: (وَمـــا يَسْتَوي الْبَحْرانِ هــذا عَذْبٌ فُراتٌ ســـائِغٌ شَرابُهُ وهــذا مِلْحٌ أُجـــاجٌ).ومع انَّ اكثر مياه البحار على سطح الارض مالحة إلاّ أنَّ بحار وبحيرات المياه العذبة ليست قليلة ايضاً، حيث تُشاهَد نماذجُ عديدة منها في الولايات المتحدة، وكثيراً ما يستفاد منها، اضافة الى الانهار الكبيرة التي تصب في البحار المالحة وتتوغل فيها، فتدفع المياه المالحة الى الخلف ولا تختلط معها لفترة طويلة فتُشكِّلُ بحراً من الماء العذب حيث يسقي كثيراً من السواحل اثناء المد والجزر، مما يؤدي

* * *

وفي الآية الرابعة اعتبر السُفنَ العملاقة التي تشبه الجبال المتحركة والتي تظهر على سطح البحر من آيات وآلاء الله، فيقول (ومِنْ آياتِهِ الْجَوارِ في الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ).حقاً.. مَنْ خلقَ المحيطات بهذه السِعَةِ والعمق والخصائص؟ ومنْ الذي مَنَحَ الخشبَ والحديد هذه الميزةَ بحيث يطفو على وجه الماء؟ ومَنْ الذي أَمَرَ الرياحَ أنْ تَهُبَّ بشكل منظَّم على سطح البحار وتمنح الانسان فرصة الانتقال من نقطة الى اخرى، ويستخرج ملايين الثروات عن طريق البحر؟أليسَ هذا نظام مُتقن ومُحكَم، وكذلك النظام السائد على قوة البخار والبرق دليل جلي على علم وحكمة الخالق جلَّ وعلا؟هنا يشبِّهُ القرآن الكريم السُفنَ الضخمة بـــ (الأَعلام) و «الأَعلام» جمع «عَلَمْ» (على وزن قَلَمْ) وتعني في الاصل (كما يقول الراغب في المفردات) الاثر الذي يحصلُ منه علمٌ بوجود شيء، كالعلامات التي توضع على الطرق، وعلم العسكر، ولهذا اطلق على الجبل اسم

«عَلَم» حيث يعتبر دليلا واضحاً يبرزُ من بعيد، ولهذا السبب شُبِّهت السُفنُ العملاقة بالجبال حيث تتضح من بعيد كالجبال.

[٢٦٦]

* * *

وفي الآية السابعة يستند الى ربوبية الله تعالى فيقول: (رَبُّكُمْ الَّذي يُزجي لَكُمُ الْفُلْكَ في الْبَحْرِ) فلا تتبعوا الاوثان لانها ليست بربكم.وهنا نواجه تعبيراً جديداً (يُزجي) وهو من مادة «إزجاء» التي تعني «تسيير الشيء بمداراة ورِقّة» بالنحو الذي ورد في «مصباح اللغة»، ويُستفاد من «مقاييس اللغة» بانها تعني «التسيير الدائم والمستمر»، وهاتان المسألتان في حركة السُفنِ على سطح المحيطات جديرتان بالاهتمام، لا سيما في السفن الشراعية، فالمعروف أنَّ الرياح تسوق السُفُنَ برفق واستمرار.فلو كان للرياح هبوبٌ شديدٌ، أو تكون متقطعةً فانّها تجعلُ السفن تواجه

* * *

[٢٦٧]

توضيحات:

١ ــ البحرُ قاعدةٌ لانواع النِعَم:

لم يكن هنالك احدٌ عندما تكونت البحار، كي يرى طريقة تكوينها، إلاّ أنَّ العلماء يعتقدون أنَّ كُرَتَنْا الارضية بعد انفصالها عن الشمس كانت حارةً وساخنة، وبَرَدَت رويداً رويداً، كالتفاحةِ الناضجة تعرَّج قشرُها وتجَّعدَ وحصل الانخفاض والارتفاع، برزت الجبال والوديان والبحار.ومن الممكن ان يرد هذا التساؤل وهو من أين جاءت مياه البحار؟ هنالك رأيان: يعتقد بعضٌ أنّها تكونت نتيجة لتفاعل الاوكسجين والهيدروجين الموجودين في اعماق الارض وانبثقت كالينابيع التي تتدفق حالياً، وملأت منخفضات الارض تدريجاً.إلاّ أنَّ اشهرَ الآراء هو انَّ السماء غطَّت جوانب الكرة الارضية بالغيوم المتراكمة، وحينما انخفضت حرارتها سالت على هيئة امطار غزيرة، وهطل المطر لآلاف السنين، وغمرت السيولُ كافة انحاء الكرة الارضية بنحو لا يمكن تصوره،

[٢٦٨]

وحصلت البحار، وحتى أمد طويل كانت امواجُه تغسل اعماقه وكذلك الصخور والسواحل، ثم هدأت تدريجاً، واستقر على هيئته الحالية.على اية حال ان البحر له تاريخٌ قديمٌ جداً ومليءٌ بالاسرار، ولكن الأهمُ من ذلك هيالبركات والمنافع التي ينالها الانسان اليوم من البحار حيث بامكاننا ان ندرج قسماً منها، ولا يتسع هذا البحث المختصر لبيانها كلها:١ ــ إنَّ البَحر له اهميةٌ بالغةٌ في الإبحار وحمل ونقل الناس والسلع التجارية، وكما اشرنا فان البحار تعتبر اهم وسائل البشر للحمل والنقل. لاسيما الخطوط البحرية التي تمتد بشكل طبيعيٍّ الى بقاع الارض كافة، ويكفينا الالتفات الى هذه الحقيقة وهي صناعة البواخر العملاقة التي تستطيع ان تستوعب (خمسمائة الف طن) من النفط وتنقله الى أيِّ نقطة في العالم.وهذا يلزم توفر (خمس وعشرين الف سيارة ذات حمولة ٢٠ طناً) لحمل هذه البضاعة..

٢ ــ المواد الغذائية ــ

ومن اهم الفوائد الاخرى للبحار هي المواد الغذائية التي يحصل عليها الانسان منه.فمن اجل معرفة اهمية هذا الأمر يكفينا العلم بانَّه يتم صيدُ ست وعشرين مليون طن من الاسماك سنوياً،

علماً انَّ هذا الاحصاء يتعلق بثلاثين عاماً مضت، ومن المسلَّم به أنَّ هذا الرقم قد تضاعف كثيراً في الوقت الحاضر.وليس الانسانُ وحده بل انَّ الكثير من الطيور تحصل على طعامها من البحار أيضاً، وهذا بحدِّ ذاته اقتصادٌ في استهلاك المواد الغذائية الجافة.فيقول بعض العلماء من خلال الاحصاءات التي قاموا بها : إنَّ الطيور البحرية التي تعيش على الجبال الساحلية والجزر الصخرية تستهلك لوحدها مليونين وخمسمائة الف طن من الاسماك سنوياً!.ونعلمُ ايضاً أنَّ جانباً مهماً من علف الدواجن يتم تأمينه من عظام اسماك البحر، (نفس هذه الاسماك المصطادة)، أي انها تتدخل بصورة غير مباشرة في

تغذية الانسان.

٣ ــ الاعشاب والادوية ــ

يحصل من كل هكتار من البحر خمسمائةُ طن من العلف الاخضر، في حين انَّ افضل مزارعنا لا تنتجُ اكثر من اربعة اطنان وفي بعض البلدان يُستَغلُ هذا العلف لتغذية المواشي، ويُستَعملُ رماده سماداً للمزارع ايضاً.ويستخرجون من الاعلاف البحرية مختلف المواد، كالكحول الجامد والسلولوز والنشاء والمواد الجلاتينية، حيث تُستثمر في الصناعات الكيمياوية واعداد الطعام (وبعض الادوية)..

٤ ــ المعدن والنفط ــ

ان البحارَ غنيّةٌ بالمعادن، ويكمنُ جانبٌ من هذه المعادن في اعماقها، ويعومُ الجزء الاعظم منها على سطحها، ومنها الفلزات التي يمكن استخلاصها من ماء البحر «كالمغنيسيوم» الذي يُستعملُ في الصناعات، وكذلك «البوتاسيوم» و «البروم» و «سلفات الصوديوم» وغيرها.يقول العلماء إنَّ اكثر من اربعين عنصراً (عدا ما ذُكر) موجودٌ في ماء البحر، لها قيمةٌ صناعية جديرة بالاهتمام، كما ويعثر على الذهب في ماء البحر ايضاً، غير أنَّ استخراج الكثير من الغازات ما زال يحتاج الى ميزانية هائلة لا يمكن مقارنتها بالاستهلاك، وقد يأتي اليوم الذي يتمكن فيه الانسان من ان ينالها من خلال طرق اكثرُ يُسراً.وتقوم بعض الشركات العملاقة بتصنيع اكثر من خمسمائة مادة مختلفة من معادن البحر، حيث هنالك مليارات الاطنان من المعادن.ويعتبر النفط ــوهو من أثمن المستخلصاتــ من هدايا البحر، لأنَّ المليارات من الموجودات البحرية ترقد في احضان البحار العظيمة، وبما انَّ القارات ارتفعت فيما بعد فقد

دُفنت هذه الموجودات تحت الرمال التي تحوَّلت الى صخور بعد ذلك، وبقي النفط الناتج عنها في اعماق الارض.والملحُ هو أحد اهم المواد المعدنية التي تُستخرج من البحر، له دورٌ مهمٌ في

[٢٧٠]

حياة الانسان، وقد ذكروا في السابق انَّ الملح بلغ من الاهمية بحيث انَّ جنود الروم كانوا يتقاضون رواتبهم على هيئة ملح، وحتى في روسيا فقد اندلعت «ثورة الملح»! بسبب ارتفاع سعره.انَّ اهم مصادر استخراج الملح هو البحر، وحتى ان بعض المناطق الملحية الموجودة على اليابسة والتي يبلغ قطرها (٨٠٠)م هي من آثار البحار عندما كانت تغمر جميع بقاع الارض.لقد قدَّروا الاستهلاك العالمي للملح بـــ (٢٢) مليون طن سنوياً، بحيث لو أراد الانسانُ استهلاك مخزون الملح الموجود على اليابسة لَنفذَ عاجلا او آجلا في حين انَّ البحر مصدرٌ لاينفدُ للملح، فيمكن ان تؤمَّنَ املاحُ البحر ما يحتاجه البشر لمدة مليون وسبعمائة الف سنة.

٥ ــ افضلُ منتج للطاقة ــ لقد انتبه الانسانُ منذ القِدَم الى هذا الأمر، وهو امكانية انتاج الطاقة من خلال السيطرة على المياه المتراكمة بسبب المد، وتنسحب اثناء حدوث الجزر، فتستغل لتحريك المطاحن وغيرها.وتفيد بحوث العلماء المعاصرين أنَّهُ يُمكنُ انتاج الكهرباء بكمية كبيرة من هذه البحار، وأنْ يستعانَ بها بصفتها أهم مصدر لانتاج الطاقة، فالجَزر والمد الذي يحدث مرتين ليلا ونهاراً بتأثير جاذبية القمر يقوم برفع وخفض ماء البحار بمقدار كبير، وهذا الأمر اضافة الى مسألة الطاقة التي أُشير اليها فهو يؤثر في سقي المناطق الساحلية، لأنَّ مصبات الانهار التي تصب في البحار تمثلُ بحراً من الماء العذب، فيندفع ماء الساحل العذب الى الخلف ويُغطي كثيراً من الاراضي، لذلك سَخر البشرُ مند القِدَمِ اراضي واسعةً للزراعة من خلال شق الانهار في مثل هذه المناطق.ولعلَّ هنالك الملايين من اشجار النخيل في سواحل الخليج الفارسي حيث تُسقى بنفس هذه الطريقة فقط، لأنَّ الماء يتراجع الى مسافات بعيدة عن الساحل، فهذا الماء العذب الفرات الذي يجاور الماء المالح الاجاج ولا يختلط معه يعتبر ثروةً عظيمةً لسكان السواحل.

[٢٧١]

٦ ــ وسائل الزينة المختلفة ــ

من المنافع الاخرى للبحار التي ذُكرت بشكل خاص فى الآيات المزبورة هي وسائل الزينة التي تُستخرج من البحر، كاللؤلؤ الذي ينمو في نوع خاص من الصدف، والمرجان الذي هو نوع من

الاحياء البحرية، ولكن على هيئة اغصان اشجال لها منظر جميل ومرغوب، اضافة الى صفةِ الزينة فهو يُستعملُ في الطب ايضاً..

٧ ــ تلطيف الجو عن طريق البحار ــ

ليست الرياح التي تهبُّ من البحار نحو اليابسةِ هي التي تُرطبُ وتُلَطفُ الجَّو فقط، بل هنالك انهارٌ عظيمةٌ متحركة في قلب محيطات العالم تتحرك من المناطق الحارة الى المناطق الباردة وبالعكس، وبصورة عامة لها أثرٌ بالغٌ في تلطيف الهواء على الكرة الارضية.وواحدٌ من اعظمها هو «غولف استريم»، هذا النهر العظيم الذي يتحرك من سواحل امريكا الوسطى ويطوي المحيط الاطلسي، ثم يصل الى سواحل شمال اوربا، وهذه المياه تكون حارةً حينما تتحرك من المناطق القريبة من خط الاستواء، حتى انَّ لونها يختلف احياناً عن لون المياه المجاورة لها، واللطيف ان عُرضَ هذا النهر البحري العظيم أي «غولف استريم» نحو مائة وخمسين كيلو متراً، وعمقه عدة مئات من الأمتار(١)، وتبلغ سرعته في بعض المناطق حداً بحيث يقطع مائة وستين كيلو متراً في اليوم، وتختلف درجة حرارته عن حرارة المياه المجاورة بـــ١٠ــ١٥ درجة.انَّ «غولف استريم» يتسبب في حصول رياح حارة، ويعطي نسبةً كبيرة من حرارته الى البلدان الواقعة شمال اوربا، فيعمل على تحسين جوِّها، ولعل لولا هذا الجريان لتعسرت الحياة كثيراً في هذه البلدان واستحالت في بعضها.والعجيب انَّ هذه الانهار البحرية العظيمة والتي يكمن السبب الرئيس وراء ظهورها في التفاوت في درجة حرارة المناطق الاستوائية والمناطق القطبية قليل ما

---

(١) وقد ذُكر في بعض الكتب انَّ عمقَهُ يصل في بعض المناطق الى (٨٠٠م) (البحر والعجائبص٤٦).

تمتزج بالمياه المحيطة بها، وتطوي آلاف الكيلو مترات بهذا الشكل، فهي مصداقٌ لطيفٌ لـــ (مَرَجَ البَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيان)(١)(٢)..

٨ ــ استثمار ماء البحر طبياً ــ

لا حاجة لتوضيح انَّ ماء البحر له آثارٌ مفيدة لجسم واعصاب الانسان، ولهذا ينتشر اليوم وفي معظم مناطق العالم استثمار ماء البحر لعلاج بعض الامراض الجلدية والعصبية، او لحفظ

الصحة والسلامةِ، ولو تمَّ القضاء على التلوث الاخلاقي في هذا المجال لأصبح استثمار ماء البحر مصدراً لسلامة ونشاط الناس..

٩ ــ المصدر الرئيس للمياة الجوفية ــ

انَّ أهمَّ واعظمَ واكثر فوائد البحر هي الابخرة التي تتصاعد منه، ثم تؤلفُ الغيوم، وتساقُ هذه الغيوم نحو المناطق اليابسة والجافة، فتُحييها، حيث ذُكرَ ذلك في فصل الريح والامطار بشكل مُفصَّل..

١٠ ــ توفير الماء العذب ــ

يتمُّ في الكثير من المناطق التي يصعب الحصول على الماء العذب، تأمين هذه المادة الحياتية من خلال تقطير ماء البحر فتصبح المناطق المهجورةُ مسكونة بسبب ذلك.هذا جانبٌ من منافع وبركات البحار التي وقف عليها الانسان حتى هذا اليوم، وليس معلوماً ما حجم المنافع التي سينالُها الانسان في المستقبل، وهنا نقف على عظمة هذا التعبير القرآني: (وسَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ)(٣).* * *

٢ ــ البحر دار العجائب:

لو فكرنا جيداً فانَّ جميع الموجودات في العالم تبعث على الدهشةِ، ولكن لا يشبهُ أيٌّ منها الاحياءَ التي في اعماق البحار، وقد ذكر بعض العلماء انَّ عدد انواع

---

(١) (الرحمن الآية: ١٩و٢٠) .
(٢) لمزيد من التوضيح في هذا المجال يراجع التفسير الامثل ج ٢٣ ص ١٣١.(٣) تُراجع كتب « البحر دار العجائب » ، « اسرار البحر » ، « عجائب البحر»، «نشرة الميناء والبحر»، «رسالة الثقافة ج ١٢ » و « افضل الطرق لمعرفة الله».

الاحياء البحرية التي تمت معرفتها مائة واربعون الف نوع، علماً انَّ عدد هذه الانواع كثيرٌ للغاية على سطح المحيطات، ولكن كلَّما نفذنا في الاعماق فانها تقلُّ، أو على الأقل تقلُّ معلوماتنا عنها.والمسألة المهّمة التي تخص البحار هي انَّ التصوُرَ كان ينصبُ على عدم وجود أيِّ كائن حيٍّ في اعماق البحار، لأنَّ اشعة الشمس تنفذ الى عمق «٦٠٠» متر في الماء فقط، وتختفي نهاية الاشعة في مثل هذا العمق، فيغُطُّ كلُّ شيء في «ظلام دامس».بالاضافة الى انَّ

ماءَ البحر يكون بارداً جداً في هذه المنطقة، والأهمُ من ذلك الضغطُ الذي يولده الماء على موجودات تلك المنطقة، لأنَّ ضغط الماء في عمق كيلو متر واحد يكون في نحو من مائة كيلو غرام لكل سنتمتر مربع واحد، ومن المسلمِ به لو كان الانسانُ هناك مجرداً من ملابس الوقاية لتحطمت وسُحقت عظامُهُ(١)، ولهذا لا يمكن النزول الى البحار بعمق عشرة امتار فاكثر بدون ملابس واقية، ولابدَّ من استخدام الواقيات الفولاذية السميكة اثناءَ الغوص في الاعماق، والاّ لدَمَّر ضغطُ البحر كلَّ شيء، ولا يمكن الذهاب بكل وسيلة الى الاعماق في بعض المراحل بسبب عدم وجود شيء يقاوم الضغط.على أية حال فقد اثبتت بحوث العلماء فيما بعد أنّ هنالك في اعماق البحر موجودات حيَّةً كثيرة وعجيبة، حيث تقوم بإبطال مفعول الضغط العجيب للماء من خلال الضغط الداخلي الموجود فيها.ولا تنمو الحشائش هناك كي تستفيد منها الاحياء الموجودة في قاع البحر، لكن يد القدرة الالهية تقوم بتهيئة الغذاء اللازم لها والذي هو عبارة عن المواد النباتية المختلفة على سطح المحيط وتحت ضوء الشمس، وبعد إعداده ينزل الى سُكان

---

(١) انَّ الغواصين يغوصون الى عمق ٣٠ متراً فقط بدون ملابس الغوص والى عمق ١٥٠متراً بملابس الغوص ، في حين انَّ ضغط الماء يبلغ ٧ أطنان لكل انج مربع في اعمق نقاط البحر (البحر دار العجائبص٨٩).

اعماق البحر على هيئة مائدة سماوية، وتترسب هناك. بالاضافة الى الاحياء الموجودة على سطح الماء التي تموت حيث تُعَدّ جثثها طعاماً لذيذاً للموجودات الحيّة في قاع البحر.ولكن لنرَ كيف تُحلُّ مشكلة الظلام الدامس؟ فقد وفَّرت القدرة التي خلقت هذه الموجودات للعيش في هذه المنطقة والنور اللازم لها، لأنَّ اغلبَ هذه الاحياء تقوم باشعاع النور منها، نورٌ كنور ليلة مقمرة من ليالي الصيف فتضيء ذلك المحيط.وينطلقُ نورٌ احمر من رأس نوع من الاسماك، ومن ذيل اخرى نورٌ ازرقٌ، وينشر بعضُ الاسماك نوراً باللون الاحمر والابيض والازرق.يقول أحد العلماء : إنَّ اكثر المناطق عجباً في البحر ليست قرب سطح الماء ولا قاع المحيط، بل هي المنطقة التي تتوسطهما، فليس لها سماءٌ فوقها ولا ارضٌ تحتها، وانما يحيط الماء بكل شيء، ولا بيت للموجوداتِ التي تحيى هناك، فهي في حركة مستمرة، وهنالك الاسماك التي تُحيّرُ العقول، فاسنانُ بعضها طويلٌ بالقدر الذي لا تتمكن من ان تغلقَ فمها أبداً ونوعٌ من الاسماك يتسع بطنهُ بحيث يتمكن من ابتلاعِ سمكة تعادلُ حجمه ثلاث مرات، وقد اطلق على هذه الاسماك اسماءً عجيبةً وغريبةً مثل «البالع الاسود» و «الافعى البحرية» و «ثعبان السمك»!لنترك قعر المحيط ونأت الى سطح الماء فهناك عجائب أيضاً، وهنالك اسماك كلٌ منها اعجبُ من الآخر،

منها الاسماك ذوات الشحنة الكهربائية حيث تستطيع انتاج كميات كبيرة من الكهرباء بايعاز من الدماغ، إذ تصيب العدو او الفريسة بالشلل، تلك الشحنات الخطيرة حتى على الانسان ايضاً.و «الاسماك الطائرة» التي تخرج من الماء وتطير الى مسافة ستين متراً، وتقفز احياناً أعلى من الاشجار.و «السمك ذو الدواة» الذي يفرز مادةً سوداء اللون في ماء البحر للاختفاء عن العدو والافلات منه، كما يُصنع اليوم في الحروب التقليدية، حيث يُملأ ميدان المعركة بالدخان كي يتوارى الاشخاص عن العدو.

و «مائدة السمك» احد الانواع العجيبة للسمك، حيث تكون عريضةً وكبيرة جداً، إذ تبسط نفسها على سطح المحيط فتشكل مائدة، وبمجرد وقوع الفريسة على هذه المائدة تجمع اطرافها المبسوطة عليها وتنشغل بأكلها.يعيش في البحر اصغر الاحياء، وأكبرها ايضاً، إذ يبلغ طول الحيتان الموجودة في البحر ثلاثين متراً، وقطرها اكثر من اربعة عشر متراً، ويبلغ طول فكِّها اكثر من سبعة امتار، ووزنُ لسانها ثلاثة اطنان، ووزن قلبها نصف طن، ووزن كبدها طناً واحداً، ويبلغ طول وليدها سبعة امتار احياناً(١).وكان طول احدى الحيتان التي تم اصطيادها في جزائر «نيو جورجيا» ثلاثاً وثلاثين متراً، ووزنها مائة وخمسة وعشرين الف كيلو غرام(٢).*

* *

٣ ــ البحر في كلام المعصومين((عليهم السلام)):

وهنا نترَّنمُ بهذه الجملة المشهورة في دعاء الجوشن من خلال عالَم من الخشوع والاخلاص ولْنَقُلَ: (يا مَنْ في البحار عجائبُهُ)(٣).في ذلك اليوم حيث رُويت هذه العبارة في دعاء الجوشن عن النبي((صلى الله عليه وآله وسلم)) لم تزل اسرار البحار غير مكشوفة لأحد، واليوم تتجلّىّ لنا عظمة هذه العبارة اكثر من أيِّ وقت.وورد في دعاء ومناجاة اخرى لأمير المؤمنين((عليه السلام)) حيث يقول:(أنتَ الذي في السماء عَظَمَتُكَ، وفي الأرضِ قُدْرَتُكَ، وفي البحار

---

(١) « عجائب البحر» و «رسالة الثقافة» .(٢) « البحر دار العجائب» ص ١٢١ .(٣) دعاء الجوشن الكبير، الفقرة ٥٨ .

عَجائبُكَ)(١).ونواصل هذا البحث بحديث آخر عن أمير المؤمنين ((عليه السلام)) حيث يقول:(سخَّرَ لكُمُ الماءَ يَغدو عَليكُمْ وَيَروُحُ صَلاحاً لمعايشكُمْ والبَحْرَ سَبَباً لكَثْرَةِ امْوالِكُم)(٢).ونختم هذا البحث بمقطع من الحديث المشهور بـــ«توحيد المفضّل» عن الامام الصادق((عليه السلام))، اذ يقول((عليه السلام)):«فاذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق وقصر علم المخلوقين، فانظر الى ما في البحار من ضروب السمك ودواب الماء، والاصداف والاصناف التي لا تحصى ولا تعرف منافعها إلاّ الشيء بعد الشيء يدركه الناس بأسباب تحدث مثل القرمز فانه انما عرف الناس صبغه بأنّ كلبة تجول على شاطيء البحر فوجدت شيئاً من الصنف الذي يسمى «الحلزون» فاكلته فاختضب خطمها بدمه فنظر الناس الى حسنه فاتخذوه صبغاً...»(٣). نعم.. ففي البحر وموجوداته ونباتاته وغيرها منافع وبركاتٌ تتكشفُ عنها المزيد من الاسرار في كل يوم يَمُرُّ من حياة البشر، وتظهر لهُ فوائد جديدة بحيث تجبر الانسان على الخضوع الى خالق هذه النِعَم.

---

(١) «بحار الانوار» ج ٩٧ (٩٤) ص ٢٠٢ .(٢) بحار الانوار ج ٦٠ ص ٣٩ ح ٣ (باب الماء وانواعه والبحار) .(٣) بحار الانوار ج ٣ ص ١٠٩ (حديث المفضل) .

[٢٧٧]

[٢٧٨]

١٤ ــ آياتُهُ في خلق الظِّلال

[٢٧٩]

[٢٨٠]

تمهيد :

هل انَّ الظِّلَّ شيءٌ يمكنُ من خلاله الوصول الى خالق العالَم؟ نعم.. فقد تمت الاشارة في آيات القرآن الكريم الى هذه المسألة التي تبدو عاديةً اثناء وصف نِعَمِ الخالق جلَّ وعلا والتعريف بالذات الالهية المقدسة، فهو تعالى يريدُ بيانَ هذه الحقيقة، وهي اينما يقع بصرُكَ في هذا العالم المليء بالعجائب والاسرار فانَّ عظمَتهُ تتجلى فيه، وبراهينُ حكمته وقدرته مكتوبةٌ في جبين كل الموجودات صغيرها وكبيرها.بعد هذا التمهيد نستمع خاشعين للآيات الآتية:١ ــ (أَلَمْ تَرَ الى ربِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شــاءَ لَجعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جعَلْنــا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيْلا ثُمَّ قَبَضْنــاهُ إلَيْنــا قَبْضَاً

يَسيْراً)(١).٢ ــ (واللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمــا خَلَقَ ظِلالا وَجَعَلَ لَكُمُ مِنَ الجِبــالِ أكْنــاناً وجَعَلَ لَكُمْ سَرابيْلٌ تُمْ مِمــا خَلَقَ ظِلالا وَجَعَلَ لَكُمُ مِنَ الجِبــالِ أكْن

لهذا تُعتبر الرغبةُ في نوع من الطعام بالنسبة للاصحاء من الناس دليلا على حاجة الجسم الى ذلك الغذاء على نحو الخصوص، ويجب على مثل هؤلاء الاشخاص كذلك النزول عند هذه الرغبات الداخلية يقول العالم الروسي المعروف «باولف»: «إنَّ الغذاءَ الطبيعي والمفيد، هو الغذاء الذي يؤكل بشهيَّة وتلذذ».ولهذا ايضاً لا معنى للالتزامِ بنظام خاص في الامتناع عن الاطعمة التي يرغب الانسان بتناولها لأن تلك الرغبة تعتبر بحد ذاتها افضل دليل على حاجةِ الجسمِ لها.

(١) (الفرقان الآية:٤٥و٤٦).

* * *

٢ ــ هل انَّ الرزقَ مقسومٌ؟

وردت هذه النكتة في بعض الآيات اعلاه وهي انَّ رزقَ كلِّ دابة على الله، وقد تكفَّلَ الله به (ومــا مِنْ دابّة في الأرْضِ الاّ عَلى الله رِزْقُها...)(١).وورد في بعض آخر ان سعة الرزق وضيقة مشيئة الهية(٢).

واُشير الى هذا المعنى في الروايات ايضاً، فيقول امير المؤمنين ((عليه السلام)): وقدَّر الارزاقَ فكثَّرها وقلَّلها وقسَّمها على الضَّيق والسَّعة.(٣)وفي حديث آخر عنه ((عليه السلام)) نقرأ في حثِّه على طلب العلم إذ يقول:إنَّ طلبَ العلمِ أوجَبُ عليكم من طلبِ المال، انَّ المالَ مقسومٌ مضمونٌ لكم قد قسَّمَهُ عادلٌ بينكم وضمِنَه وَسَيَفي لكم والعلمُ مخزونٌ عند اهلهِ قد اُمرتُم بطلبهِ.(٤)والآن يبرز هذا التساؤل وهو لو كان الأمر كذلك فما هو مفهوم السعي والاجتهاد لطلب الرزق والتخطيط لتحسين الوضع الاقتصادي

(١) (هود الآية: ٦).
(٢) (الروم الآية: ٣٧ وآيات اخرى).
(٣) نهج البلاغة خطبة ٩١ .(٤) معالم الدين ص ٩ .

للمجتمع؟ولكن من خلال التمعُن في الآيات والروايات فيما اذا جُمعت مع بعضها يتضح الجواب على هذا السؤال بانَّ المقصود من ضمان الرزق من قبل الله تعالى وتكّفله والتزامه بتقسيمه هو اعداد ا لارضية اللازمة، ومتى ما تظافرت الارضية الخارجة عن طاقة الانسان، والاستعدادات الموجودة في ذاتهِ، يستلم الانسان نصيبه من الرزق.وهذا يشبه تماماً رواتب العاملين في مؤسسة ما والتي يحددها المدير إلاّ انَّه لا يجلبُ تلك الرواتب الى بيوتهم بل يجب عليهم أن يعملوا، ثم يذهب كلٌ منهم لملء بطاقةِ راتبه ليستلمه.ولا يجب نسيان هذه الحقيقة بأنّ الله تعالى ومن اجل أن لا يضيع الناس في «عالم الاسباب» ويعتبروا انَّ حاصل الرزق يأتي عن طريق السعي والاجتهاد فقط، فهو يوصل الرزق احياناً لاناس لم يبذلوا جهداً جهيداً وقد يسلب الرزق من اشخاص مجتهدين كي يوضح انَّ وراء هذا العالم قدرةً اخرى (ولكن يجب ان لا ننسى انَّ هذا مجرد استثناء، واما القاعدة الاساسية فهي السعي والاجتهاد).ولعلّه لهذا الأمر ورد في حديث عن الرسول ((صلى الله عليه وآله وسلم)) انه قال:واعلموا انَّ الرزقَ رزقان: فرزقٌ تطلبونه ورزقٌ يطلبكُم فاطلبوا ارزاقكم من حلال، فانكم ان طلبتموها من وجوهها اكلتموها حلالا وإنْ طلبتموها من غير وجوهها اكلتموها حراماً(١).هذا الفارقُ في الرزق يعتبرُ في الواقع دليلا على الجمع بين الآيات والروايات التي تعتبرُ الرزقَ مُقَسَّماً ومضموناً، والروابات التي تعاكسها، التي تعتبر الجد والاجتهادَ والمثابرة شرطاً للاستفادة من

---

(١) وسائل الشيعة ج ١٢ ص ٢٩.

الرزق(١).

* * *

٣ ــ اذا كانَ الرزقُ مضموناً للجميع فلماذا يموتُ البعضُ جوعاً؟

في الآيات اعلاه تتجسدُ هذه الحقيقة جيداً بانَّ الله تعالى قد تكفَّلَ برزق جميع الموجودات الحيّة، وايصاله اليها اينما كانت، ولكن يبرز هذا السؤال وهو: لماذا ماتت وتموت مجاميعُ من الناس

جوعاً الآن وعلى طول التاريخ؟ أَلَمْ يُؤَمَّنُ رزقُها؟!.في الرد على هذا التساؤل يجب أخذ النقاط الآتية بنظر الاعتبار:

أولا:

انَّ تأمين وضمان الرزق لا يعني اعدادَه للانسان العاقل والمكلَّف وارساله الى بيته، او وضعهِ في فمه كاللقمة، بل قد اعدت الارضية اللازمة، وسعيُ الانسان واجتهاده يعتبر شرطاً لتحقيق هذه الارضية وايصالها الى مرحلة الفعل، حتى مريم((عليها السلام)) عندما كانت في ذلك الوضع الصعب وفي تلك الصحراء القاحلة حيث هيأ لها اللهُ تعالى رزقها رطباً جنياً على جذع النخلة أمرها بأنْ تسعى وخاطبها: (وهُزِّي اَلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ).

ثانياً :

لو انَّ الناسَ ــفي الماضي والمستقبلــ يقومون بهضم حقوق الآخرين ويسلبون ارزاقهم ظلماً فهذا ليس دليلا على عدم

---

(١) من اجل التعرف على هذه الروايات يراجع المجلد ١٢ من وسائل الشيعة كتاب التجارة ص ٩ و ١٦ و ١٨ و ٢٢ و ٢٤ و ٢٦.

تأمين البارىء تعالى للرزق، وبتعبير آخر: اضافة الى مسألة السعي والاجتهاد فان وجود العدالة الاجتماعية يعتبر سراً في التوزيع العادل للارزاق، واذا قيل: لماذا لا يمنع اللهُ ظلمَ الظالمين؟ نقول: انَّ اساس حياة البشر يقوم على الحرية وليس على الاجبار والاكراه كي يخضع الجميع للامتحان، وإلا فلا يحصل التكامل «تأمل جيداً».

ثالثاً :

هناك مصادر كثيرة لتأمين طعام البشر على هذه الكرة الارضية وغير انه يجب ان تكتشفَ وتُستخدمَ بذكائهم ومعرفتهم، واذا قصَّر الانسان في هذا المجال فالذنبُ ذنبهُ.لا يجب ان ننسى ان بعض مناطق افريقيا التي يموت شعبها جوعاً تعتبر من اغنى مناطق العالم، إلاّ انَّ العوامل المدّمرة التي اشرنا اليها آنفا جعلتهم يهيمون في ليل مظلم.نختتم هذا البحث المختصر بحديث عن الامام علي((عليه السلام)) ورد في نهج البلاغة، يقول:انظروا الى النملةِ في صِغرِ جُثتها ولطافةِ هيئتها لا تكادُ تُنالُ بلحظِ البَصرِ ولا بمُستدركِ الفكَرِ كيفَ دبَّت على ارضها، وصُبَّت على رزقها تنقُلُ الحبَّةَ الى جحرِها وتُعِدُّها في مستقرها، تجمعُ في حَرِّها لبردها، وفي وِردِها، لصدرِها(١).* * *

.

٤ ــ سعةُ الرزق وضيقه:

وردَ في الآيات اعلاه انَّ الله تعالى يبسطُ الرزقَ لمن يشاء ويُضيقَهُ على مَنْ يشاء، وهذا التعبير الذي تكرَّر في آيات عديدة يمكنُ ان يُوجدَ هذا الخلط وهو انَّ نظام الرزق خارجٌ عن ارادة الانسان

---

(١) نهج البلاغة خ ١٨٥ .

بشكل كامل، طبقاً لذلك فلو تَنَعَّمَ قومٌ وحُرِمَ آخرون فهذه مشيئة الله وليس ما كسبته ايدينا وليس لنا حول ولا قوة ! ويُمكن ان يكون هذا مكسباً جيداً لاولئك الذين يضعون علامات

استفهام على اصل الدين ويعتبرونه وليداً للحركات والمشاريع الاستعمارية.ولكن لو تأملنا في هذه الآيات والروايات وفكّرنا في اسباب ضيق الرزق وسعَته لتجلّى لنا تفسير هذه الآيات واسرارها وسيستأصلُ مريدوا تلك الافكار الهدّامة، ونتوصل الى امور مهمة وقيمّة للغاية.لقد قلنا مراراً انَّ التعبير بـــ «الارادة الالهية» لا يعني الارادة التي تخلو من الحساب و الكتاب، بل الارادة الممتزجة بـــ «الحكمة».إنَّ حكمة الله تقتضي ان من يسعى ويجتهد ويُخلصُ ويُضحي اكثر يكون رزقه اوسعُ (وأنْ لَيْسَ لْلانْسانِ الاّ مـــا سَعى)(١).و (كُلُّ نَفْس بِمـــا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ)(٢).(ومَنْ يَتّق اللهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً وَيُرزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحتَسِب)(٣).فالتقوى تؤدي الى سيادة العدالة الاجتماعية ومن ثمَّ تؤدي الى سعة الرزق، كما انَّ السعي والمثابرة تُعِدُّ الارضية اللازمة للازدهار الاقتصادي وتعتبر سبباً في سعة الرزق، وبناءً على ذلك فانَّ التعاليم اعلاه ونظراً لجذورها واصولها لا تعتبر سبباً في الخمول وترك السعي، بل انها من العوامل المؤثرة في السعي والاجتهاد.والشاهد هو هذا الحديث القيّم الذي نُقل عن الامام علي((عليه السلام))، حيث يقول:

---

(١) (النجم الآية: ٣٩).

(٢) (المدثر الآية: ٣٨).

(٣) (الطلاق الآية: ٢).

إنَّ الاشياءَ لمّا ازْدَوَجَتْ إزْدَوَجَ الكَسَلُ والعَجْزُ فَنَتَجا بينهما الفَقْر(١).نعم.. ففقرُ كلِّ قوم، نتيجة مباشرة لضعفهم وخُمولهم، وقد اقتضت الحكمة الالهية أنْ يضيق الرزقُ على مثل هؤلاء.انَّ التَأمُّلَ في اسباب ضيق وسعة الرزق في الروايات شاهدٌ ناطقٌ آخر على القول السابق.ومن جملة الامور التي ذكرتها في الروايات كاسباب لسعة وبسط الرزق ما يلي:صلة الرحم، نظافة الدار والأواني والجسم، مواساة المسلمين، السعي مبكراً لطلب الرزق، شكر النعمة، الاقلاع عن البخل، اجتناب اليمين الكاذبة، الاستغفار والتوبة من الذنوب، حسن النية في الاعمال، الاحسان الى الجيران وذكر الله(٢).نقرأ في حديث عن النبي ((صلى الله عليه وآله وسلم)): طيبُ الكلام يزيدُ في الارزاق(٣).وجاء في حديث عن امير المؤمنين ((عليه السلام)): في سعةِ الاخلاق كنوز الارزاق(٤).وورد في حديث آخر عن الامام الصادق ((عليه السلام)): كَثرةُ السُحتِ يمحقُ الرزق(٥).

(١) وسائل الشيعة ج ١٢ ص ٣٨ . (٢) بحار الانوار ج ٧٣ ص ٣١٤ (باب ما يورث الفقر والغنى) و «سفينة البحار» ج ١ ص ٥١٩ و٥٢٠ . (٣) ١ و ٢ و ٣ المصدر السابق . (٤) ١ و ٢ و ٣ المصدر السابق . (٥) ١ و ٢ و ٣ المصدر السابق .

[٢٨٧]

[٢٨٨]

.

١٧ ــ آياته في خلق الطيور

[٢٨٩]

[٢٩٠]

.

تمهيد :

لقد عشقَ الانسانُ على مرّ التاريخ الطيورَ وتمتَّع بتربيتها ومشاهدتها تُحلقُ فوقَ رأسهِ في السماء بشكل جميل، وكانت هذه الظاهرة تبعث على دهشته دائماً، وهي كيفية امكان أنْ يحلِّق جسم ثقيل في السماء ويتحرك بتلك السرعةِ خلافاً لقانون جاذبية الارض؟ !.وليست هذه الصفة فقط بل صفات اخرى كالريش وجناح الطيور، التغريد اللطيف لبعضها، طراز بناء البيت والعش، تربيةِ الفراخ واطعامها، الهجرة الطويلة لقسم منها، وامور اخرى من هذا القبيل كانت مصدراً لدهشته، بالرغم من ان تكرار هذه الحالات المثيرة أدى ــوبالتدرجــ الى أن يمرَّ بعض الناس عليها مرور الكرام.وقد اشارَ القرآن الكريم في جانب من آياتِ التوحيد الى هذه المسألة، ودعا الجميع الى مشاهدة عالم الطيور، كي يَرَوْا آيات وبراهين الباري تعالى.بهذا التمهيد نستمع خاشعين الى الآيات الآتية.١ ــ (أَلَمْ يَرَوْا إلى الطَّيْرِ مُسَخَّرَات في جَوِّ السَّمــاءِ مــا يُمْسِكُهُنَّ إلاّ الله انَّ في ذلِكَ لآيات لِقَوْم يُؤْمِنُونْ)(١).٢ ــ (أَوَلَمْ يَرَوا إلى الطَّيْرِ فَوْقُهُمْ صــافّات ويَقْبِضْنَ مــا يُمْسِكُهُنَّ الاّ الرَّحمــن اِنَّهُ بِكُلِّ شَيء بَصِيرْ)(٢).

(١) (النحل الآية: ٧٩).
(٢) (الملك الآية:١٩).

[٢٩١]

٣ ــ (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ في السَّمــواتِ والأَرْضِ والطَيْرُ صــافات كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وتَسْبِيْحَهُ واللهُ عَلِيْمٌ بِمــا يَفْعَلُونْ)(١).٤ ــ (وَمــا مِنْ دابَّة في الأَرْضِ ولا طــائِر يَطِيْرُ بِجَنــاحِيْهِ إلاّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ مــا فَرَّطْنا في الْكِتابِ مِنْ شَيء ثُمَّ إلى رَبِّهِمْ يُحشَرُونْ)(٢).* * *

.

شرح المفردات :

(طَير) جمع «طائر» وتُقال لكلِّ حيوان ذي جناح وريش، ويحلِّقُ في الهواء، ومصدرها «الطيران»(٣) و «تَطَيَّر» تقالُ لطالع السوء الذي كانوايستلهمونه في الجاهلية من حركة الطيور، ولكن أُطلقَ فيما بعد على كل اشكال التشاؤم وسوم الطالع.كما جاء لفظ «تَطايُر» بمعنى الحركة بسرعة ايضاً(٤).(صافّات) من مادة «صف» وتعني وضع الاشياء في خط مستقيم، كالناس أو الاشجار حينما يكونون في خط واحد، فعندما يُطلق هذا اللفظ وصفاً او حالا للطيور (والطَّيْرُ صافّات) فهو اشارة الى بسط الاجنحةِ في السماء اثناء الحركة، ويعاكسها (ويَقْبِضْنَ).ولفظ (إصطفاف) كناية عن التسليم والطاعة المحضة والخضوع التام، واشارة للخدمِ الذين يقفون في صف واحد استعداداً لتقديم الخدمة(٥).وبطبيعة الحال ان احتمال (والطيرَ صافات) اشارة الى مجموعة من الطيور

(١) (النور الآية: ٤١).
(٢) (الانعام الآية:٣٨).
(٣) وقد قالوا ان مصدر هذا الفعل «طَير» ايضاً، وطيور جمع الجمع (جمع طَير) وذكر بعضهم ان «طيور» جمع «طائر».(٤) مفردات الراغب، لسان العرب، كتاب العين، ومجمع البحرين .
(٥) «التحقيق في كلمات القرآن الكريم» و «مفردات الراغب» .

[٢٩٢]

* * *

.

جمع الآيات وتفسيرها:

الطيرُ يُسبّحُ وأنا صامت! يقول في الآية الاولى مؤكداً على ان تحليق الطيور في جو السَّماءِ خلافاً للجاذبية هو آيةٌ من آيات الله (أَلَمْ يَرَوْا اِلى الطَّيرِ مُسَخَّرات في جَوِّ السَّماء)(١).* * * والآية الثانية تتشابه مع الاولى من عدة وجوه، إلا انَّه يُلاحظُ فيما بينهما

---

(١) لقد اتخذ بعضهم لفظ «جَوّ» بمعنى الفضاء الذي يحيط بالارض، وبعضٌ بمعنى «الهواء» قريباً كان ام بعيداً عن الارض، ولكن يبدو ان ما يستعمل عادةً هو المعنى الاول، وهو الذي يناسب الآية اعلاه حيث يمكن ان يكون مصدراً للاعجاب .

اختلافاتٌ ايضاً، ففي هذه الآية يدعو الناس (لا سيما المشركين) الى تفحّص اوضاع الطيور، هذه الموجودات التي تنطلق من الارض خلافاً لقانون الجاذبية، وتتحرك مسرعة بكل يُسر في جو السّماء لساعات واحياناً لاسابيع، وحتى احياناً لعدة شهور بدون توقف، حركةً رقيقةً وسريعةً، بنحو يبرهنُ على انها لا تواجه مشكلةً في عملها.فيقول: (أَوَلَمْ يَرَوْا الى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صـــافّات ويَقْبِضْنَ)(١).فلا أحد سوى الرحمن الذي عمَّت رحمتُه كلَّ شيء، يستطيع أن يُمسكُهُنَّ هناك: (مـــا يُمْسِكُهُنَّ إلاّ الرّحْمـــن).أجل.. اللهُ الذي منَحها كلَّ ادوات الطيران، وعلَّمها طريقته واسلوبه، كما وضعَ قوانين وانظمةً تستفيدها فتحلّق بيسر وسهولة. فهو العليم بحاجات كل الموجودات والبصير بكلِّ شيء (إنّه بِكُلِّ شَيء بَصِيْرٌ).وابتداءً من الذرات حتى المنظومة الشمسية، والمنظومات الاخرى الجبارة، ومن النباتات والحيوانات المجهرية، حتى الموجودات العملاقة، الكل والكل يستمر في وجوده بتدبيره جلَّ وعلا، التدبير الذي يُطلعنا في كلِّ مرحلة منه على آية جديدة من علمه وقدرته تبارك وتعالى، وينفي كل اشكال الاحتمال بوجود الصدفةِ وقدرتها على الخلق، ويملأ القلب بحبّه والايمان به.ويُمكن ان يكون التعبير بـــ (صافات) و (يَقْبِضْنَ) اشارة الى وضع الطير، حيث يبسطنَ أجنحتهنَّ تارةً، ويجمعنَها اخرى، ويقدرنَ على الطيران من خلال هذين الفعلين، ويردُ هذا الاحتمال ايضاً بأنْ يكون اشارة الى صنفين من الطيور: الطيور التي غالباً ما تكون اجنحتها مبسوطة، وتركبُ امواجَ الهواء، وفي نفس الوقت

تسيرُ في كلِّ اتجاه بسرعة، فكأنما هناك قدرةٌ خفيَّةٌ تُحركُها لا نراها باعيننا، والطيور التي تخفق اجنحتها باستمرار اثناء طيرانها، ولبعضِ الطيور حالةٌ وسطٌ بين هاتين

---

(١) يقول بعض المفسرين لو تعدت «الرؤية» بـــ «الى» فهي تعني الرؤية الحسّية، واذا تعدت بـــ «في» فهي تعني المشاهدة القلبية والمطالعة العقلية (روحالبيانج٩١:١٠).

الحالتين اثناء الطيران(١).* * *

وفي الآية الثالثة نواجه صياغة جديدة بصدد الآيات التوحيدية لحياة الطيور اذ يخاطبُ النبي((صلى الله عليه وآله وسلم)) قائلا (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ في السمَّواتِ والأَرْض)(والطَّيْرُ صافّات).الطيور التي تتحرك في الجو صفوفاً، بجلال وعظمة وجمال ولا تتعبُ العين من مشاهدتها ابداً، فهي ترسمُ اشكالا هندسيةً مختلفة على صفحة السماء بحيث تذهلُ الانسان، اذ قد تطير المئات بل الآلاف من الطيور وتغيُّر طريقها باستمرار من خلالِ أمر خفيٍّ من دون أن يحدث اصطدامٌ فيما بينها.ويضيف في سياق الآية (كلٌ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وتَسْبِيْحَهُ)(٢).نعم.. فلكلٍّ منها صلاةٌ وسرٌ ودعاءٌ وحاجات في عالمها الخاص، ولكلٍّ تسبيحه وتعظيمه وثناؤه، ومن المعروف انَّ ذرات وجود أيٍّ منها وبناء مختلف اعضائه وحركاته وسكناته تُخبرُ عن مُبدىء عظيم يجمعُ كافة الكمالات ومُنَزَّه عن جميع النواقص، وهي دائمةُ التّسبيح بحمده بلسان حالها.ويعتقد بعضهم انَّ حمدَها وتسبيحها وصلاتها عن وعي، ويعتبرون لكلِّ موجود حتى الذي نَحسبُه جماداً وبلا روح، عقلا واحساساً، بالرغم من جهلنا به،

---

(١) لماذا جاءت «صافات» بصيغة الاسم الفاعل، و«يقبضنَ» بصيغة الفعل المضارع؟ وردت تفسيرات كثيرة أفضلها: يقال إنه عند انبساط الاجنحة يأخذ وضع الطائر نسقاً واحداً، بينما يتكرر رفيف اجنحته عند خفقانها، وهذا ما يناسب الفعل المضارع ويكسبه صفة الاستمرارية. وذُكر تفسير آخر في «الكشاف» وأيده بعض المفسرين: بأن منشأ هذا التفاوت ينبع من أنّ الطيران هو الحالة الاصلية الاولى للطيور، والحالة الثانية هي عرضية. غير أن الغموض يكتنف هذا التفسير.(٢) هنا حيث يعود الضمير في «عَلِمَ» الى «الله» او الى «كلّ» هنالك جدالٌ بين المفسِّرين، ولكن ما يناسب وضع الآية هو ان يعود الضمير الى «كل» فيعني: «كل واحد» أي انَّ كلَّ واحد من موجودات الارض والسماء والطيور يعرف صلاته وتسبيحه جيداً.

كما نقرأ في مكان آخر: (وَإِنْ مِنْ شَيء إلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُوْنَ تَسْبِيْحَهُم)(١).* * * واشار في الآية الرابعة والاخيرة من البحث الى مسألة جديدة اخرى من عجائب عالم الطيور فقال: (وَمـــا مِنْ دابَّة في الأَرْضِ ولا طائِرٍ يَطِيْرُ بِجَنَاحَيْهِ إلاّ أُمَمٌ أمْثالُكُم).والتعبير بـــ (أُمَمْ) جمع «أُمةّ» يدللُ على انَّ لها عقلا واحساساً في عالمها، والتعبير بـــ (امثالكم) يؤكد هذا المعنى ايضاً، لأنها تشابه الانسان في مسألة الادراك والفهم والشعور، وهذا تأكيد مجدد للتفسير الذي ورد في الآية السابقة، بأنَّ لها تسبيحاً ودعاءً عن وعي في عالمها الخاص بها(٢).

---

(١) (الاسراء الآية: ٤٤).

(٢) لقد اعطى المفسرون احتمالات كثيرة في تفسير تشبيهها بالانسان حيث يبدو أنَّ ما اوردناه اعلاه اكثر تناسباً بالرغم من عدم وجود تعارض بين هذه الاحتمالات يراجع تفسير المنار ج ٧ ص ٣٩٢ وتفسير القرطبي ج ٤ ص ٢٤١٧.

انَّ القرائن المتوفرة لدى الطيور، وباقي الحيوانات، تؤيد بانها ذات ذكاء وشعور.لأنَّ:

أولا:

الكثير من الحيوانات تعمل بمهارة ودقة في بناءِ بيوتها وجمع غذائها وتربية فراخها، ورعايتها، وسعيها لسد حاجات حياتها الاخرى بدقة ومهارة لا يُصدق معها، صدور هذا العمل عن غير عقل وشعور؟.وهي تبدي ردود فعل مناسبة ازاء الاحداث التي لا تمتلك تجربةً سابقةً حيالها، فمثلا نرى انَّ الخروف الذي لم يَرَ ذئباً طيلة حياته له وعيٌ كاملٌ عن خطر هذا العدو ويدافع عن نفسهِ بكلِّ وسيلة يستطيعها. لقد قاموا بتربية الحيوانات من اجل غايات مهمة، كالطيور التي تنقل الرسائل، والحيوانات التي تُرسلُ الى السوق للشراء، وحيوانات الصيد، وكلاب الشرطة التي تستعمل للكشف عن المخدّرات، وملاحقة المجرمين وامثال ذلك، فتُربّى هذه الحيوانات بنحو قد تكون افضل واكثر ذكاءً من الانسان في انجاز مهمتها، حتى في هذا العصر الذي تنوعت فيه معدات كشف الجرائم لم يجدوا في انفسهم غنىً عن هذه الكلاب!.خصوصاً انَّ بعض الحيوانات كالنحل والنمل والأرضة، وبعض الطيور كالطيور المهاجرة، وبعض حيوانات البحر كالاسماك الحرّة التي تقطع آلاف الأميال في اعماق البحر باتجاه منشئها الاصلي اثناء وضع البيوض، تعيش حياةً دقيقةً ومليئةً بالاسرار بحيث لا يمكن نسبتُها الى الغريزة، لأنَّ

الغرائز تُعتبر عادةً مصدراً للاعمال ذات النَسق الواحد، في حين انَّ حياة هذه الحيوانات ليست كذلك، وعمالها دليلٌ على فهمها واحساسها النسبي.يقول مؤلف تفسير «روح المعاني»:انا لا أرى مانعا من القول بأن للحيوانات نفوساً ناطقة وهي متفاوتة الادراك

[٢٩٧]

حسب تفاوتها في افراد الانسان وهي مع ذلك كيفما كانت لا تصل في ادراكها وتصرفها الى غاية يصلها الانسان والشواهد على هذا كثيرة وليس في مقابلتها دَليل يجب تأويلها لاجله(١).والظاهر أنّ مقصوده من الشواهد هذه التلميحات أو التصريحات التي جاءت في القرآن الكريم في قصة «الهدهد وسليمان» وكذلك «النملة وسليمان»، وكذلك الروايات التي نُقلت في تفسير آية البحث بأنَّ الحيوانات تُحشرُ وتُنشرُ وتحاسبُ يوم القيامةِ ايضاً(٢).ولكن على ايةِ حال فسواء كانت اعمالها وتصرفاتها ناتجة عن عقل وارادة أو عن غريزة فلا أثر لذلك على بحثنا، فهي بأيَّ نحو آيةٌ من آيات الله وبرهانٌ من براهين علمه وقدرته.واللطيف انه يقول في نهاية الآية (مـــا فَرَّطْنا في الْكِتابِ مِنْ شَيء)(٣).* * *

.

توضيحات :

---

(١) تفسير روح المعاني ج ٧ ص ١٤٧ .(٢) «مجمع البيان» ج ٣ ص ٢٩٨ .(٣) «فَرَّطنا» من مادة «تفريط» أي التقصير في اداء العمل وتضييعه بنحو يضيع (صحاح اللغة) ويردُ هذا الاحتمال ايضاً بانَّ المقصود من عدم التفريط في هذا الكتاب السماوي يعني انَّ للقرآن مفهوماً جامعاً حيث يشمل كافة حاجات الانسان إلاّ انه نظراً الى ذيل الآية فانَّ المعنى اعلاه يعتبر اكثر مناسبة.

[٢٩٨]

.

١ ــ فَنُّ الطيران الْمعقَّد :

منذ سنوات والانسان يُفكر: ما هذه القوة الخفيّة التي تحمل الطيور الثقيلة نسبياً خلافاً لجاذبية الارض وتجعلها تطير بانسيابية ويُسر ومهارة في اعالي السماء، وتتنقلُ بسرعة؟ ولكن

باختراع الطائرة وصناعتها تم اكتشاف هذا السر بانَّ هناك قوة تسمى (القوة الرافعة) تستطيع أنْ ترفع الاجسام الثقيلة جداً وتجعلها تطير في السماء، فضلا عن الطيور. ويمكن توضيح ذلك في عبارة بسيطة وخالية من المصطلحات الفنية بما يلي:لو كان لجسم سطحان مختلفان (كاجنحة الطيور أو اجنحة الطائرة حيث يكون سطحها العلوي منحنياً وبارزاً، فلو تحرك هذا الجسم افقياً ستتولد قوةٌ خاصةٌ ترفعُهُ الى الاعلى، وهذا يعود الى انَّ ضغط الهواء سيتضاعف على السطح السفلي اكثر من العلوي (لأنَّ السطح العلوي اوسع من السفلي).وتعدّ الاستفادة من هذا القانون السبب الرئيس في تحليق الاجسام الثقيلة في الجو، ولو تأملنا اجنحة الطيور جيداً للمسنا هذا القانون الفيزيائي بكل دقة.غير أنّ هذه مسألة واحدة فقط من عشرات المسائل المهمة في الطيران، ومن اجل تصور أوسع له لابد من التطرق الى الامور الآتية:١ ــ السرعة الاولية لحصول القوة الرافعة (فالطائرة تسير وقتاً طويلا على الارض للحصول على هذه السرعة، أما الطيور فقد تركض قليلا أو بقفزة سريعة في الهواء فتصل الى هذه الغاية!).٢ ــ كيفية التحكم بهذه القوة اثناء الهبوط (وهذا الأمر يجري في الطيور والطائرة بتقليل السرعة وتغيير هيئة الجناح !).٣ ــ كيفية تغيير الاتجاه اثناء الطيران (ويتم هذا الامر عن طريق الاستفادة من حركات ذيل الطائرة أو الريش الخاص في أذناب الطيور التي تحدث حركات في مختلف الاتجاهات وتسوق الطائر نحو أيَّ اتجاه).٤ ــ اتخاذ الشكل المناسب للطيران بالنحو الذي يوصل مقاومة الهواء على

جسم الطائر الى الحد الادنى (وهذا الأمر تمَّ تأمينه من خلال الهيكل المغزلي للطيور، والرأس البيضوي، والمنقار المدبَّب والحاد، وهيئة الطائرة تقليدٌ له!).٥ ــ أدوات التنسيق مع الطيران (وهذا المعنى متوفرٌ من خلال الريش الذي يسمح للطيور أنْ تسبح في الهواء، ووضع البيوض بدلا من الحمل، كي لا يصبح جسمها ثقيلا، والعيون الحادّة حيث ترى الفريسة أو الصيد جيداً من مكان بعيد وامثال ذلك).٦ ــ لقد كان العلماء ولمدة من الزمن يلاحظون انَّ عجلات الطائرات علاوة على تخفيفها لسرعتها فهي لا تخلو من الاخطار اثناء طيرانها، حتى شاهدوا الطيور تجمع ارجُلَها اثناء الطيران وتفتحها قبل الهبوط بقليل فادركوا انّه يجب الاستفادة من العجلات المتحركة التي تُجمع بعد الارتفاع، وتُفتح قبيل الهبوط !.ولا عجب في اجراء العلماء لبحوث كثيرة ولسنوات متمادية على مختلف انواع الطيور مهتمين بكيفية الطيران، والهبوط، وشكل الاجنحة والأذناب، وقاموا بصِناعةِ انواع مختلفة من الطائرات تقليداً لمختلف الطيور.

* * *

٢ ــ «عجائب الطيور» و «الطيور العجيبة»:للطيور انواع مختلفة وعجيبة، وبعضها اكثرُ عجباً، اذ يقول بعض العلماء: شوهد٢٨٩ نوعاً من الحمام و٢٠٩ انواع من الحجل و١٠٠ ألف نوع من الفراشة لحد الآن(١).

---

(١) يراجع كتاب «اسرار حياة الحيوانات» ص ١٤٢ الى ١٩٦.

ويمكن ذكر «الخفاش» مثلا من بين الطيور العجيبة، فهو يضجر من ضوء الشمس على عكس سائر الطيور، ويطير في ظلام الليل بكل شجاعة وجرأة وبأيّ اتجاه شاء، وجسمه خال من الريشِ تماماً واجنحتُه متشكلة من جلد رقيق، وهو لبونٌ ولودٌ، فيحيضُ، ويأكل اللحم، ويقالُ انَّ الطيورتنصبُ له العداء، كما انه يعاديها أيضاً! لهذا فهو يقضي حياته منعزلا.وحركته السريعة والجريئة في ظلمة الليل من دون أن يصطدمَ بمانع تبعث على الحيرةِ، فهو يَمر من خلال انحناءات والتواءات كثيرة بدون أن يضلّ طريقه، ويوفر طعامهِ بدقة اينما كان مختفياً ومن دون خطأ، لامتلاكه لجهاز خفي يشبه «الرادار».فهو يرى باذنه «أَجَلْ باذنه!» لانَّ الامواجَ الخاصَّة التي يصدرها من حنجرته ويرسلها الى الخارج عبر انفهِ ترتطمْ بكل ما يصادفها وتعود، وهو يلتقط الامواج المنعكسة باذنه، ويتحسسُ الوضعَ في جميع الجهات فيتجنب العقبات.انَّ بناءَ حنجرته وانفهِ واذنهِ عجيبٌ، دقيقٌ لا يوجد له مثيل في ايٍّ من اللبائن.والامواج التي يرسلها الى الخارج هي امواج ما وراء الصوت، التي لا نستطيع سماعها، وفي كلِّ ثانية يرسل٣٠ــ٦٠ مرّة الى كل الاتجاهات المحيطة به ويستلم ردَّها.لقد اجروا بحوثاً كثيرة حول «الخفّاش» وأَلّفُوا مقالات عديدةً، تتشكل منها دروس حقة لمعرفة الله.ولهذا يتحدث أمير المؤمنين((عليه السلام)) في نهج البلاغة في خطبة معروفة باسمِ «خطبة الخفّاش» عن هذا الحيوان، ويُبينُ مهارتَه ودقته في بيانهِ العظيم والبليغ، حيث يقول:«من لطائف صنعته، وعجائب خلقته، ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه

الخفافيش...»(١) ثم يضيف بصدده قائلا:«وقيل من الحيوانات من يحتضن صغاره، ويحمله تحت جناحه وربما قبض عليه بفيه وهو في حنوه عليه واشفاقه عليه وربما ارضعت الانثى ولدها وهي طائرة...»(٢).ومن عجائب الخلق طائرٌ آخر يُسمى «الطاووس»، بريشه الجميل الذي تصيب الدهشة من يتمعن بألوانه، فكأنما خرجَ لتوِّهِ من تحت يد رسّام ماهر مليئاً بالالوان

الحيوية الزاهية الشفّافة والجذّابة، مصففاً ريشه بمظلة عجيبة التي لا يمكن نسيانها، ان ذلك لآية اخرى من آيات خلق الله.لهذا أكَّد معلمُ التوحيد ومعرفة الله، الامام علي((عليه السلام)) في احدى خطب نهج البلاغة «خطبة الطاووس» على هذا الأمر قائلا:ومِنْ أَعجبِها خلقاً الطاووس الذي أَقامَهُ في أَحكَمِ تعديل... ونضّد ألوانه في أحسن تنضيد بجناح أشرج قصبه وذنب أطال مَسْحَبَه اذا درج الى الانثى نثره من طيّه وسما به مطلا على رأسه كأنه قلع داري عنجة نوتيّةٌ يختال بألوانه...»(٣).و «الطيور المهاجرة» من اكثر انواع الطيور اثارة للدهشة ايضاً، فهي تقطع احياناً كل المسافة بين القطب الشمالي والقطب الجنوبي، ثم تعودُ الى مكانها الاول، قاطعة سفراً طويلا بعيداً قد يبلغ آلاف الاميال، والعجيب انها تستخدم في هذه المسافة الشاسعة آلاتِ خفية تستطيع بها تشخيص طريقها بين الجبال والغابات والصحارى والبحار.والاعجب من كل هذا مواصلة طيرانها لعدة اسابيع بدون توقف ليلا ونهاراً دون الحاجة الى غذاء، لأنها تبدأ بالأكل قبل بداية سفرها ــبدافع داخليِّــ، اكثر من الحد اللازم، وتختزن هذه الاطعمة على هيئةِ دهوناً في جسمها، كي تكتسب الطاقة

---

(١) نهج البلاغة ــ الخطبة ١٥٥ .(٢) سفينة البحار ج ١ ص ٤٠٣ .(٣) تراجع بقية هذا الحديث في الخطبة ١٦٥ من نهج البلاغة.

اللازمة لهذا الطيران الطويل المستمر.فهل تستفيد من الجاذبية المغناطيسية للارض من اجل تشخيص طريقها؟ أو من استقرار الشمس في السماء والنجوم اثناء الليل؟ وفي هذه الحالة يجب ان تكون هذه الطيور من الفلكيين المرموقين، أو تستفيد من طريقةً خفيَّة اخرى نجهلها لحد الآن؟والأهم من ذلك انها تنام في السماء احياناً وهي طائرةٌ وتواصل مسيرتها نحو هدفها ! كما انها تتوقعُ التحولات في الجو قبل حصولها من خلال تنبؤ ذاتي، فتستعد للحركة.لعلكم شاهدتم باعينكم انَّ الطيور المهاجرة تتحرك بشكل جماعيٍّ وتُشكِّلُ نسقاً على هيئةِ رقم (٧)، فهل هذا حدثَ صدفةً؟ لغز اثبتت بحوث العلماء انَّ الطير عندما يحرِّك جَناحَيهُ في الهواء فهو يخفضه مما يسهل عملية تحريك جناح الطائر الذي يليه، لهذا فانَّ الطيور حينما تتحرك بالشكل اعلاه قليلا ما تتعب، وتختزن كميةً لا بأس بها من طاقتها، فايُّ معلِّم اعطاها هذا الدرس الدقيق؟

* * *

.

٣ ــ الطيور في خدمة الانسان والبيئة :

يقول أحد العلماء: انَّ شقاءَ وقسوة الانسان، وغفلته وجهله لاحدَّ ولا عدَّ لها، فيجب ان يعلَم انَّ قتلَ الطيور يكلفه هذه الخسارة الفادحة التي يتحملها،

ويحرمُهُ عونِ ونصرة اعزٍّ واغلى الاصدقاء والرفاق في صراعه مع الحشرات الضارة.فللانسان طريقتان في صراعه مع الحشرات المهاجمة: احدهما الاسلوب البدائي وهو عبارة عن أخذ اليرقات من البساتين والمزارع وقتلها والقضاء على الجراد وحشرة المنّ، عن طريق السموم، والآخر الصراع العلمي عن طريق «البيولوجيا» بواسطة الفايروسات والطفيليات الخاصة التي يتم تكثيرها لهذا الغرض.إلاّ أنّه يدفعُ ثمناً غالياً في هذين الاسلوبين من الصراع ويتحملَ المتاعب والمشقة، بينما لو ترك الطيور سالمةً، وقام بتكثير الطيور التي تقتل الحشرات كالبوم، وبعض الطيور التي تتغذى على الحشرات فستكون المكافحة أسهل وافضل (وارخص).يقول عالمٌ يُدعى «ميشيل»: «لولا وجود الطيور ستصبح الارض فريسةً للحشرات»، ويكتبُ آخرُ يُسمى «فابر» في تأييده: «لولا وجود الطيور سيقضي القحط على البشر»!.وتحدَّثنا

الاحصاءات، بأنْ لو حصلنا على حسابات دقيقة نسبياً عن معدل اليرقات والحشرات التي تستهلكها الطيور الصغيرة سنوياً في طعامها وطعام فراخها فستتضح هذه المسألة كثيراً.فهنالك طيرٌ صغيرٌ يُدعى «رواتوله» يأكل سنوياً «ثلاثة ملايين» من هذه الحشرات المهاجمة! وهناك نوع من الطيور يُسمى «الطائر الازرق» يأكل سنوياً «ستة ملايين ونصف المليون» من الحشرات، ويستهلك «اربعاً وعشرين مليون» لاطعام فراخه التي لا تقل عادةً عن اثني عشر أو ستة عشر فرخ...والسنونو تطوي يومياً اكثر من ستمائة كيلو متر وتأكل «الملايين» من الذباب، وهناك طيرٌ يُدعى «تروغلوديت» يتغذى على «تسعة ملايين» حشرة منذ أن يخرج من البيضة وحتى طيرانه من العش ! وغالباً ما يعتبر الناس انَّ الغراب الاسود مضرٌ،

ولكن لو ذبحتم أحدها وتفحصتم حوصلته تجدونه مليئاً بنوع الديدان البيضاء(١).* * *

.

٤ ــ دروس التوحيد في وجود الطيور:

يقول الامام الصادق ((عليه السلام)) معلمُ التوحيد العظيم في الحديث المشهور بـــ«المفضل»:(تأمّل يا مفضل جسم الطائر وخلقته فإنه حين قدّر ان يكون طائراً في الجو خفّف جسمه وادمج خلقه فتقصر به من القوائم الاربع على اثنتين ومن الأصابع الخمس على أربع، ومن منفذين للزبل والبول على واحد يجمعهما ثم خلق ذا جؤجؤ محدد ليسهل عليه أن يخرق الهواء كيف ما أخذ فيه كما جعل السفينة بهذه الهيئة لتشق الماء وتنفذ فيه وجعل في جناحيه وذنبه ريشات طوال متان لينهض بها للطيران وكُسيَ كله الريش ليدخله الهواء فيقله، ولما قدّر ان يكون طعمه الحب واللحم يبلعه بلعاً بلا مضغ نقص من خلقه الاسنان وخلق له منقار صلب يتناول به طعمه فلا ينسجح من لقط الحب ولا يتقصف من نهش اللحم، ولمّا عدم الاسنان وصار يزدرد بالحب صحيحاً واللحم غريضاً أُعين بفضل حرارة في الجوف تطحن له الطعم طحنا يستغني به عن المضغ واعتبر ذلك بأن عجم العنب وغيره يخرج من أجواف الانس صحيحاً ويطحن في أجواف الطير لا يرى له أثر ثم جعل مما يبيض

---

(١) نظرةٌ الى الطبيعةِ واسرارها ص ١٩٥ ــ ص ١٩٧ «مع الاختصار» .

بيضاً ولا يلد ولادةً لكيلا يثقل عن الطيران...)(١).ثمَّ يشرحُ الامام((عليه السلام)) بعد ذلك، الامورَ المهمة والدقيقة الاخرى حول الطيور حيث نُعرض عنها مراعاةً للاختصار.

---

(١) بحار الانوار ج ٣ ص ١٠٣ وما بعدها .

.

١٨ ــ آياتُه في حياة النحل

.

تمهيد :

انَّ حياة النحل من اكثر ظواهر الخلق دهشةً، وقد اكتشفت عجائبُ عن حياة هذه الحشرة الصغيرة من خلال بحوث العلماء، اذ يعتقد البعض انَّ حضارتها وحياتها الاجتماعية اكثر تطوراً من حياة الانسان، فانتم لا تعثرون على أي مجتمع متطور قد حلَّ مشكلة «البطالة» و «المجاعة» بشكل كامل، إلاّ انَّ هذه المسألة حُلَّت تماماً في بلاد النحل (خلايا النحل)، فلا يُعثُر في هذه المدينة على زنبور عاطل عن العمل أو زنبور جائع ايضاً.فبناء الخلية، وكيفية جمع رحيق الورود، وصناعة العسل وخزنهِ، وتربية الصغار واكتشاف المناطق المليئة بالازهار، واعطاء عنوان السكن لباقي النحل، والعثور على الخليّةِ من بين مئات أو آلاف الخلايا كل ذلك دليلٌ على الذكاء الخارق لهذه الحشرة.إلاّ انَّ من المسلَّم به انَّ الانسان لم يكن يمتلك مثل هذه المعلومات عن النحل سابقاً، ولكن القرآن الكريم اشار في السورة المسماة باسم هذه الحشرة «النَّحل» باشارات مليئة بالمعاني الى الحياة المعقَّدة والمدهشة لهذه الحشرة.بهذا التمهيد نستمع خاشعين الى الآيات الآتية:١ ــ (وَأَوْحى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ أنّ أتَّخِذِي مِنْ الْجِبــال بُيُوْتاً

ومِنْ الشَّجَرِ ومِمـــا يَعرِشُونْ).٢ ــ (ثُمَّ كُلي مِنْ كُلِ الثَّمَراتِ فَاسلُكي سُبُلَ رَبِّكِ ذُللا يَخرِجُ مِنْ بُطُونِهـــا شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيْهِ شَفاءٌ لِلنّـــاسِ أنَّ في ذلِكَ لآيةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَرُونْ)(١).

---

(١) النحل الآية:٦٨،٦٩.

* * *

.

شرح المفردات :

(النَحْل) اسمُ زنبور العسل و «نِحلَة» (على وزن قِبلة) تعني العطاء بلا عوض، ومفهومها محدودٌ اكثر من مفهوم الهبة، لأنَّ «الهبة» تشمل العطاء بعوض وبغير عوض بينما تشمل النحلة العطاء بلا عوض فقط، و «نحول» تعني الضَعف، تشبيهاً بُهزالِ زنابير العَسَلِ، و «نواحل» تطلق على السيوف الحادة «الرفيعة».وقد يُحتمل ان المنشأ الاصلي لــ «نِحلة» يعني العطاء، واذا أُطلقَ على زنبور العسل «نَحل» فلأنّه يصطحبُ معهُ عطاءً وهبةً حلوةً لعالم الانسانية.(١)* * *

.

لنزورَ بلاد النحل :

لقد استند القرآن الكريم في آيات عديدة الى جوانب مختلفة من حياة النحل حيث كلٌ منها اعجبُ من الآخر، فقد اشارَ اولا الى مسألة بناء بيوتها، قائلا: (وَأَوْحى ربُّكَ اِلى النَّحْلِ أنِ اتَّخِذي مِنَ الْجِبالِ بُيُوْتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمّا يَعْرِشُونَ).وقد يكون التعبير بــ (اتَّخذي) بصيغة الفعل المؤنث اشارة الى انَّ النَّحلَ عندما يهاجر لاختيار بيت جديد فهو يسير خلف «الملكة» التي هي بمنزلة القائد في

---

(١) مفردات الراغب .

* * *

وفي الآية الثانية توجَّه نحو صناعة عسل النحل مضيفاً: أنَّ الله قد أوحى لها أن تأكل من جميع الثمار: (ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرات)«واقطعي الطرق التي يَسَّرها وسخَّرها لكِ ربُّكِ لتكوين العسلِ الحلو» (فَاسْلُكِي سُبُلَ ربِّكِ ذُلَلا).(سُبُل) جمع «سبيل» وتعني «الطريق اليسير»(١).
وهنا: ما المقصود من هذه السُبُل في الآية اعلاه؟ لقد أبدى المفسِّرون احتمالات مختلفة:فقال بعضهم: المقصود هي الطرق التي يطويها النَّحلُ نحو الازهار، والتعبير بـــ(ذُلُل) (جمع «ذلول» وتعني التسليم والطاعة)(٢) يدللُ على أنَّ هذه الطرقَ تُعيَّنُ بدقة بحيث يكون ارتيادها سهلا وعاديّاً للنحل وتؤيدُ دراساتُ خبراء النحل هذا المعنى ايضاً، فهم يقولون:

---

(١) (كما اوردها الراغب في المفردات).
(٢) من الممكن ان تكون «ذللا» حالا «سبل»، او لـــ «النحل»، ويبدو إنَّ الاحتمال الاول اكثرُ صحةً.

تخرجُ مجموعةٌ من النحل مكلفةٌ بتشخيص مكان الازهار صباحاً، من الخلّيةِ، وبعد اكتشاف المناطق المليئة بالازهار ترجع، وتعطي للباقين العنوان الكامل لذلك المكان بشكل سريٍّ ومدهش، وقد تشَخِّصُ الطريق بوضعها علامات عليه متكونة من مواد ذات رائحة خاصة، وبنحو لا يضِلُّ اية نحلة باتباعها.وقال بعضهم الآخر ايضاً: ان المقصود هو طريق العودةِ الى الخلية، لأنَّ النحلَ قْدَ يُجبُر على قطع مسافات طويلة، ولا يبتلى بالتيه عند عودته، فهو يتجه نحو الخليّة بدقة، بل وانّه يعثر على خليته بيُسر من بين عشرات الخلايا المشابهة.وقال آخرون: إنَّ (السُبُلَ) هنا لها معنىً مجازياً فهي تشير الى الاساليب التي يتبعها النحلُ لاعداد العسل من رحيق الازهار، فهي تمتص رحيقَ الازهار بنحو خاص ترسله الى «حوصلتها» وهناك حيث تكون كمختبر للمواد الكيمياوية يتبدل الى «عسل» من خلال التغييرات والتطورات التي تجري عليه، ثم يستخرجه الزنبور من حوصلته.أجَلْ.. انه يعرف الاسلوب اللازم لاجراء هذا العمل جيداً، من خلالِ أمر الهيٍّ فيسلكُ هذا الطريق بدقة.ونظراً الى ان هذه التفسيرات الثلاثة لا تتعارض فيما بينها وكون ظاهر الآية عاماً.يمكن القول: بشمول جميع هذه المفاهيم، اذ يقطع النحل هذه الطرق الملتوية والمنحنية بالاستفادة من الشعور الذي منحه الله له، او بالالهام الغريزي، ويستخدم هذا الاساليب بكل مهارة واقتدار.وفي المرحلةِ الآتية اشار الى

صفات «العسل» وفوائده وبركاته قائلا: (يَخْرُجُ مِنْ بُطُوْنِها شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ).وقد حَمَل بعضهم التعبير بـــ (بُطُوْنِ) (جمع بطن) على معنى مجازيٍّ وقالوا: انّها تعني الافواه، وقالوا انَّ العَسَل الذي هو رحيق الازهار مخزون في فم

[٣١٣]

النَّحل ثم ينتقل الى الخليّة.(١)بينما يعتقد بعضهم انَّ العسل هو فضلات النحل!ويعتبره بعضهم الآخر من المسائل الخفيّة التي لم تُكتشف لحد الآن.(٢)ولكن بحوث العلماء برهنت على عدم صواب ايٍّ من هذه الآراء ــكما أشرنا ــ، بل انَّ النحلَ يُرسلُ رحيق الازهار الى مكان خاص في جسمه يسمى «الحوصلة» وبعد أن يجري عليه تغييرات وتطورات يقذفه خارجاً من فمه.(٣)والتعبير بـــ (بُطون) شاهدٌ على هذا المعنى، واجلى منه التعبير بـــ «كُلي»، لأنَّ العربَ لا يقولون لحفظ الشيء في الفم «أكل» ابداً، وحمل هذه الجملة على المجاز تفسيرٌ مجازيٌ لا ضرورة له.واما المقصود من (الوان مختلفة) هنا فهي ذات تفاسير متباينة ايضاً، فقد اعتبرها بعضهم بمعنى هذا «اللون» الظاهري الذي يتفاوت فيه العسل فبعضه ابيضٌ شفاف، وبعضٌ اصفر، والآخر أحمر اللون، وبعضُه يميلُ الى السواد، ويمكن ان يكون هذا التباين مرتبطاً باختلاف أعمار النحل، أو مصادر الازهار التي يمتصها، أو كليهما.وقد اُحتِملَ ايضاً ان يكون المقصود من هذا التفاوت (نوعية) العسل، فبعضٌ كثيفٌ، وبعض خفيف، او ان عسلَ الازهار المختلفة له آثار ومزايا مختلفة ايضاً، كما يختلف العسل العادي كثيراً عن «الشهد» (العسل الخاص الذي يُصنع لملكة الخليّة)، لأنَّ المشهور انَّ لـــ «الشهد» قيمةً من الناحية الغذائية بحيث يزيد كثيراً في عمر الملكة ولو تمكَّنَ الانسانُ أن يتغذى عليها فإنّها تتركُ اثراً عميقاً في

---

(١) مجمع البيان ج ٦ ص ٣٧٢.(٢) وفي «تفسير القرطبي، ينقل عن ارسطو انّه صَنَع خليَّةً من الزجاج كي يرى كيفية صناعة العسل غير انَّ النَّحلَ كان يُعتِّمُ الزجاجة لكي لا ينكشف السر حينما يريد مزاولة عمله (المصدر السابق ليرى).(٣) «تربية النحل» لمحمد مشيري ص ١١٣ وكتاب «نظرة على الطبيعة واسرارها ص ١٢٦»

[٣١٤]

طول عمره.وفي بعض البلدان هناك حدائق من ورود متشابهة حيث تُنصب فيها الخلايا الخاصة بالنحل، وبهذا تُستخلص انواع مختلفة من العسل كلٌ منها مستخرجٌ من زهر خاص، ويتمكن الراغبون من شراء العسل من الورد الذي يرغبونه، وبهذا نواجه الواناً مختلفةً من العسل

تدخل في المفهوم الواسع والعام للآية.والتعبير بـــ (شراب) جاء لأنَّ العرب لا يستخدمون لفظ بـــ «اكل» بخصوص العسل كما يقول بعض شرّاح لغة العرب، ويُعبر عنه بالشرب دائماً (ولعلَّه بسبب انَّ العسلَ في تلك المناطق يكون خفيفاً)(١).وفي الختام اشار الى تأثير العسل في العلاج قائلا: (فِيْهِ شِفـــاءٌ لِلنّاسِ).والتعبير بـــ (شفاء) بصيغة النكرة، اشارةٌ الى اهميته الفائقة، وكما سيأتي في التوضيحات ان شاء الله، فللعسل الكثير من المزايا العلاجية الجاهزة التي تحتوي عليها الازهار والنباتات الطبية الموجودة على الكرة الارضية، وقد ذكر العلماء لا سيما في هذا العصر خصائص عديدة له تشمل الجانب العلاجي وجانب الوقاية من الامراض ايضاً.فللعسل تأثيرات مذهلة في علاج الكثير من الامراض وهذا يعود الى الفيتامينات والمواد الاساسية التي يحتويها، حيث يمكن القول: (انَّ العسلَ يخدم الانسان علاجياً وصحيّاً وجمالياً).وفي نهاية الآية اشار الى الجوانب الثلاثة الآنفة (بناء خلية النحل، طريقة جمع رحيق الازهار وصناعة العسل، وخصائصه العلاجية) فيقول: (إنَّ في ذلِكَ لاَيةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُوْنَ).وعليه ففي كل مراحل حياة النحل، واستخراج محصول هذه الحشرة الذكية والمثابرة، تظهر للعيان آيةٌ بل آياتٌ لعلمِ وقدرة الخالق جلَّ وعلا الذي ابتدعَ مثل هذه الظواهر المذهلة.

---

(١) «روح المعاني» ج ١٤ ص ١٦٨.

* * *

توضيحات:

١ ــ حضارة النَّحل العجيبة! مع اتساع علم الحيوان وعلم الاحياء والدراسات المستفيضة للعلماء تم اكتشاف مسائل عجيبة وحديثة عن حياة هذه الحشرة الصغيرة اذهلت الانسان بشدة، ولا يُصدِّق ابداً بأنْ يسودَ حياة النحل مثل هذا النظام والتدبير والتخطيط بلا أيِّ احساس طبيعيٍّ.يقول احد العلماء المختصين بعلم الاحياء ويدعى «مترلينغ» الذي كانت له دراسات كثيرة على مدى سنوات طويلة حول حياة النحل، والنظام العجيب الذي يحكم ممالكها يقول: «انَّ الملكة في مدينة النحل ليست هي الزعيم كما نتصورها، بل هي كسائر افراد هذه المدينة تخضع لسلسلة من القوانين والانظمة العامة ايضاً».ثم يضيف: «نحن لا نعرف مصدر هذه القوانين

وبأيّة طريقة توضعُ، ونحن ننتظر اليوم الذي نتوصل فيه الى معرفة واضع هذه المقررات، إلاّ اننا نطلقُ عليه حالياً اسم «روح الخليّة»، ولا ندري اين تكمنُ «روح الخليّة» وفي أيٍّ من سكان الخلية حلَّت، إلاّ اننا نعرف انَّ الملكةَ كالآخرين تطيعُ روح الخلية ايضاً»!.«ان روحَ الخليّةِ لا تشبه غريزة الطيور، ولا تعمل بآلية وارادة عمياء، فهي تشخصُ تكليفَ كلِّ واحد من سكان هذه المدينة العملاقة حسب قابليته وتعطي لكلٍّ منها واجباً، فقد تأمُر مجموعةً ببناء البيت، واحياناً تُصدر أمرَ الرحيل والهجرة»«والخلاصة اننا لا نستطيع ادراك انَّ قوانين مملكة النحل التي توضع من قبل روح الخليّة هل ستطرح في «مجلس شورى» ويُصادقُ عليها ويتخذُ القرار بتنفيذها؟، ومَنْ الذي يُصدرُ أمرَ الحركةِ في اليوم المحدَّد»؟!(١)إلاّ أنَّ القرآن الكريم اعطى جواباً لجميع هذه التساؤلات بتعبير جميل ودقيق

---

(١) كتاب «النحل» تأليف «مترلينغ» ص ٣٥ و ٣٦ مع الاختصار.

جداً اذ يقول:(وَأَوْحى رَبُّكَ اِلى النَّحْلِ)!وهو نفس التعبير الذي ذكرَهُ بخصوص الانبياء((عليهم السلام))، صحيحٌ انَّ هذا الوحي يختلف عن ذلك الوحي كثيراً، إلا انَّ تناسقَ التعبير دليلٌ على اهمية العلم الذي اودعه الله لدى النَّحل، كي يدعو مفكّري العالم الى دراسة اوضاعها.فمن المسلَّم به انَّ بناء خلية النحل يجري بالهام الهيٍّ، لأنَّها تبني تشكيلات سداسيّة منظمة واسعة من كمية قليلة من الشمع (حيث يمكن استغلال جميع زواياه ويكون مقاوماً امام الضغط ايضاً) وتتكون بيوتها من طبقتين، وعندما تبني بيتاً في الجبال أو على الاشجار فهي تقتصر على هاتين الطبقتين إلاّ انها تضيفُ طبقتين اُخريين في الخلايا الاصطناعية وبما يمكن استيعابه منها.ويتخذ قعر البيت شكلا هرمياً حيث يتألف من ثلاثة سطوح لوزية الشكل ويغور الرأسُ والاجزاء البارزة بكل طبقة في قعر الطبقة السفلى.وقد اثبتت التجارب أنه لو كان سطح الشمع مربع الشكل أو باي شكل آخر وصُبَّ في قوالب اصطناعية ويُطلقُ النحل في داخله فسوف لا يرتضي مثل تلك الجدران الخاطئة، بل يرفع الجدران الى الاعلى ويعيدها الى وضعها الصحيح.لقد قاسَ احد العلماء، قعر بيت النحل، فكانت زوايته الكبيرة تُقدرَّ بـــ (١٠٩) درجات و (٢٨) دقيقة، ثم طرحت هذه المسألة على مهندس الماني كبير يُدعى «كنيك» كسؤال عام بأن لو اراد انسان بناءَ هرم بأقلِ كمية من مواد البناء وباكبر ظرفية بحيث يتشكل من ثلاثة سطوح لوزية فما مقدار زواياه؟.فقام بحلَّ هذه المسألة المعقدة بالاستعانة بحساب «ديفرانسيل» وكتب في الجواب، مائة وتسعة درجات وستة وعشرين دقيقة بدون علم منه بأنَّ هذا يرتبط ببيت النَّحل ومتفاوت معه بدقيقتين فقط.ثم تلاهُ مهندسٌ آخر يُدعى «ماغ لورن» فاجرى حسابات

دقيقةً وتأكَّدَ بانَّ تلك الدقيقتين كانتا نتيجة لاهمال المهندس الاول، والجواب الصحيح كما فى عمل

[٣١٧]

النحل»!(١).* * *

.

٢ ــ جمع رحيق الازهار وصناعة العسل:

الأمر الثاني الذي استند اليه القرآن هو جمع العسل من رحيق الازهار، وهو من المسائل المدهشة والمحيّرة حقاً.يقول بعض العلماء: يجب ان تسافر ٥٠ الف نحلة من اجل اعداد كيلو غرام واحد من العسل!.وتؤكد حسابات العلماء ايضاً انه من اجل اعداد كيلو غرام واحد من الرحيق

---

(١) تفسير «ابو الفتوح الرازي» هامش المرحوم الشعراني ج ٧ ص ١٢٣ «مع شيء من الاختصار».

[٣١٨]

يجب أن يَمتصَ النحل سبعة آلاف وخمسمائة زهرة كمعدل ويستخرج رحيقها (وطبقاً لهذه المعادلة يجب امتصاص ٥,٧ مليون زهرة لاعداد كيلو غرام واحد من العسل!)(١).ولابد أن نعلمَ ايضاً انَّ النَّحلَ يسافر يومياً حوالي١٧ــ٢٤ مرة من اجل جمع رحيق الازهار.ولا عجب أن نعلم أن النَحْلَ لم يَذق طعمَ الراحةِ طول عمره، وانه لا يرى النومَ ابداً، فهو يقظٌ طول عمره!(٢).ومن اجل ان ندرك العَمَلَ المرهق لهذه الحشرة الكادحة يجب ان نقول انَّهُ يتعين على النحل ان يسافر ٨٠ ألف مرة ذهاباً واياباً على الاقل من اجل كل اربعمائة غرام من العسل الذي يَحصل عليه، ولو ربطنا هذا الذهاب والاياب معاً وقدَّرنا مسافةَ كلِّ مرة (كمعدل) بكيلو متر واحد، ستكون المسافة التي يقطعها النحل من اجل الحصول على اربعمائة غرام من العسل تعادل ضعفَ محيط الكرة الارضة، أي انَّ هذه الحشرة الكادحة تقطع مسافة ما يعادل ضعف محيط الكرة الارضية من اجل جمع شراب يُصنعُ من اربعمائة غرام من العسل!(٣).ومن الضروري الانتباه الى هذه النكتة وهي انَّ معظمَ الازهار لا تمتلك الرحيق باستمرار كي يستطيع

النحل امتصاصه، بل انها تقدّمُ رحيقها مرةً واحدةً في اليوم وفي ساعات معينة تتبع نوع الزهرة، فبعض الازهار تعطي رحيقها صباحاً، وبعضها ظهراً، وبعضها الآخر بعد الظهر، والعجيب ان النَّحلَ يعرف هذه البرامج جيداً فيتوجه نحو الازهار وفقاً لها تماماً فلا يذهب وقته هدراً!(٤).ويحقُ للانسان ان يخجلَ عندما يشاهد هذه الارقام والاعداد في مجال جمع

---

(١) «تربية النحل» ص ١١٢. (٢) «تربية النحل» ص ١١٥.(٣) «عالم الحشرات» (وفقاً لنقل عجائب الخلق ص ١٤٣).(٤) «الحواس الخفية للحيوانات» (تأليف فيتوس دروشر) ص ١٥٧ (مع الاختصار).

العسل وعدد مرات الطيران وعدد الازهار المستهلكة من اجل غرام واحد من هذه المادة الغذائية المهمة، ولكن لو فكَّر بامعان في نفس الوقت بعظمة خالق هذه الحشرة الكادحة وتَحقَّقَ بعلمه وقدرته لخضع امامه مؤدياً شكر هذه النعمة، ويُمكن ان يكون كل ذلك مقدمةً لهذه الغاية السامية.والنكتة الاخيرة التي يجب ان نذكرها ونغلقَ هذا الملف الكبير قبل ان نخرج عن مضمون البحث التفسيري، هي انَّ النحل علاوةٌ على امتصاصه للرحيق فهو مكلَّفٌ بجمع «الحبوب الصفراء» للازهار المسماة «بولن» ومزجها مع العسل.ولهذه الحبوب آثار حياتية فائقة، فهي تحتوي على٢١ نوعاً من حامض الامونيك وانواع الزيوت، وهورمونات النمو، والسكَّر، والانزيمات، كما تستخدم عصارة الحبوب تلك في معالجة الالتهابات والاورام المزمنة التي تعجز المضادات الحيوية عن علاجها، كما أن لها آثاراً منشطّة ايضاً(١).وللارجل الخلفية للنحل نشوءات كأسنان المشط يثير بها غبار الازهار، ويصنع منه ذرات كروية، وهنالك ايضاً الى جانب تلك النشوءات ما يشبه «السلّة» وآخر يشبه «الملقط» حيث يجمع ذرات غبار الورد هناك ويحفظها، وحينما يعود الى الخليَّة يجلب معه بالاضافة الى رحيق الازهار كرتين صفراوين كانتاج لعملهِ اليومي(٢).* * *

٣ ــ العسل غذاءٌ مفيدٌ ودواءٌ شاف.لقد تحدثَ القرآن الكريم في الجزء الثالث من الآيات المذكورة عن مسألة

---

(١) (الجامعة الاولى) ج ٥ ص ٥٧ الى ٥٩ (مع الاختصار).(٢) «نظرة على الطبيعة واسرارها» ص ١٢٧.

التأثير المهم للعسل في شفاء المرضى بتعبير مختصر وغامض ويتم في هذا العصر ازالة الستار عن اسراره من خلال دراسات المختصين بعلم الغذاء، اذ يذكر هؤلاء مزايا وأثاراً لا تُحصى للعسلِ تبعث على دهشة الانسان.فهم يقولون: انَّ العسلَ مادةٌ لا تفسد ابداً وتبقى صالحةً لآلاف السنين فيما اذا كان صافياً، لأن اي مكروب لا يعيش فيه ابداً (١).وقد عُثرَ في قبور الفراعنةِ على ظروف من العسل تعود الى آلاف خلت من السنين، وقد بقي هذا العسل صالحاً وطبيعياً بشكل كامل، وهذا بحد ذاته دليلٌ على صدق الادعاء اعلاه.العسل ونظراً لأن يُستخرج من رحيق الازهار المختلفة (ونحن نعلم ان كل نوع من الازهار يحتوي على مواصفات علاجية خاصة) فيمكن أنْ يحمل معه صفات هذه الازهار.يقول العلماء: يعتبرُ العسلُ مادةً حيَّةً بسبب احتوائه على الفيتامينات و «الانزيمات» و «حامض الفورميك» فهو يحتوي على الفيتامينات: أ، ب، ث، د، ك، آي، ومواد معدنية كالبوتاسيوم، والحديد، والفسفور، و «الرصاص» و«المنغنيز» و «الالمنيوم» و «النحاس» و «الكبريت» و «الصوديوم» ومواد اخرى متفرقة، وكذلك يحتوي على مختلف الحوامض(٢).ونحن نعلمُ انَّ لكلٍّ من هذه المواد الحياتية دوراً اساساً في حياة الانسان، ولهذا فانَّ العسلَ يحتوي على المواصفات الآتية:يؤثر العسل في تركيب الدم.للعسل أثرٌ جيدٌ في ازالة التعب وتقلص العضلات. يحدُّ العسل من حدوث الالتهابات في المعدة والامعاء.ويؤدي الى ان يتمتع الوليدُ بجهاز عصبيٍّ متين اذا ما تناولته المرأة الحامل.

---

(١) «مجلة السلامة».(٢) الجامعة الاولى ج ٥ ص ١٢٩ (مع شيء من الاختصار).

والعسلُ مفيدٌ لمن لديهم جهاز هضمي ضعيف.ويعتبر العسلُ مُرَمِّماً قوياً.ويؤثر في تقوية القلب.ويولدُ العسلُ طاقةً لا بأس بها لدى المسنّين.ينفع لعلاج قرحة المعدة والاثني عشري.ويفيدُ العسلُ لعلاج مرض الربو «ضيق التنفس».ويعتبر عاملا مساعداً في علاج الامراض الرئوية.ويعتبر دواء لعلاج مرض الروماتيزم، وضعف نمو العضلات، والمتاعب العصبية.ويعدّ العسلُ مفيداً للمصابين بالاسهال نظراً لميزته في قتل الجراثيم.وتُصنعُ منه ادويةٌ تؤثرُ في نعومةِ وجمال الجلد وازالة الحروق والتجعدات.ويُصنع من العسل دواءٌ يعالج ورمَ الفم ويُعطرُ التنفس.ويستثمر العسل ايضاً في معالجة ذبول الجلد، والتشققات، والحروق، والرَّمد، واللدغات المؤلمة للحيوانات، وورم العين، والسعال.وقد قام بعض العلماء بصناعةِ اقراص من

رحيق الازهار تحتوي على مواصفات تشبه مواصفات العسل واهم آثارها مضاعفة طاقة الشباب وتنشيط الخلايا ومن ثمّ يؤدي الى الراحة وطول العمر(١).ولهذا فقد عُرِف انَّ «فيثا غورس» كان يوصي طُلاّبَه «كلوا العَسَلَ والخبز ما استطعتم» وكان «بقراط» يقول: «لو اردتم عمراً طويلا فعليكم بالعسل».إنَّ الآثار المنشّطة والخواص العلاجية والترميمية للعسل اكثر مما تم بحثه في هذا المختصر، حتى دوَّنَ بعضُ العلماءُ كُتباً مستقلةً حول الميزات الغذائية والعلاجية للعسل.وقد جمع القرآن الكريم كل هذه المطالب في جملة (وفِيهِ شِفــاء لِلنّاسِ)

---

(١) «الجامعة الاولى» ج ٥ ص ٢١٢ ــ ٢٩٠، نشرة «الطب والدواء» وكتب اخرى.

بشكل دقيق.ولا عجب ان كانت لدغة النحل والسم الموجود فيها علاجاً للكثير من الامراض ايضاً، كالروماتيزم، والملاريا، وتضخم الغدة الدرقية، والم الاعصاب، وبعض امراض العين، وغيرها، ويجب ان يكون التداوي بوخز النحل حسبَ برنامج خاص وباشراف الطبيب، فمثلا في اليوم الأول مرة واحدة، وفي الثاني اثنتان، وحتى اليوم العاشر يستفاد من عشرة زنابير، وتلك هي المرحلةِ الاولى من العلاج، وأما في المراحل الثانية فيتخذ العلاج شكلا آخر، واذا تجاوز وخزُ النحل الحدَّ المعينَّ فمن الممكن طبعاً أنْ تتمخض عنه اخطارٌ، كما أن قليلُهُ مضر بالاشخاص الذين لديهم حساسية اتجاهه.لقد كتبَ بعضُ العلماء مقالةً أو مقالات بهذا الخصوص، واختار بعضهم رسالته للدكتوراه تحت عنوان «مستخرجات سمِّ النحل وخواصها العلاجية»(١).* * *

٤ ــ خدماتٌ اخرى للنحل أَثمنْ من العسل!

انَّ حياة النحل مليئةٌ بالعجائب والاحداث، وما تحدثنا عنه لحد الآن كانَّ جانباً منها، فقصة بناء الشمع ــتلك المادة التي يُشيد منها بيت النحل بشكل كاملــ بحد ذاتها قصةٌ مفصَّلة، والعجيب انها لا تستثمر هذا الشمع لبناء البيت فقط، فقد تقوم بتحنيط اجساد الحشرات المؤذية التي لا تستطيع دفعها الى الخارج كي تأمنَ شرَّها!.يقول أحد خبراء النحل: انه لفت انتباهه في أحد الايام وجود كرة كبيرة نسبياً داخل خلية نحل، وعندما فتحها وجد فيها جثة جرادة حنَّطها النحل.وقال بعضهم عن الشمع، انه روح العسل والعسل روح الزهر وهو خفيف،

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٤.

بحيث إنّ وزن خمسمائة بيت من مدينة النحل لا يتجاوز بضعة غرامات، ولا شكَّ في صعوبة معرفتنا بكيفية ترشح هذا الشمع بالنسبة للنحل، غير أننا نعرف جيداً انَّ للشمع استعمالا هاماً.وعملية تلقيح وحمل الازهار، من اهم اعمال النحل.يقول احد العلماء: «لولا وجود الحشرات، لخلت سلالُنا من الفاكهة، لأنَّ الحشرات التي تستفيد من الازهار يمكن أن تلحقها افضلَ من بقية العوامل، فعندما تمدُ احدى الحشرات التي تعشقُ الازهار خرطومَها في الزهرة،

فهي اما أنْ تُدخلَ اغلبَهُ، أو أنْ تُدخلَ جزءاً من جسمها في الزهرة كما يحدث غالباً، وفي خروجها يتغطى جسمُها بالغبار ذي اللون الاصفر وهو غبار الورد، فتنقله مباشرة الى زهرة اخرى ــ وكما نعلمــ ان غبار الازهار عاملٌ مؤثرٌ فلا تتبدل البذور الى حبوب، ولا المبيض الى ثمار بدونه.وهذه النكتة جديرةٌ بالاهتمام من الناحية الفلسفية إذ إنَّ الحشرات التي تعشق الازهار تميل اليها منذ بدء التكوين... كلٌ منها بموازاة الاخرى، ينمو ويتكامل، وقد وصل الحال بها اليوم الى عدم قدرتهما على الحياة منفصلة عن بعضها... ومن اهم الحشرات التي تعشقُ الازهار ــولا بد انكم تعرفونهاــ هي: الفراشة، والنحل، والزنبور الذهبيو... لكن النحل اكثرُ استعداداً وتجهيزاً من بين هذه الحشرات لاخراج الغبار والرحيق من الازهار»(١).ومن الضروري الانتباه الى أنّ الاشجار التي تحتوي على الازهار الذكرية والانثوية صنفان: الاشجار العقيمة غير المثمرة، والاشجار المثمرة التي لها القدرة على ذلك.ومن اجل تكون الثمار في الصنف الاول لابد من وجود واسطة للتلقيح، وهذه الواسطة عبارة عن النحل، وقد ثَبُتَ ان ٨٠ % من عملية تلقيح الازهار يجري عن طريق النحل، ومن اجل المزيد من الاطلاع على دور النحل يجب الانتباه الى ان

---

(١) «نظرة على الطبيعة واسرارها» ص ١٢٦.

جميع انواع التفاح، والاجاص، والكرز، واللوز وأمثالها تعتبر من الاشجار العقيمة!وقد واجهت المساعي التي بُذلت بصدد اجراء التلقيح بالطرق الكيمياوية والميكانيكية والاصطناعية فشلا ذريعاً، ومن هنا يتضح دور النحل(١).ويضيف العلماء: «انَّ النحل يساعدنا بكلفة لا تقل عن مائتي الف درهم في الزراعة مقابل كل الف درهم من العسل والشمع الذي يصنعه لنا»!(٢).ونختم هذا الحديث بجملة عجيبة عن «متر لينغ» استاذ علم البيئة، بقوله: «لو هلك النحل (سواء الوحشي منه أو الاليف)، فسيَفنى مائةُ الفِ نوع من النباتات والازهار والثمار وما يدريك بأنْ لا تزول حضارتنا أصلا»!!(٣).* * *

٥ ــ البناء الجسمي للنحل عجيبٌ ايضاً!

انَّ تركيب النحل ذاته ذو قصة طويلة ومدهشة وعيونها بالذات اكثرُ عجباً اذ يقول العلماء: تتألف عيون النحل من الفين وخمسمائة طبقة صغيرة! تُشكِّل مع بعضها زوايةً من٢ــ٣

درجات، وهذه العيون قادرةٌ على تعيين الشمس فيما اذا حجبتها الغيوم، عن طريق الاشعة فوق البنفسجية التي تؤثر فيها.لغة النحل وتشاورها مع بعضها تعد من الحقائق العلمية التي تم اكتشافها في السنوات الاخيرة ايضاً(٤).انَّ النحلَ لا يرى الازهار الملّونة بشكلها ولونها الذي نراه، بل انه يرى بواسطة الاشعة فوق البنفسجية، وهذا النور يضاعف في جمال الازهار فيجذبها نحوها(٥).وللأسف فانَّ طبيعة البحث لا تسمح لنا بمزيد من الكلام في هذا المضمار،

---

(١) «تربية النحل» ص ٢٣٣ و ٢٣٤ «مع الاختصار».(٢) اقتباس عن «عالم الحشرات».(٣) «الجامعة الاولى» ج ٥ ص ٥٥.(٤) «الحواس الغامضة للحيوانات» ص ١٣٧ و ١٤٠ و ١٤٣. (٥) «سرُّ خلق الانسان» ص ٩٣.

ولكن يجب القول بأنه كلَّما سَمعنا عن هذه الحشرة ونشاطاتها التي اشار اليها القرآن الكريم تتكشفُ لنا اسرارٌ جديدة عن قدرة الاله العظيم خالق كلِّ هذه العجائب.و «حسناً للختام» نُيممُ باسماعنا وقلوبنا صوب كلام الامام الصادق((عليه السلام)) حيث يقول في توحيد «المفضّل»: «انظر الى النحل واحتشاده في صنعة العسل، وتهيئة البيوت المسدسة وما ترى في ذلك اجتماعه من دقائق الفطنة فانك اذا تأملت العمل رأيته عجيباً لطيفاً واذا رأيت المعمول وجدته عظيماً شريفا موقعه من الناس، واذا رجعت الى الفاعل الفيته غبياً جاهلا بنفسه فضلا عما سوى ذلك، ففي هذا أوضح الدلالة على أن الصواب والحكمة في هذه الصنعة ليس للنحل بل هي للذي طبعه عليها وسّخره فيها لمصلحة الناس.»(١).

---

(١) «بحار الانوار» ج ٣ ص ١٠٨.

١٩ ــ آياته في خلق الحيوانات

تمهيد:

انَّ الحيوانات تُمثل جانباً عظيماً من الموجودات الحيَّة في العالم، وهي تجلب اهتمامَ كلِّ ناظر اليها لتراكيبها المختلفة واشكالها المتنوعة وتباينها الكثير، وعجائبها العظيمة، ودراسة كلٍّ منها، تُعرِّفُ الانسانَ على العلم والقدرة غير المتناهية لخالقها.وتتجلّى اهمية هذه المسألة عندما نرى هذه الحيوانات في مكان واحد، فمثلا لو ذهبنا الى حديقة الحيوانات، وزرنا غرفَ الاسماك وانواع الطيور، والقردة، والاسد والفهد والنِّمروالزّرافة والفيل، وننظرَ عادات وعجائب خلق كلٍّ منها، فلا يمكن لمن يمتلك قليلا من العقل والفطنة،ان لا يغرق بتفكيره بها، ولا يُذعن امام خالق هذه الموجودات المتنوعة والعجيبة.ومن بين هذه الحيوانات ، هنالك حيوانات اليفة تخدم الانسان وذات منافعَ وبركات مختلفة للبشر، جديرةٌ بالاهتمام اكثر من غيرها، لهذا فقد استند القرآن الكريم في آياته التوحيدية الى جميع الدواب بشكل عام والى الانعام والبهائم بشكل خاص، وذكرَ جوانبَ من عجائبها في آيات عديدة.بهذا التمهيد نستمع خاشعين الى الآيات الآتية:١ ــ (وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمــوات والأَرْضِ وَمــا بَثَّ فِيْهِمــا مِنْ دابّة وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ اِذا يَشاءُ قَدِيْرٌ)(١).٢ ــ (انَّ في السَّمــواتِ والأرْضِ لآيات لِلْمُؤْمِنِيْنَ وَفي خَلْقِكُمْ وَمــا يَبُثُّ مِنْ دابّة آياتٌ لِقَوْم يُوْقِنُون)(٢).

---

(١) (الشورىالآية: ٢٩).

(٢) (الجاثية الآية: ٣ ــ ٤).

٣ ــ (أفَلا يَنْظُرُوْنَ اِلى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)(١).٤ ــ (وانَّ لَكُمْ في الأنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيْكُمْ مِمّا في بُطُوْنِهــا وَلَكُمْ فِيْهــا مَنافِعُ كَثِيْرَةٌ وَمِنْهــا تَأْكُلُوْنَ ــ وَعَلَيْها وَعَلى الْفُلْكِ تُحْمَلُوْنَ)(٢).٥ ــ (وانَّ لَكُمْ في الأنْعامِ لَعِبْرَةً نَسْقِيْكُمْ مِمّا في بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْث وَدَم لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشّارِبِيْن)(٣).٦ ــ (واللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوْتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُوْدِ الأنْعامِ بُيُوْتاً تَسْتَخِفُوْنَهــا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إقامَتِكُمْ وَمِنْ أصْوافِهــا وأوْبــارِهــا واشْعارِهــا أثــاثاً وَمَتاعاً إلى حِيْن)(٤).٧ ــ (وَمِنْ النّاسِ والدّوابِّ والأنْعــامِ مُخْتَلِفٌ ألْوانُهُ كَذلِكَ انّمــا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ انَّ اللهَ عَزِيْزٌ غَفُوْرٌ)(٥).٨ ــ (أوَلَمْ يَرَوْا أنّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمّا عَمِلَتْ ايْدِيْنــا انْعــاماً فَهُمْ لَهــا مالِكُوْنَ وَذَلَّلْناهــا لَهُمْ فَمِنْهــا رَكُوْبُهُمْ وَمِنْها يَأكُلُوْنَ ــ وَلَهُمْ فِيْها مَنافِعُ وَمَشارِبُ اَفَلا يَشْكُرُوْنَ)(٦).٩ ــ (والَّذي خَلَقَ الأزْواجَ كُلَّها وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْفُلْكِ والأنْعامِ مــا تَرْكَبُوْنَ لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُوْرِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوْا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ اِذا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُوْلُوا سُبْحانَ الَّذي سَخَّرَ لَنا هذا

وَمــا كُنّا لَهُ مُقْرِنِيْن)(٧).١٠ ــ (اللهُ الَّذي جَعَلَ لَكُمْ الانْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَمِنْها تِأْكُلُوْنَ ــ وَلَكُمْ فِيْهــا مَنافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهــا حــاجَةً في صُدُوْرِكُمْ وَعَلَيْهــا وَعَلى الْفُلْكِ

(١) (الغاشية ١٧).
(٢) (المؤمنون الآية: ٢١ــ٢٢).
(٣) (النحل الآية: ٦٦).
(٤) (النحل الآية: ٨٠).
(٥) (فاطر الآية:٢٨).
(٦) (يس الآية: ٧١ ــ ٧٣).
(٧) (الزخرف الآية: ١٢ و ١٣).

تُحْمَلُوْنَــ ويُرِيْكُمْ آياتِهِ فَايَّ آياتِ اللهِ تُنْكِرُوْن)(١)(٢).* * *

شرح المفردات:

(دابّة) كما قلنا سابقاً من مادة «دبيب» أي السير ببطىء وهدوء، إلا انها تُطلقُ عادةً على جميع الحيوانات، وعلى المذكر والمؤنث والموجودات التي تَدُبُّ على الارض وحتى طيور السماء، وجمعها «دوابّ» وتعني البهائم.وقد تستعملُ احياناً بصدد نفوذ وحلول شيء في موجود آخر، فيقال مثلا: دبَّ الشرابُ في الجسم ودبَّ السُّقمُ في البدن.وهذا المفهوم يشملُ حتى الانسان وموارد استعماله في القرآن الكريم تشهدُ على ذلك(٣).(انعام) جمع «نَعَم» (على وزن قَلَم) وهي مأخوذة في الاصل من مادة «نعمة» ثم أُطلقت على «الجَمَلْ»، لأنَّ الجَمَلَ كان من افضل النعَمِ لدى العرب، ويُطلقُ هذا اللفظ ايضاً على الدواب الاخرى كالبقر والماشية بشرط أنْ يكون الجملُ جزءاً منها(٤).وصرَّحَ رهطٌ من ارباب اللغة انَّ «النِّعَم» ذات معنىً جمعي ولا مفرد لَها، و (انعام) جمع الجمع(٥).يقول «ابن منظور» في «لسان العرب»: انَّ «النَّعَم» تعني الحيوان المجتر، ثم ينقل عن آخرين ان «النَّعم» تُقالُ بخصوص الجَمل، وعن بعضهم الآخر انها تُطلقُ

(١) (غافر الآية: ٧٩ ــ ٨١).
(٢) هنالك آيات اخرى في هذا المجال ايضاً مثل: الشعراء : ٣٣ والانعام: ١٤٢ والزمر:٦ والزخرف:

١١.(٣) لسان العرب، مفردات الراغب، ومجمع البحرين (مادة دبّ).(٤) مفردات الراغب.(٥) مجمع البحرين واقرب الموارد.

* * *

ماذا يجري عالم الحيوانات؟

بعد الاشارة في الآية الاولى والثانية الى آيات اللهِ في خلق السماوات والارض، وكذلك خلق الانسان اشار الى خلق كافة الحيوانات الموجودة في السماوات والارض، قائلا (ومِنْ آياتِهِ خَلَقُ السَّمــواتِ والأَرْضِ وَمــا بَثَّ فِيْهمــا مِنْ دابَّة).(بَثَّ) تعني في الاصل تفريق الشيء كما يُفرّق الهواء الاتربة، وهذا التعبير في الآية يعني تكوين وخلق وابراز الموجودات المختلفة، ونشرها في مختلف المناطق.على أية حال.. انَّ هذا التعبير يشملُ جميع البهائم والحيوانات والانسان، ابتداءً من الموجودات المجهرية التي تتحرك حركةً دقيقة وخفيَّةً وحتى الحيوانات العملاقة التي يبلغ طولها عشرات الامتار وقد تزن اكثر من مائة طن(١) ويضم كلَّ انواع

---

(١) يصل وزنُ بعض الحيتان الى مائة وعشرين طناً، وكما يقول صاحب كتاب «نظرة على الطبيعة واسرارها» (البروفسور ليون برتن) فانَّ هذا الوزن يعادل وزن الفِ وخمسمائة رجل ضخم الجثة! أو اربعة وعشرين فيلا ضخما! وقد أجريت حسابات على وزن اعضاء جسمها: فقلبه يزن ستمائة كيلو غرام، والدم يزن ثمانية آلاف كيلو غرام، والرئتان طناً واحداً، والعضلات خمسين طناً، والجلد والعظام والامعاء والاحشاء تزن ستين طنا (ص٢٣٨).

الطيور ومئات الآلاف من انواع الحشرات المختلفة، وآلاف الآلاف من انواع الحيوانات الوحشية والاليفة والحيوانات المفترسة والزواحف والاسماك الصغيرة والكبيرة والموجودات الحيَّة في البحار.لو تأملنا قليلا في سعة مفهوم «دابة» وشموله بالنسبة لجميع انواع البهائم لتجسد امامنا عالمٌ من العجائب والغرائب ومناظرُ من القدرة، حيث يكفي كلٌ منها أنْ يُعرفَنا على علمِ وقدرة الخالق العظيم لهذا الخلق.لقد دُوّنت الملايين من الكتب وبمختلف اللغات حول خصاص بناء وحياة انواع الاحياء، واعدّوا الكثير من الاشرطة المصورة في هذا المجال،

واصدروا مجلات مختلفة وبلغات متباينة بخصوص هذا الموضوع، حيث تجعلُ مطالعتُها الانسانَ يغرقُ في بحر من العجائب والغرائب، وقد أزالت المساعي التي بُذلت من قبل العلماء على مدى آلاف السنين لمعرفتها، الحجاب عن جانب واحد فقط من حياتها، ومن المسلَّم به انَّ المستقبل سيشهد في كل يوم انكشاف اسرار جديدة من حياتها.فبعض العلماء قضى عشرين عاماً من عمره لدراسة حياة النمل فقط، واذا ارادوا دراسة حياة كافة انواع الحيوانات بهذا الاسلوب فمن غير المعلوم أنْ يكفي عمر البشرية لمعرفة اسرارها. والجدير بالذكر انَّ ما نتحدث عنه هو الكائنات الحيَّة الموجودة في الارض، بينما يستفاد من تعبير (فيهما) (في السماء والارض) أنْ هنالك احياءً كثيرة في السماوات ايضا ليست في متناول دراسات علمائنا، وربّما يعثر الانسانُ على موجودات حيَّة عجيبة وغريبة اخرى في باقي الكواكب من خلال الرحلات الفضائية حيث يصعبُ علينا الآن تصور شكلها ومواصفاتها.وقال بعض المفسِّرين إنَّ المقصود من حيوانات السماوات هي الملائكة، بينما لا تُطلقُ كلمة (دابّة) على الملائكة ويعتقد بعضهم ايضاً بعدمِ وجود أيَّ كائن حيٍّ في السماوات غير الملائكة، وقد ذكروا تبريرات وتفاسير اخرى للآية، بينما

يتضح هذا المعنى لدينا اليوم إذ إنَّ الكائنات لا تقتصر على الكرة الارضية فقط، وكما يقول العلماء هنالك ملايين الملايين من الكواكب في هذا الفضاء الفسيح يمكنُ السكنُ فيها من قبل الدّواب والاحياء.والجدير بالذكر ايضاً ان الحيوانات لا تعتبر آية من آيات الله من خلقتها وطراز حياتها وجوانبها المختلفة فحسب، بل لفوائدها العديدة وخيراتها الكثيرة التي تفيض بها على الانسان.واذا قال: (آياتٌ لِقَوْم يُؤمِنون) فهو اشارة الى الذين لديهم الاستعداد لقبول الحق والايمان ولم يقصد المعاندين والمتكبرين والانانيين.

***

ويقول في الآية الثالثة من البحث بصيغة استفهام توبيخي: (أَفَلا يَنْظُرونَ إلى الابلِ كَيْفَ خُلِقَتْ).واللطيف انه تمت الاشارة بعد ذلك الى عظمة خلق السماء، ثم الجبال ومن بعدها الارض، فوضعُ الابلِ الى جانب هذه الاشياء، يُعتبرُ دليلا على اهمية خلق هذا الحيوان.انَّ التأمُلَ في اوضاع هذا الحيوان، يدللُ على انه ذو مواصفات متباينة تجعلُهُ يختلف عن باقي الحيوانات الاخرى، ويتضح جيداً من خلال الانتباه الى هذه المواصفات لماذا استند القرآن الكريم الى هذا الموضوع بشكل خاص ومن جملتها:١ ــ انَّ مقاومة الجَمَلَ لا نظير لها، لا سيما ازاء الجوع، وشدة التحمُّل وقد يقاوم العطشَ هو اصعبُ من الجوعِ لعشرةِ أيّام او اكثر ولهذا يعتبرُ افضل وسيلة لقطع الصحراء القاحلةِ، لذلك فقد اطلقوا عليه «سفينة الصحراء». لأنَه يتمكن من خزن

الغذاء والماء لمدة طويلة في بطنهِ ويقتصدُ في استهلاكها أيضاً.٢ ــ لا يتقيد بنوع خاص من الغذاء في طعامه، وغالبا ما يتغذى على كل ما ينمو في الصحراء.

[٣٣٥]

٣ ــ والاعجب من ذلك انّه يواصلُ طريقه شاقاً العواصف الترابية المليئة برمال تعمي العيون وتصم الآذان، وهو يستطيعُ سدَّ منخريه مؤقتاً، ويحافظ على اذنيه من الغبار، ولعينيه هدبان يُطبق احدهما على الآخر في هذه الظروف، وينظر من خلفهما، وما قاله بعضهم بانَّ الجمَلَ يسير مغمضَ العينين فانَّ هذا هو المقصود.حتى ذكر بعض المفسِّرين انَّه يُحسنُ تشخيص الطريق في الليالي المظلمة ايضاً!.٤ ــ انَّ الحيوانات تتباين فيما بينها، فبعضها يستفادُ من لحمه ومنها مَنْ يفيد في الركوب، وبعضُ يستفادُ من لبنه فقط، وبعضها الآخر للحمل، إلاّ انَّ الجَمَلَ يجمعُ بين هذه الجوانب الاربعةِ جميعها، فيستفاد منه للركوب ولحمل الامتعة ومن لبنه وجلده ووبره.٥ ــ ومن العجائب المتميزة لهذا الحيوان هي أنَّ الحملَ يوضَعُ على ظهرهِ أو يُركبُ اثناء بروكهِ، وينهض وبحركة واحدة من مكانه ليقف على ارجلهِ، بينما تنعدم هذه القدرة لدى باقي الحيوانات.وقد ذكرَ بعضهم انَّ هذا يعود الى القدرة العجيبة الكامنة في رقبته الطويلة التي تعمل طبقاً لقانون «الرافعة» الذي اكتشفه «ارخميدس» لأول مرة، (فهو يقول: لو وجدتُ نقطة للاتكاء خارج الكرة الارضية لتمكنتُ برافعة ضخمة من تحريك هذه الكرة عن مكانها! وهذا هو الواقع، فطبقاً لقانون الرافعة انَّ الضغط الوارد على أحد طرفي الرافعة الذي يضرب في المسافة بينه وبين نقطة الاتكاء يوجد في الطرف الآخر للرافعة الاقرب الى نقطة الاتكاء ضغطاً عظيماً).وانطلاقاً من هذا فانَّ رقبة البعير تكتسب صفة الرافعة استناداً الى نقطة ارتكازها المتمثلة في الأرجل الامامية ومن خلال حركة سريعة وقوية تعمل على تخفيف الاحمال الموجودة على ظهر البعير وتسمح له باطلاق ارجله الخلفية وينهض من مكانه!(١).

---

(١) اشير اشارة قصيرة في كتاب «الجامعة الاولى» ج ٦ ص ٣٢ الى هذه المسافة، وكما أُشير في كتب اخرى باشارات مفصلة.

[٣٣٦]

كلُ هذا وعجائب ومواصفات اخرى أدّت الى أن يُستند اليه بوصفه آية من آيات الله العظيمة، وليس فقط لأنَّ الجَمَلَ كان من الاركان المهمة في حياة العرب الذين كانوا أولَ من خوطب بهذه الآيات.فمنْ يستطيع أنْ يخلقَ كلَّ هذه العجائب والبركات في مخلوق واحد؟ ومن ثمَّ يجعلُهُ مطيعاً للانسان بحيث لو أَخذَ طفلٌ صغيرٌ بعنانِ قافلة من الابلِ لكان بمقدوره أنَّ يأخذه الى المكان الذي

يصبوا اليه، والعجيب ان الانغام الموزونة (كالحدي) تترك أثراً في نفسهِ ايضاً وتدفعه الى الحركة بحيوية ونشاط وشوق.أوليست هذه آياتٌ عن عظمة وقدرة الخالق؟ أَجَلْ فاولئك الذين لا يمرُّون على هذه الآيات مرور الكرام باستطاعتهم أن يدركوا اسرارها (لا تَنسَوْا ان جملة (افلا ينظرون) من مادة «نَظَرْ» إلاّ انّها ليست النظر العادي، بل النظر المتزامن مع التفكُّر والتأمُّل).***ويقول في الآية الرابعة والخامسة ضمن اشارته الى المنافع المختلفة للحيوانات بالنسبة للانسان (وإنَّ لَكُمْ في الأنْعــامِ لَعِبْرَةً).وذُكرت (عبرة) هنا بصيغة «نكرة» حيث تعتبر دليلا على اهميته الفائقة، وكما يقول الراغب في كتاب المفردات «عِبرَة» من مادة عَبْر وتعني العبور والانتقال من حالة الى اخرى، وهنا حيثُ يرى المعتبرُ حالةً يدلكُ من خلالها على حقيقة لا يمكن ملاحظتها فاطلقوا على ذلك «عبرة».وعليه فانَّ مفهوم الآية هو بمقدوركم اَنْ تصلوا الى معرفة الله وعظمة وعلم وقدرة مُبدىء الخلق العظيم من خلال ملاحظة اسرار وعجائب الحيوانات.ثم اشار القرآن في شرحه لهذا المعنى الى اربعةِ جوانب من الفوائد المهمة للحيوانات فيقول ابتداءً: (نُسْقِيْكُمْ مِمّا في بُطُوْنِها)نعم، اللبن هذه المادة السائغة الطعم التي تخرج من الحيوانات ومن بين دمها ولحمها شراباًمغذياً كاملا، وورد هذا

المعنى مع تأكيد اكثر في الآية الخامسة اذ يقول (نَسْقِيْكُمْ مِمّا في بُطُوْنِهــا مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَم لَبَناً خالِصاً ســائِغاً لِلشّارِبِيْن)(١).فأيُّ قدرة تلك التي تُخرجُ مثل هذا الغذاء الطاهر الصافي اللذيذ من بين تلك الاشياء الملّوثة؟ لونه ابيض، طعمه حلوٌ، رائحته عطرة، ومقبولٌ من جميع الجهات.والعجيب ما يذكره العلماء.. فمن اجل انتاج لتر واحد من الحليب في ثدي الحيوان يجب أنْ يمرَّ ما يقارب خمسمائة لتر من الدم خلال هذا العضو كي يتم امتصاص المواد اللازمة من الدم لتكوين ذلك اللتر من اللبن! ومن اجل انتاج لتر واحد من الدم في الشرايين لابدَّ أنْ تمُرَّ الكثير من المواد الغذائية خلال الامعاء هنا حيث يتجلّى مفهوم (مِنْ بَيْنِ فرث وَدَم).وقد قيلَ الكثير حول تركيب اللبن وكيفية تكوينه في الأثداء، وانواع المواد الاولية والفيتامينات الموجودة فيه، ومزاياه التي تمنح الطاقة، والمستخرجات المتعددة التي تُنتجُ منه، وفائدته لكلِّ الاعمار، بحيث لو جُمعَتْ لألَّفَتْ كتاباً مُعتَبراً، يُخرجُنا التطرق اليه عن اطار البحث التفسيري.ونكتفي هنا بذكر رواية مليئة بالمعاني عن النبي((صلى الله عليه وآله وسلم)) حيث يقول: «إذا أكَلَ أحَدُكُمُ طعاماً فَلْيَقُلْ اللّهُمَّ بارِكْ لَنــا فيهِ، وأطْعمنا خيراً مِنْهُ، واذا شَرَبَ لَبَناً فَلْيَقُل أللّهُمَ بارِكْ لَنــا فيهِ، وَزِدْنا مِنهُ، فَانّي لا أَعْلَمُ شَيئاً أنْفَعُ في الطّعامِ والشَّرابِ مِنْهُ»(٢).ثم يتطرق الى الفائدة الثانية للحيوانات ذوات الاربع، فيقول في جملة قصيرة

(١) «فرث» بمعنى الغذاء المهضوم، والجدير بالذكر انَّ «بطونها» ذُكرت في سورة المؤمنون مع ضمير مؤنث حيث لها معنىً يفيد الجمع في مثل هذه الموارد، وفي سورة النحل «بطونه» بضمير المذكر اذ لها معنىً فردي، وقال بعض المفسِّرين ان «انعام» اسمُ جمع ولو لوحظ ظاهر اللفظ فانَّ ضمير المفرد يعود اليها، ولو لوحظ معناه فانّه ضمير جمع ولو لوحظ ظاهر اللفظ فانَّ ضمير المفرد يعود اليها، ولو لوحظ معناه فانّه ضمير جمع وقال بعضهم ان ضمير المفرد لمفهوم الجمع وضمير المؤنث لمفهوم الجماعة، (يُراجع تفسير الكشاف والفخر الرازي وروح المعاني و «ابو» الفتوح الرازي).(٢) «روح البيان» ٩ج ٥ ص ٤٨.

[٣٣٨]

وغامضة (وَلَكُمْ فِيْهـــا مَنافِعُ كَثِيْرَةٌ).وهذا التعبير يُمكنُ أنْ يكون اشارة الى الصوف والوبر والشَعَر في الحيوانات والتي يُصنعُ منها انواع الملابس والفرش باستمرار، وكذلك اشارة الى الجلود والامعاء والعظام والقرون التي تُصنعُ منها وسائل الحياة المختلفة ، وحتى فضلاتها يمكن استخدامها في تنمية الاشجار وتنشيط الزراعة والنباتات.وفي المرحلة الثالثة اشار الى فائدة اخرى قائلا: (وَمِنْهـــا تَأكُلُوْنَ).مع ما ذكره خبراء الغذاء من كل اضرار اللحم، وبالرغم من المؤاخذات الواردة على آكلي اللحوم في العالم من الناحية الطبية والاخلاقية وغيرها، فأنَّ الكثير يعتقدون أنَّ استهلاك اللحم بكمية قليلة ليس غير مضر فحسب بل وانَّهُ ضروريٌّ بالنسبة لجسم الانسان، وتبرهنُ تجارب الذين يعيشون على النباتات بأنَّهم مصابون بالاضطرابات والنواقص وتؤيدُ وجوهُهُم الصفراء ذلك، وهذا يعود الى انَّ البروتين وبعض العناصر الاساسية الموجودة في اللحم لا يمكن الحصول عليها في أيَّ نبات ابداً، والاهمية التي يعطيها القرآن لهذه المسألة تحكي عن هذا المعنى.ولكن مما لا شك فيه انَّ الافراط في اكل اللحوم شيءٌ مذمومٌ في نظر الاسلام ومن وجهة النظر الطبية ايضاً.واشار في الجزء الرابع والاخير من هذه الآية الى الاستفادة من الحيوانات للركوب. فيقول (وَعَلَيْهـــا وَعَلى الْفُلْكِ تُحْمَلُوْنَ).فقد كانت هذه الحيوانات على الدوام خير وسيلة للحمل والركوب، واليوم في عصر السيارات والشاحنات لم يستغنِ البشر ايضاً عن وجود هذه الحيوانات للركوب وحمل الامتعة، لا سيما في بعض المناطق الجبلية والطرق التي لا يمكن استغلال وسائط النقل الحديثة فيها، فيستفاد من الحيوانات في الحمل والنقل فهنالك حيوانات كالبغال تعتبر افضل وسيلة لارسال العتاد الى جبهات الحرب على اعالي الجبال الوعرة، ولولاها لاصبح من الصعوبة السيطرة على الجبال الشاهقة الواسعة.

[٣٣٩]

وبهذا فقد خلقَ الباري تعالى فوائد جمّة في هذه الحيوانات، وبيَّنَ آثار عظمته وفضله على الانسان من خلالها.واللطيف انَّ الحيوانات جاءت في هذه العبارة من الآية في مقابل السفن وهذا دليلٌ على انّها بمثابة سفن اليابسة!(١).*وفي الآية السادسة وكتعريف بالذات الالهية، أو ذكر النِّعم التي تجُّر الانسان الى معرفته، اشار الى مايستفيده الانسان من جلود واصواف الحيوانات، فيقول (واللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً).ثم يضيف: (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُوْدِ الأَنْعــامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ويَوْمَ إقامَتِكُم).**

أجل.. فالبيوت الثابتة لا تُلبي حاجةَ الانسان باستمرار، ففي الكثير من الحالات يحتاج الانسان الى بيوت متنقلة كي يستطيع حملها ونقلها بسهولة وتقاوم في نفس الوقت البردَ والحرَّ والرّياح والعواصف وامثال ذلك، ومن افضل البيوت المتنقلة هي الخيام التي تصنع من الجلود التي تمت الاشارة اليها في هذه الآية، وهي اقوى من الخيام المصنوعة من الصوف أو القطن واكثر مقاومةً وراحةً.ويتطرق في ختام الآية الى جانب آخر من منافعها المهمة، اذ يضيف: (ومِنْ أَصْوافِها وَ أَوْبارِها وأَشْعارِها أَثاثاً وَمَتاعاً إلى حِيْن)(٢).ونحنُ نعلمُ طبعاً انَّ الصوف من الاغنام، والوبر من الابلِ، والشَّعْرَ من الماعز،

---

(١) وورد ما يشابه هذا المضمون في الآيات ٥ الى ٨ من سورة النحل حيث يشير الى المنافع المتعددة للحيوانات.(٢) «بيوت» جمع «بيت» ويعني حجرة او بيت الانسان الذي يأوي اليه ليلا، ولفظة «بيتوته» التي تعني «المبيت ليلا» مأخوذة من ذلك ايضاً، «ظعن» تعني الرحيل والتنقل من مكان الى آخر وهي تقابل «الاقامة»،... «اثاث» مأخوذة من مادة «اَثّ» وتعني الكثرة و الاضطراب وتطلق على لوازم البيت نظراً لكثرتها واعتبرها بعضهم بمعنى الغطاء واللباس وبعضهم بمعنى البساط في حين اعتبرها بعضهم الاخر راجعة الى «المتاع» الذي يعد وسيلة للتمتع والاستفادة وانهما بمعنى واحد.

ونعلمُ ايضاً انَّ انواع الملابس، والفرش، والاغطية، والستائر، والخيام، والسُفَر، والحبال، وامثالها مما يلعب دوراً مهماً في حياة الانسان، تُصنعُ جميعها من هذه المواد الثلاث.وبالرغم من انَّهم قاموا في هذا العصر بصناعة انواع الملابس والفراش من المواد الصناعية والنفطية، إلا انَّ دراسات العلماء اثبتت انّها لا تُعتبر صالحةً لحياة الانسان، وغالباً ما تؤدي الى مضاعفات غير ملائمة له، بينما تُعتبر الملابس الصوفية والوبرية والشَعرية من اصلح الملابس.وقد اعتبرَ بعضهم التعبيرَ بـــ (الى حين) اشارةً الى دوام الآلات التي تُصنعُ من هذه المواد الثلاث، ويعتبرها بعضهم اشارةً الى انَّ جميع ذلك الاثاث معرض للزوال ولا يجب التعلُّق به، ويبدو انَّ هذا المعنى اكثر تناسباً.***وفي الآية السابعة التي وردت ضمن الآيات التوحيدية في سورة فاطر ، أثارَ انتباه النبي ((صلى الله عليه وآله وسلم)) الى خلق الانسان والدَّوابِ والأَنعامِ، قائلا: (ومِنَ النّاسِ والدَّوابِّ والأَنْعامِ مُختَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ)(١).أي كما خلقَ الله تعالى انواعَ الثمار وبالوان متباينة، وتتباينُ الوانُ الجبال فيما بينها، فقد خلقَ الواناً مختلفةً في الاحياء سواء الانسان أم الدَّواب أو الأنعام، بالرغم من انَّ اغلب المفسرين اتّخذوا الالوان هنا بمعنى الالوان الظاهرية المختلفة(٢)، ولكن يبدو ان التعبير المذكور ذو معنىً واسع، ويُعتبرُ اشارة الى تفاوت انواع واصناف الناس والدَّوابِّ والانعام، الذي يعتبر من اهم عجائب وغرائب

الخلق.لا شك اننا نعلمُ انَّ هنالك اليوم مئات الآلاف من انواع الدَّواب والحيوانات في العالم، بل يذكر بعض العلماء انَّ انواعها تبلغ مليوناً وخمسمائة الف نوع!، وهذا

---

(١) «من الناس» خبرٌ لمبتدأ محذوف، والتقدير هو: «ما هو مختلفٌ الوانه»، و«كذلك» اشار الى الثمار المختلفة والوان الجبال المتفاوتة التي وردت في الآية السالفة.(٢) «الميزان» و «تفسير (ابو) الفتوح الرازي» و «تفسير في ظلال القرآن» و«تفسير القرطبي» وغيره.

التباين العجيب وبهذه المواصفات التي يمتلكها كلٌّ منها يعتبر آيةً عظيمةً من آيات الله، وبراهين عل علمه وقدرته.نعم... فقد ابدعَ هذا الرسّام الماهر بقلم واحد ولون واحد في رسمِ انواع لا تُحصى من الرسوم ونماذج ملَّونة من الالواح كل منها آية في صنعِ الخلق.غير ان المفكرين والعلماء هم الذين فتحوا بصائرهم لِيَروا روحَ العالم في هذه الميادين البديعة، و «يَرَوْنَ مالا يُرى» لذلك يقول في ذيل الآية (إنَّمـــا يَخْشى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إنَّ اللهَ عَزيزٌ غَفُوْرٌ).

انَّ الوانها الظاهرية المختلفة تَشغُلُ اهلَ الظاهر، والوانها الباطنية وخلقها المتباين يشغل اهلَ الباطن والمعنى.فالالوان الظاهرية للازهار تجذب نحوها النحل، كي يساعدها في التلقيح، كما تتجاذب الاناث والذكور من الحيوانات فيما بينها «لا سيما في الطيور»، إلاّ انَّ الوانها الباطنية وبناءها المتفاوت يدعو العلماء واصحاب الفكر نحوه، كي يُلقِّحَ فكرهُ من بذر التوحيد.و (خَشْية) تعني «الخوف الممزوج بالتعظيم الناتج عن علم ووعي»، وفي الحقيقة هي مزيجٌ من الرهبةِ والرجاء لهذا وَصَفَ الله نفسه بعد هذا الكلام مباشرة بصفتي (عزيز) و (غفور) حيث إنَّ الأولَ منشأ للرهبة والثاني مصدر للرجاء، وعليه فانَّ ذيل الآية مركبٌ في الحقيقةِ من العلة والمعلول.علماً انَّ ذكرَ (الانعام) بعد الدّواب، جاء من باب ذكر الخاص بعد العام، لاهمية الانعام في حياة الناس.***وفي الآية الثامنة وجَّه اللَّومَ من خلال استفهام توبيخي للمشركين والكافرين الذين ضلّوا وتركوا خالق الكون وتوجهوا نحو الاصنام، فقال (أوَلَمْ يَرَوْا أَنّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمّا عَمِلَتْ أَيْدينـــا أَنْعـــاماً فَهُمْ لها مالِكُونَ).ان التعبير بـــ (لَهُم) ذو مفهوم واسعٍ للغايةِ حيث يشمل المنافع المختلفة

لجميع اجزاء هذه الانعام، أَجَلْ.. فقد اقتضى لطفُ الله أن يكونَ هو «الخالق» والآخرون هم «المالكون»!.ثم اشار الى نكتة اخرى فيما يخص الانعام، مضيفاً (وَذَلَّلْناهـــا لَهُمْ فَمِنْها رَكوبُهُم

وَمِنْها يأكُلُونَ ولَهُمْ فِيْهــا مَنــافِعُ وَمَشارِبُ).ويقول في الختام «فهلا يشكرون هذه النِّعم التي وهبها الله للناس»؟ ولا يَسْعَوْنَ لمعرفة ذاته المقدسة؟ (أَفَلا يَشْكُرُونَ).ويُمكنُ ان يكون التعبير بــ (ممّا عَمِلَتْ أَيْدينا) اشارة الى تعقيد مسألة الحياة التي لم ينكشف لغزُها للبشر لحد الآن، وهذا نابعٌ من قدرته الازليّة فقط.والتعبير بــ (المشارب) بعد ذكرِ (المنافع) من قبيل ذكر الخاص بعد العام حيث تمَّ الاستناد اليه بسبب اهميته.علماً ان (مَشارِب) جمع «مَشرب» (لانها جاءت مصدراً ميميّاً بمعنى اسم المفعول، ويمكن ان تكون اشارة الى انواع حليب الانعام المختلفة، التي لكلٍّ منها آثاره ومزاياه الخاصة به، أو اشارة الى مستخلصات الحليب التي نحصل عليها، وبما انَّ اصلها هو الحليب فقد أُطلقَ عليها لفظ «مشارب»، ونحن نعلمُ ان الحليب ومستخرجاته يُمثلُ جانباً مهماً من غذاء الناس.(١)ولنا بحثٌ لطيفٌ حول (ذَلَّلناها) سيأتي في قسم التوضيحات ان شاء الله.***والآية التاسعة من البحث وقعت ضمن سلك الآيات التي تتعلق بمعرفة الله والتوحيد لأنَّه قال في الآيات التي سبقتها (ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ ليقولُنَّ الْعَزيزُ الْعَليمُ) ثمَّ تَطرَّقَ الى وصفِ الله القدير قائلا:(والّذي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ مــاء بِقَدر فأَنْشَرنا بِهِ بَلْدَةً مَيتاً كَذلِكَ تُخرجُونَ) ثم يضيفُ في آية

---

(١) يعتبر بعض المفسِّرين انَّ «مشارب» اشارة الى الاواني التي تُصنعُ من جلد الحيوانات كانواع القِرَب والاواني الاخرى، الاّ أنّ هذا التفسير يبدو بعيداً اذ ليس لهذا الأمر اهمية بالغة بحيث يُستند اليه بعد ذكر المنافع.

البحث: (والّذي خَلَقَ الازواجَ كُلَّها).ويبدو انَّ المقصود من (ازواج) هنا هو ازواج الاناث والذكور من الحيوانات والاحياء، لا سيما وانّه يضيف بعد ذلك:(وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الفُلْكِ والأَنْعامِ مــا تَركَبُونَ) (أي الفلك في البحار والانعام في اليابسة).وبهذا فانَّ ذكر (أنعام) بعد (الازواج) جاء من بابِ ذكر الخاص بعد العام.إلاَّ ان بعض المفسِّرين يعتقِدون انَّ (الازواج) هنا اشارة الى «الاصناف المتفاوتة» للموجودات، سواء كانت حيوانات ام نباتات ام جمادات، لأنَّ كلا منها له جنسٌ يقابله، ففي الحيوانات هنالك الذكر والانثى، وفي غيرها النور والظلام، السماء والارض، والشمس والقمر، اليابس والرطب، وحتى داخل افكار الانسان هنالك الخير والشر، الكفر والايمان، التقوى والفجور، وامثال ذلك، والوجود الوحيد الذي ليس هنالك اختلافٌ في ذاتهِ المقدّسة، وهو متفردٌ من كافة النواحي، هي الذات الالهية المقدسة، الاّ انَّ التفسير الاول يبدو اكثر صواباً من خلال ما قلناه من قرينة.على أيّةِ حال، فقد ذُكرَ خلقُ الازواجِ من جانب وخلق الانعامِ للركوب من جانب آخر في هذه الآية براهين عن الوجود المقدَّسِ لله تبارك وتعالى انَّ النظامَ الدقيق الذي يسود مسألة التكاثر في الموجودات الحيَّةِ والحيوانات نظامٌ معقَدٌ وعجيبٌ

للغاية، فما هي العوامل التي تؤدي الى ان يكون الجنين في رحم امه ذكراً أو انثى؟ وما هي العوامل التي تؤدي الى حفظ التوازن بين جنس الذكر والانثى؟ وما هي العوامل التي تؤدي الى أنْ ينجذبَ اَحدُهما نحو الآخر كي تحصل مُقدَّماتُ الحمل؟ وما هي العوامل التي تعمل على تكاملهِ في مرحلةِ الحياة الجنينيةِ المعقدة؟.فاذا تأملنا جيداً، لوقَعَ بصرُنا على آيات عظيمة من آياتِ الله في هذا الطريق الطويل، وفيما يخص تذليل الحيوانات لركوبها.ثم تحدَّثَ عن تسخير هذه الحيوانات القوية والضخمة للانسان، قائلا:

[٣٤٤]

(لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُوْرِهِ ثُمَّ تَذكُروُا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إذا اسْتَوَيْتُم عَلَيْهِ وتَقُوْلُوا سُبْحانَ الّذي سَخَّرَ لَنا هــذا وَمــا كُنّا لَهُ مُقْرِنِيْنَ).صحيحٌ اننا ننظرُ الى هذه المسألة نظرةً بسيطة جرّاء اعتيادنا عليها يومياً، حيث نرى قوافل كبيرة من الابل والخيل، وحتى حيواناتِ ضخمة كالفيلة مُسَخَّرة بيد طفل صغير، واحياناً يُودَعُ عنانُ قافلة منها بيد طفل فيقودها حيث يشاء، إلاّ انَّها في الحقيقةِ ليست أمراً هيّناً، فلو كانت لدى احدها اقلُّ حالة من التمرد والمواجهة فلا يستفاد منها في الركوب ابداً بل لأَصبحت تربيتُها في بيئةِ الانسان خطيرةً جداً.فنحن لا نستطيع أنْ نُربّي بازاً مشاجراً، وحتى قطة غاضبة ومنزعجة، فكيف نُربّي هذه الحيوانات الكبيرة القوية التي يمتلك بعضها قروناً وبعضها ذات اسنان قاطعة وفك قويٍّ، وارجل بعضها قوية وكبيرة تستخدمها للضرب والرفس، فاذا لم تكن مطيعة فكيف نستخدمها للركوب؟ ولولا التسخير الالهي حقاً لم نستفد منها أبداً (مــا كُنّا لَهُ مُقْرِنِيْن)(١).والنكتة الجديرة بالذكر ايضاً انَّ ظهرَ الأَنعامِ خُلق بحيث يكون مناسباً ومُعَدَّاً لركوب الانسان.ومما يلفت النظر انه يذكرُ الركوبَ عليها هدفاً اولا، وذكر نِعَمِ الخالق يعتبره الهدف الثاني، وتعد معرفة الذات الالهية المقدسة وتسبيحه و تقديسه هي الهدف النهائي، فذكر النِّعَمِ يَضَعُ الانسانَ دائماً في طريق معرفتها، ومن ثمّ كلُ مواهب الخلق دافعٌ ومقدمة لمعرفة الله سبحانه.وذُكر هذا المعنى في الآية العاشرة والاخيرة بالاضافة الى منافع اخرى، وقد تمت الاشارة في هذه الآية الى خمس فوائد اساسية للانعام، واعتبرها من آيات الله.

---

(١) انَّ الضمير المفرد في «ظهوره» و «عليه» و «له» يعود الى «الانعام» لأنّ «الانعام» ــوكما قلنا سابقاًــ ذات معنىً جمعي، الا انها تلفظ مفردة، وظن بعضهم انَّ هذه الضمائر تعود الى «ما» في «ما تركبون»، وفي هذه الحالة تشمل «الانعام» و«السفن» علماً ان «مقرنين» من مادة «إقران» وتعنى الاقتدار على الشيء، وفسَّرها بعضهم بمعنى القبض والحفظ.

[٣٤٥]

فيقولُ في البداية: (اللهُ الّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها)(ومِنْها تَأْكُلُونَ).ثم اشار الى الفوائد المختلفة، كاللبن والصوف والجلد والمواد الطبية وامثال ذلك، فيقول إجمالا: (ولَكُمْ فِيْهـــا مَنافِعُ).(١)ويقول في المرحلةِ الاخيرة (ولِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً في صُدُوْرِكُم).انَّ ذكرَ هذا المعنى على هيئةِ منفعة مستقلة، مع انَّ مسألة الركوب قد ذُكرت سابقاً، يُمكنُ أن يكون المقصود منه حمل ونقل الامتعةِ وضروريات الحياة(٢)، أو لاغراض التنزُّهِ والسياحةِ والمسابقات او كسب القوة في ساحة الجهاد، أو الصراع مع بعض الحيوانات الوحشية، أو عبور الانهار عن طريق سباحة الحيوانات، لأنَّها جميعاً تندرجُ في لفظ (حاجة) الشامل، وهذه الضروريات لا شأنَ لها مع مسألة الركوب في الأسفار.ويقول في الفائدة الخامسة والاخيرة (وَعَلَيْها وَعَلى الْفُلْكِ تُحْمَلُوْنَ).ولتعبير (حَمْل) مفهوم غير «الركوب» ويبدو انَّ المقصود منه هو المحامل والهوادج التي توضعُ على ظهور الأَنعام ويجلس فيها النساء والاطفال الذين لا طاقة لهم على الركوب، كما يستفاد منها للمرضى والعَجَزَةِ والضعفاء.انَّ ذكرَ (تُحمَلُون) بصيغة «الفعل المجهول»، وجعلها الى جانبِ الفُلك حيث يوضحُ تشابههما مع بعضهما (الفلك في البحر والانعام على الارض) يعتبر من القرائن ايضاً على التفسير اعلاه، وبهذا يتضح اختلاف هذه العبارات الثلاث (لِتَركَبُوا ــ ولِيَبْلُغُوا ــ وعليها وعلى الفُلك تُحمَلون)، وطالما وقع بعضُ المفسِّرين في معضلات تفسيرها، وقد فسَّروها بمعنىً واحد!ومع انَّ بعضهم يعتقد انَّ الانعام في هذه الآية تعني الابل فقط، ولكن نظراً لسعة مفهوم (الانعام) وعدم وجودِ قيد في الآية فلا دليل لحصرها، لا سيما انَّ

---

(١) ذكرت منافع بصيغة النكرة كي تُبرهنَ على اهميتها.(٢) كما تمت الاشارة الى ذلك في الآية ٦ من سورة النحل.

* * *

توضيحات:

عجائب عالم الحيوانات:انَّ كتابَ الخلق العظيم كتابٌ تكمنُ في كل جملة ــبل في كلِّ كلمة وكلِّ حرف منهــ نكاتٌ، بنحو لا يَشعُر الانسانُ بالتعبِ من مطالعتها، فلو طالعَ أحد جمل هذا الكتاب العظيم مائة مرة فسيَنكشفُ له في كلِّ مرة مفهومٌ جديدٌ واسرارٌ جديدة. فعالمُ «الحيوانات والانعام» الذي يُمثِّلُ جانباً من هذا الكتاب العظيم مليء بالاسرار والعجائب، نكتفي ببعض منها

ويجب أن نوكلَ الامعان في التفصيل الى الكتب المدوَّنة في هذا المجال.

١ ــ ترويض الحيوانات:

[٣٤٧]

انَّ استعداد الحيوانات للترويض مسألةٌ مهمةٌ للغاية.ومن اجل ادراك اهمية كلِّ نعمة، لا بد من تصوُّر الحالةَ التي تتحوَّل فيها الحيوانات الاليفة الى حيوانات وحشية، «فالجملُ» يشنُّ هجماتهِ كالفهد ويمزِّقُ الانسان بفكيّه القويتين، ويستخدمُ «البقرُ» قرنَهُ، وترفس الخيلُ بحوافرها مَنْ يقترب منها، حينها لا يمكن اعتبار هذا القطيع من الاغنام والابل والبقر اساسيَ الوجود فحسب، بل وسنستعين بأية آية قاتلة من اجل الخلاص من شرِّها والقضاء عليها، وفي الوقت الحاضر ايضاً تغضب هذه الحيوانات الاليفة احياناً فتشكلُ خطورةً بالغة، فمثلا تُلَقِّنَ الفيلةُ الهنودَ دروساً، وتَشنُّ الجمالُ الغاضبة هجماتها على اصحابها، ومن الممكن ان تنتهي بالقضاء عليهم اذا ما غفلوا، وكأن الله تعالى يريد أنْ يُبرهنَ على أنْ لو اردتُ سلبه أمرَ الطاعة والتسليم والخضوع فستَرَونَ بايِّ صورة تظهر!.وقد عبَّر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة بتعابير مختلفة، فيقول احياناً: (وَذَلَّلْناها لَهُم)(١) وحيناً يقول: (سُبْحانَ الَّذي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنّا لَهُ مُقْرِنينَ)(٢).وقد اشار الامام الصادق ((عليه السلام)) الى هذه المسألة في توحيد المفضّل، فيقول بعد بيان خلق الانعام:...«ثُمَّ مُنِعَت الذِّهنَ والعَقلَ لِتَذِلَّ للانسانِ فلا تَمْتَنِعَ عَلَيْهِ إذا كَدَّها الكَدُّ الشّديدُ وحَمَّلَها الحِمْلَ الثَّقيلَ».(٣)وبالطبع انَّ عدم امتلاكها للعقل جزءٌ من الدليل على تآلفها، علاوة على هذا انَّ الله تعالى خَلَقها بشكل تأتلفُ فيه بسرعة وتبقى على هذا الحال الى الابد، بينما نجد أنَّ بعضَ الحيوانات التي تماثلها في الذكاء والعقل (كالذئاب والنّمور) اذا ما ألفت فيه مشقة وتكون مؤقتة، ومع ذلك يجب الحذر منها، واحياناً تفترسُ اصحابها

---

(١) يس الآية: ٧٢.

(٢) الزخرف الآية: ١٣.

(٣) «توحيد المفضل» (بحار الانوار ج ٣ ص ٩١).

[٣٤٨]

اذا ما غفلوا عنها.

٢ ــ ذكاء الحيوانات:

لعلَّ اختيار هذا العنوان بعد الذي قيل في البحث السابق يبدو عجباً ومتناقضاً، والحال انّه ليس كذلك، مع ان الحيوانات تبدو بلا عقل أو قليلة العقل، ونحنُ نشبّهُ البُلداء بالبهائم، إلا انها تبدي ذكاءً ووعياً في بعض المسائل بحيث تبعث على الدهشة.فقد شاهدَ اغلبُنا قطيعَ الاغنامِ عندما يعود من الصحراء، فهنالك عدد من الغنم والماعز تعود الى عائلة ما وبمجرد اقترابها من القريةِ يسلك كلٌّ منها فروع وازقةِ القرية ويتجه نحو بيت صاحبهِ بدونِ أيِّ اختلاف.كما شاهدنا انَّ النعجةَ لا تسمح أبداً لغير وليدها أن يرتضع من ثديها، وعندم تُطلقُ الصغار في ظلمةِ الليل وتدخلُ في القطيع يذهبُ كلٌ منها الى امه، فتعرفه وتستعد لارضاعه، وهذه المعرفة تحصل عن طريق «الشَّم» فقط ، وهذا يعني انَّ عددَ روائح الاغنام تضاهي عددها، وكلُّ نعجة تشخصُ رائحةَ صغيرها من بين هذه الروائح!يقول «غرسي موريسن» في كتاب «سرُّ خلق الانسان»: (انَّ اغلبَ الحيوانات تُشخصُ طريقها في الليالي المظلمة، وتسير بيُسر، واذا كانت لاتبصر في الظلمة الحالكة فهي تعرفه من تفاوت الهواء المحيط بالطريق، ويؤثر النورُ الضعيف جداً لما فوق الحمراء الذي يشع من سطح الطريق على عيونها).انَّ طراز بناء البيت، وتربية الصغار، وكيفية مقاومة العدو، وحتى معالجة نفسها اثناء المرض شيء عجيب في الحيوانات، وشرحُ كلٍّ منها يحتاج الى بحث مفصَّل.ذكر أحدُ علماء البيئة ويُدعى «البروفسور هانر منرو» في كتابه في خصوص استعداد بعض الحيوانات لمعالجةِ امراضها قائلا:[٣٤٩]

«أُجريت بعض الكشوفات الطبية على علاجاتها، فمثلا هناك نوعٌ من الطيور التي تأكل الاسماك، تتضرر ارجلها اثناء الطيران الجماعي أو الهبوط على الارض، بسبب طولها، فوجدت على اطلاع تام بالتجبير وعلاج الكسور، فيذهب الى ساحل البحر والمناطق الموحلة التي يمتزج طينها مع النورة الخاصة بالتجبير، وتغمسُ ارجلها بالنورة الرطب، ثم تجلس تحت اشعة الشمس كي تَجفَّ النورة، وتبقى تراقب ارجلها بهذا الحال حتى يلتحم مكانُ الكسرِ تماماً...ومن الصدفة انَّ النّورة التي يستخدمها الاطباء في المستشفيات من نفس هذا النوع الذي يستخدمه هذا الطائر الذي يأكل السمك لعلاج نفسهِ، لأنَّه لزجٌ ومتماسكٌ جداً)(١).يعتقد العلماء انَّ معظمَ الحيواناتِ لديها لغةٌ خاصة بها، وتتفاهم فيما بينها عن طريقها، فالنمل تتحدث فيما بينهما من خلال اللمس، أو من خلال اصطدام لوامسها، وتتبادل الرسائل، وبعضُها تخابُر اثناء حلول الخطر من خلال ضرب ارجلها على باب الخليّة (كالبرقيات).انَّ اغلبَ الاحياء علاوة على امتلاكها للغة خاصة فهي تملك لغةً عامةً تستطيع من خلالها فهم لغة بعضها مع بعض، فهذه اللغة التي يصدرها الغراب اثناء حصول الخطر حيث يحذِّرُ بقيةَ الحيوانات بصوت خاص كي تبتعد سريعاً عن منطقة الخطر، ويعتبر الغراب في الواقع بمنزلة جاسوس من جواسيس

الغابة!لقد توصلَ علماء البيئة في دراساتِهم الى هذه النتيجة وهي ان الحشرات تلي الانسان في امتلاك جهاز اتصالات متكامل، لا سيما التكلم وجهاز اتصالات النحل، فهو اكثرها عجباً وندرةً.(٢)القى عالمُ احياء سويدي محاضرةً تثير الاهتمام في جامعة «لاند» حول لغة النحل وكانت نتيجة هذا التحقيق والتجربة التي اجراها عالم الأحياء هذا بمساعدة

---

(١) افضل طرق معرفة الله ص ١٩٧.(٢) «مجلة الصيد والطبيعة» العدد ٧٢.

الاجهزة وعن طريق المقايسة، انها لغة يمكن فهمُ معناها.(١)انَّ عجائب عالم الحيوانات اكثرُ من ان يُؤدى حقُها في كتاب واحد أو عشر كتب. والافضل ان نكتفي بهذا المقدار ونغلق الملف ونقول بكل خضوع وخشوع أمام الحضرة الالهية المقدسة: سُبحانَكَ اللّهُمَّ وبحَمدِّكَ لا تُحصى عَجائِبُ خِلْقَتِكَ وإِنَّكَ على كُلِّ شَيء قَديرٌ.

---

(١) «تربية النحل» ص ٦٠.

٢٠ ــ آياته في خلق اعضاء الجسم

تمهيد:

من اجل ان يتمكن الانسان من اقامة الاواصر مع العالم الخارجي فهو يحتاج الى ادوات مختلفة، حيث جَهَزه اللهُ بها، فقد جهّزَهُ بحاسة النظر والعينَ لرؤية هيئة ولون وكمية ونوعية الموجودات، وبحاسة السمع والاذن من اجل معرفة انواع الاصوات كما جهّزه بحواس اخرى من اجل ادراك الروائح، البرد والحر، الخشونة والنعومة و.....انَّ بناء هذه الآلات معقَدٌ ودقيقٌ بالقدر الذي يُمكن ان يكون شرح كلٍّ منها موضوعاً لعلم مستقل، وقد دوِّنت كتبٌ كثيرة بهذا

الخصوص حيث تُعتبر في الحقيقةِ مجموعةً من اسرار التوحيد، ودروس، وبلاغات ونغمات لمعرفة الله تُردُدها هذه الاعضاء في مسامع روح الانسان. من غير الممكن ان يتأملَ المرءُ في بناء هذه الاعضاء ولا يخضع اجلالا امام قدرة وعظمة خالقها ، سواء اعترف بلسانه أم لا.بهذا التمهيد نُيممُ وجوهنا صوب القرآن الكريم ونستمع خاشعين للآيات التالية:١ ــ (وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُوْنِ أُمّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُوْنَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ والأبْصارَ والافْئِدةَ لَعَلَكُمْ تَشْكُرون)(١).٢ ــ (وَهُوَ الَّذي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ والأبْصــارَ والافئِدةَ قَلِيْلا مــا تَشْكُرُونَ)(٢).٣ ــ (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّماءِ والأَرضِ أمْ مَنْ يَملِكُ السَّمْعَ

---

(١) النحل الآية: ٧٨.

(٢) المؤمنون الآية: ٧٨.

والأبصارَ.... وَمَنْ يُدبّرُ الأمْرَ فَسَيَقُولُوْنَ اللهُ فَقُلْ افلا تَتَّقُوْن)(١).

٥ ــ (قُلْ أَرأيْتُمْ إنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وأبْصــاركُمْ وَخَتَمَ عَلى قُلُوْبِكُمْ مَنْ اِلهٌ غَيْرُ اللهُ يَأتِيْكُمْ بِهِ أنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفَ الآياتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُوْن)(٢).٦ ــ (سَنُرِيْهُمْ آياتِنا في الآفاق وَفي أنْفُسِهِمْ حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ انَّهُ الْحقُ)(٣).***

شرح المفردات:(السَّمْع) تعني في الاصل قوة السَّمع، وقد تطلق على الاذن ايضاً، وقد وَردَ هذا اللفظ بمعنى الاستماع، واستجابة الدعوة والقبول والتجسس ايضاً، واذا ما استخدمت في ما يخص الباري تعالى فهي تعني علمه واطلاعه على المسموعات، و «اسماع» جمع «سمع» إلا انَّ هذا اللفظ لم يُستخدم في القرآن الكريم اطلاقاً، ولعلّه بسبب ان «السمع» تستعملُ في معنى الجمع ايضاً(٤).(بَصَرْ) وتعني (العين) وتستخدمُ ايضاً بمعنى «قوة النظر»، ويُستعمل هذا اللفظ في معنى قوة العقل والفهم ايضاً، فيقال لها «بصر» و «بصيرة» (جمع بصر، «ابصار» وجمع بصيرة «بصائر»). الاّ انَّ لفظ بصيرة لا يُطلقُ على العين أبداً، بل يُقال لها «بَصَرْ» والعجيب انَّ لفظ البصير يُطلقُ احياناً على المكفوفين، ولكن يظهرُ ان هذا الاستعمال ليس بسبب علاقة التضاد، بل لأنَّ المكفوفين غالباً ما يتميزون بقوة ادراك فائقة، ويتلافون

---

(١) يونس ــ الآية:٣١.

(٢) الانعام ــ الآية: ٤٦.

(٣) فصلت ــ الآية: ٥٣.

(٤) لسان العرب، المفردات، مجمع البحرين، والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.

فقدانهم لقوة البصر بقوة التفكير والبصيرة(١).

واعتبرُ بعضُ ارباب اللغة كمؤلف «المصباح» انَّ المعنى الاصلي لــ«بَصَر» هو النور الذي تتمكن من خلاله من رؤية الموجودات، وفي «المقاييس» ذُكر لها معنيان: الاول الاطلاق على الشيء، والثاني ضخامة وسمك الشيء، ولكن يبدو أنَّ المعنى الاول والذي أوردَهُ الراغب في المفردات ايضاً اكثر صواباً وتناسباً مع موارد هذا اللفظ.و (اَفئدة) جمع «فؤاد» من مادة «فَأد» (على وزن وَعد) وتعني في الاصل «الشوي»، لذا يُقال «فؤاد» للافكار والعقول الناضجة، وقد يأتي هذا اللفظ بمعنى القلب، او غلاف القلب ايضاً، وقال بعضهم ايضاً انَّ هذا اللفظ يطلق على القلب والعقل حينما يكون متنوراً ومشرقاً، وقال بعضهم انَّ «فؤاد» تعني مركز القلب يُطلقُ على

مجموعهِ.و (العَيْن) ذات معان كثيرة والمعروف انَّ لهذا اللفظ سبعين معنىً في لغة العرب.إلا انَّ المعنى الاصلي لـــ «العين» هو العضو الخاص بالنظر، وقد يأتي ايضاً بمعنى قوة البصر.ولكن لها معان كنائية ومجازية كثيرة برزت على هيئة معان حقيقية نتيجة لكثرة الاستعمال، فمثلا يقال للينبوع «عين» لأنَّه يشبه العين، ويقال للجاسوس والمكلف بالتجسس والاستطلاع «عين» ايضاً، كما يُطلقُ هذا اللفظ على ذوي المكانة وعلى الشمس والذهب ايضاً لأنَّ الذهبَ من بين الفلزات كالعين بين الاعضاء، وكذلك «الشمس» بين النجوم، وكالمرموقين من بين ابناء قومهم، كما يُطلقُ هذا اللفظ ايضاً علية الثروة والمتاع الذي يمكن الاستفادة منه، وثقب الحلقة، والبصيرة والاطلاع على الشيء كلٌّ في محلِّه، وسُمِّيت الحور العين بهذا الاسم لانها ذات عيون جميلة وواسعة.

---

(١) مفردات الراغب.

و (اللسان) تعني عضو التكلُّم، ووردت ايضاً بمعنى قوة البيان، وتُطلقُ ايضاً ككناية على الاشخاص المتكلمين نيابة عن جماعة ما كما يُقال لـــ«ألْسِنة» (جمع لسان) ايضاً، ويُستخدم هذا اللفظ بصيغة المذكَّر والمؤنث إلا انّه جاء في القرآن الكريم بصيغة المذكر.و (شَفَه) (على وزن قَمَر) وتستخدم بصيغة التثنية «شفتان»(١).

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

الدور الحساس لآلات المعرفة: يقول في الآية الاولى كتعريف بالذات الالهية المقدسة وبيان لآياته في خلق الانسان: (واللهُ أَخْرَجَكُم مِنْ بُطُونِ اُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً).انَّ هذا التعبير يُبيِّنُ بجلاء انَّ صفحة القلب تخلو من جميع المعارف عند الولادة، إلا انَّ بعض المفسِّرين قالوا انَّ المقصود ليس العلم الحضوري للانسان بذاته، أو بتعبير آخر ان المقصود هو العلم بالاشياء الخارجية، وذكروا الآية ٧٠ من سورة النحل كشاهد اذ تقول: (ومِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعدِ عِلْمٍ شَيْئاً): الانسانَ في سنِ الشيخوخة يعلمُ بوجوده إلا انَّه يُحتملُ جهلِ الوليد بوجوده في بداية الولادة وأول ما يُدركه هو وجوده.ثم يضيفُ: (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصارَ والأفْئِدَةَ لَعَلكُمْ تَشْكُرُوْن).

لقد جعلَ الله العينَ والاذنَ كي يُدركا المحسوسات، والعقل لادراك المعقولات، وتَطّلعون على العالم الخارجي من خلال وسائل المعرفة الثلاث هذه،

---

(١) لقد ذكر بعضهم انَّ اصلَها «شَفْو» (ناقصة الواو) وبعضٌ «شَفَة» لأن مصغَّرها «شفيهة» وجمعها «شفاه».

[٣٥٧]

ثمَّ تقومون لشُكرِ هذه النِّعم وتتوجهون قبل كلِّ شيء لمعرفة ذلك الخالق الذي منحكُم وسائل العلم والمعرفة.ولادراك اهمية العين والاذن والعقل يكفي تصور الحالة التي تتمخض عن فقدان أحدهما (بغض النظر عنها كلها)، فما هو حال مكفوف البصر، أو الاخرس أو المجنون أو جميعهم؟ وكم ينأى عن مواهب هذا العالم العظيم؟ وقبل كلِّ شيء يفقد موهبة العلم والاطلاع التي هي افضل المواهب ومقدمةٌ للتَنعُمِ بالمواهب الاخرى.وقال بعضهم انَّ المقصود من «شيئاً» في الآية اعلاه هو حق المنعم، وقال بعض آخر: إنّ المقصود هو مصالحه، وفسَّرها القسم منهم على انها السعادة والشقاء، أو الميثاق الالهي في يوم:(ألستُ بربِّكم)، إلاّ انَّ اطلاقَ الآية ينفي كلَّ اشكال التقييد فتشمل كلَّ شيء.وهنا لماذا تقدَّمَ (السَّمع) على (الابصار)؟ لعلَّه يرجعُ الى استخدام الاذن قبل العين، لأنَّ العينَ لم تكن لديها القابلية على الرؤية في محيط رحم الام الذي يسودُه ظلامٌ مطبقٌ، وتكون حساسة جداً ازاء النور الى حين بعد الولادة، لذلك فهي غالباً ما تكون مغمضة، حتى تستعد تدريجاً لمواجهة النور، إلا انَّ الاذن ليست كذلك فباعتقاد بعضهم انها تسمعُ الاصوات في عالم الجنين ايضاً، وتتعرفُ على انغامِ قلب الأُم!.بالاضافة الى انَّ الاذن تعتبرُ وسيلةً لسماع رسالة الوحي الالهي الذي هو اشرف المسموعات، وكذلك وسيلة عامة لنقل العلوم من جيل الى جيل آخر، بينما ليست العينُ كذلك، لا شكَّ انَّ القراءة والكتابة وسيلةً لنقل العلوم الاّ انها ليست عامة وشاملة.وجعلُ (الافئدة) وراءهما واضحُ الدليل ايضاً، لأنَّ البَشر ينقلون المشاهدات والمسموعات الى العقل، ومن ثمَّ يقوم بتحليلها وتفكيكها وينتقي منها

[٣٥٨]

معلومات حديثة ويكتشف القوانين العامة للعالم(١).

* * *

وفي الآية الثانية يتابع الحقيقة التي وردت في الآية الآنفة، وأشار الى مسألة خلق الاذن والعين

والقلب، من اجل معرفة الله، مثيراً في الانسانَ الشعور بالشكر الذي هو السُلَّم لمعرفة الله تعالى، مع هذا الاختلاف حيث يُعبَرُ عن خلق هذه الاعضاء بتعبير (انشاء) وفي الختام يوجِّهُ اللومّ والتأنيب لاولئك الذين قليلا ما يشكرون الله، فيقول: (وَهُوَ الَّذي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصارَ والأَفْئِدَةَ قَلِيْلا مـــا تَشْكُرونَ).و (الانشاء) كما يقول الراغب تعني في الاصل ايجاد الشيء وانمائهِ، ولهذا يقال «ناشئة» للشباب.انَّ التعبير بانشاء غالباً ما يخص الحيوانات، بالرغم من استخدامها احياناً في غير هذا المورد مثل: (أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهـــا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ)(٢).* * *

ويقول في الآية الثالثة «كاستفهام تقريري» من المشركين الذين انفصلوا عن الله وضلّوا في وادي عبودية الاوثان: (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمـــاءِ والأَرْضِ أَمْ مَنْ يَملِكُ السَّمْعَ والأَبْصارَ).منَ المسلَّم به انَّ الارزاق التي يحصل عليها الانسان اما أنْ تكون من السماء

---

(١) انَّ «سمع» تُطلقُ على المفرد والجمع، بالرغم من انَّهم يجمعونها بصيغة «اسماع» ايضاً.(٢) الواقعة الآية: ٧٢.

(كالامطار والهواء وضوء الشمس) أو من الارض (كالنباتات والاشجار والمعادن المختلفة) فكذلك العلوم والمعارف فغالباً ما يحصل عليها الانسان عن طريق العين والاذن، لأنَّ هاتين الحاستين المهمتين تُعتبران وسيلةَ اتصالِ الانسان بالعالم الخارجي، وكلُّ هذه الارزاق الماديّة والمعنوية من الله تبارك وتعالى.واللطيف انّه عبَّر هنا بتعبير المالكية، وبما انَّ المالكية هنا تكوينية فانها لن تنفصل عن مسألة «الخلق» وفي الحقيقة اصبح هذا التعبير من لوازمه، وكذلك لن تكون منفصلةً عن مسألة «تدبير الأُمور» لذا يقول مستفسراً في نهاية الآية (ومَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ)(١).* * *

ويقول في الآية الرابعة ضمن اشارته الى جانب من نِعَمِ اللهِ على الانسان لتحريك الاحساس بالشكر الذي هو مقدمة لـــ«معرفة الله»: (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ).العيون التي يتمكن من خلالها أنْ يرى عالم الوجود، وأن يشاهد عجائب الخلق، وان ينظر الى الشمس والقمر والنجوم وانواع النباتات وانواع الموجودات الحيّة والحيوانات، وأنْ يتفرجَ على عجائب صُنعِ الله، وأن يُميزَ الخير من الشر، ويُشَخصَ الصديقَ من العدو، وأن ينقذَ نفسَهُ من مخالب الحوادث.ثم يضيف (ولِساناً وَشَفَتَيْنِ).اللسان الذي يُمثلُ وسيلةَ اتصالهِ بالآخرين، اللسان الذي يعتبرُ عاملا في نقل العلوم والمعارف من جيل الى آخر ومن قوم الى آخرين، اللسان الذي يردد ما

(١) قالَ بعض ارباب اللغة ان «ملِك» (بفتح الميم وكسر اللام، تعني مَنْ يتصرف بعامةِ الناس من خلال أمره ونهيهِ وهذا يستلزم السلطة والاقتدار والتدبير).

[٣٦٠]

يحتاجه، وبه يدعو ويتوسل الى المعبود جلَّ وعلا، وهو الذي ينطق عن جميع ذرات وجوده.وكذلك الشفاه التي تلعبُ دوراً مهماً في النطق، وتتحمَّلُ مسؤولية تلفظ كثير من مخارج الحروف(١) بالاضافة الى مساعدتها في شرب الماء واكل الطعام * * * وفي الآية الخامسة يُلفتُ الانتباه الى الحالة التي تحصل لدى الانسان بسبب فقدانهِ للاذن والعين والعقل، فيقول: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وأَبْصارَكُمْ وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأتِيْكُمْ بِهِ)(٢).ثم يضيف في نهاية الآية: (اُنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآياتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُوْنَ)(٣).

(١) وهذه اربعة حروف بالعربية (ب ــ ف ــ م ــ و) وهي (حروف شفوية) بكثرة وفقدان الشفة يؤدي الى ان يفقد المرء قدرة التكلم الى حد ما.(٢) لقد فسَّر المفسِّرون جملة «أرأيتُم» وكذلك «أرأيتُكُم» بمعنى اخبروني او «هل علمتُم» ولكن باعتقاد بعض المحققين فانَّ هذه الجُمل تتسامح مع المعنى الاصلي فمثلا جملة (أرأيتم) بمعنى (هل شاهدتم)، ولكن حيث تكون المشاهدة في مثل هذه الموارد للعلم والاخبار فقد فسِّرت بلازم المعنى، وعلى اية حال فان الغاية من ذكر هذه الجُمل هو التذكير والتأكيد على دقةِ المخاطب، ولو اردنا ان نفسِّرها بلازم المعنى فيمكننا القول بانَّ هذا هو مفهومها.(٣) «نصرِّف» من مادة «تصريف» وتعني التغير، وتعني هنا ذكرُ حقيقةِ ما بلباس وبيان مختلف، و «يصدفون » من مادة «صَدَف» (على وزن هدف) وتعني هنا الإعراض.

[٣٦١]

* * *

وفي الآية الاخيرة من البحث التي تعتبر من آيات التوحيد ومعرفة الله يُسلطُ الانظارَ على آياته قاطبةً في عالم الخلق بأسرِه، فيقول: (سَنُرِيْهِمْ آياتِنا في الآفاق وَفي أَنْفُسِهِمْ حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ).(آفاق) جمع «اُفُق» وتعني الاطراف، وعليه فانَّ «آفاق الارض» تعني اطراف الارض، و «آفاق السماء» تعني اطراف السماء، وبما انها ذُكرت في آية البحث بشكل مطلق، فهي تشمل كل الاطراف شمالا وجنوباً وشرقاً وغرباً.و (أنْفُس) لها هنا معنىً واسع حيث تتضمن الروح والجسم ايضاً، وجميع اعضاء الجسم التي هي موضوع بحثنا.وهنا الى من يعود الضمير في (إنَّهُ الحَقُّ)؟ قال بعض المفسِّرين: المقصود هو القرآن، والمقصود من آيات الآفاق الانتصارات

التي حققها المسلمون في اطراف العالم، والمقصود من آيات الانفس، انتصاراتُهم في بلاد العرب أي اننا نُريهم

[٣٦٢]

الانتصارات في اطراف العالم وفي بلاد العرب كي يعلموا انَّ القرآن حقٌ.وقال بعضهم: المقصود هو «رسول الله»((صلى الله عليه وآله وسلم)) أو دينه، حيث لا يتفاوت كثيراً مع التفسير الاول.لكن الظاهر هو (كما فهمهُ عددٌ من المفسِّرين) انَّ المقصود هو الله، أي اننا نُريهم آيات الآفاق والانفس كي يتجلّى لهم انَّ الله هو الحق.يُعدّ التعبير بـــ (آيات) من جانب، والتعبير بـــ (الآفاق والانفس) من جانب آخر بالاضافة الى الآية التي تليها والتي تتحدث عن التوحيد شواهد على هذا التفسير، علماً انَّ هذه الآية تتوافق مع عدة آيات في القرآن الكريم التي تعرضُ آياتِ الله في عرضِ الخلق ووجود الانسان، مثل (وفي الأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوْقِنِيْنَ وَفي أَنْفُسِهِمْ أَفَلا يُبْصِرُوْنَ)(١)وقد ذُكر هذا المعنى ايضاً في تفسير على بن ابراهيم، على الرغم من انَّ بعض الروايات ذكرت انَّ ضمير، انّه يقصُد به الامام المهدي «عج» ولكن الظاهر انّه تفسيرٌ لبطون الآيات (والجمع بين التفاسير ممكن ايضاً) على ايةِ حال... ففي أيٍّ منها تمعنّا نرى آثار علمه وقدرته تعالى، وكلُّ نبات ينبتُ من الارض ــ ينطق بنفسه بـــ(لا شريك له) و «قلب كلِّ ذِرة نفتحهُ ــ نرى شمسَهُ في وسطهِ».والتعبير بـــ (سنُريهم) (نظراً لأنَّ الفعل المضارع في مثل هذه الموارد يعني الاستمرارية) يُعتبر اشارة لطيفة الى هذه الحقيقة وهي انَّ كلَّ يوم يمُرُّ من عمر الانسان تنكشفُ له حقائق جديدة عن هذا العالم، وتتجلى اسرارٌ جديدة، ففي كلِّ يوم يتوصل العلماء في مختبراتهم ومكتباتهم الى اكتشاف حديث، وتتضح آيات جديدة من آيات الله، ومن المسلَّم به انَّ هذه المسألة ستستمر حتى لو انقضت ملايين السنين من عمر الخليقةِ، فكم هو عجيب عالَم الخلق الواسع، وكم عظيم خالقُه؟ومِنْ ثَمَّ فاننا لا نعلمُ شيئاً عن مليارات السنين السابقة وما تلاها، وليس لدينا

---

(١) الذاريات الآية: ٢٠ و ٢١.

[٣٦٣]

* * *

توضيحات:

١ ــ عجائب اعضاء الجسم:لو لم يكن في كلِّ الكَونِ موجودٌ سوى الانسان، ولم يكن في جميع كيان هذا الانسان شيءٌ سوى عين أو أُذُن واحدة، لكفى لمعرفة الذات الالهية المقدسة وعلمهِ وقدرته، لأنَّ بناءها دقيق ومعقّدٌ ومحبوكٌ بقدر لا يصدقُ أيُّ عقل انها مِنْ صنعِ الصدفةِ أو الطبيعةِ العمياء والصمّاء، بل نواجه في كلِّ مرحلة من دراستها، آيةً جديدةً من علم وقدرة ذلك الصانعِ الحكيم.فمن بين مئات الخصائص والدقة في عضو النظر، أي العين، يكفينا ذكر المواضع الآتية كي نعرف أين هي الفوضى فيه:١

ــ العدسة المتغيِّرة ــ من المعروف انَّ العينَ تُشبَّهُ بآلة التصوير، بينما لا تعدو أحدث آلات التصوير في العالم اُنْ تكون كالعوبة امام عين الانسان ليس إلا، لأنها تحتوي على عدسة ثابتة، حيث يجب أنْ تُنظَّمَ وتُدارَ مِنْ قبل مصور باستمرار من اجل التقاط الصور من عدة جهات، إلا انَّ عدسةَ العينِ الواقعة خلف انسان العين مباشرة، تتغير دائماً بشكل آلي، فقد يتقلص قطرها احياناً فيبلغ «١/٥ ملميتر» واحياناً يتّسع حيث يبلغ «٨ ملمترات» فيسمح لها بالتقاط الصور من مناظر بعيدة وقريبة جداً.

[٣٦٤]

٢ ــ طبقات العين السبع ــ انَّ العينَ تتألفَ اساساً من سبعةِ حجُب أو سبع طبقات وتُسمى «الصلبية» و «العِنَبية» و «المشيمية» و «الجليدية» و«الزُلالية» و «الزُّجاجية» و «الشَبكيّة»، حيث لكل منها بناؤها الخاص بها وواجبها الذي تتحمله، وشرحها يجرُّنا الى الاطالة، فيكفينا أن نعلمَ انَّ اقَلَّ اختلاف فيها يؤدي الى اختلال النظر، طبعاً تكمنُ خلف «الشبكية» اعصاب بصرية تنقل الصور التي تقع على الشبكية الى الدماغ.٣

ــ الحساسية ازاء الضوء ــ انَّ تنظيم النور بالنسبة للمصورين يعتبر عملا شاقاً، وكثيراً ما تُكلَّفُ مجموعةٌ متخصصة بهذا العمل، بينما تستطيع العين من خلال تغيير حساسيتها ازاء شدة الضوء أن تلتقط الصورَ من مناظر مختلفة وفي نور ضعيف أو قويٍّ جداً.٤

ــ الحركة المستمرة ــ انَّ المصوّرين يديرون اجهزتهم باستمرار نحو اليمين واليسار والى الاعلى والاسفل، ويستخدمون مختلف الآلات لهذا العمل، بينما نجد انَّ العضلات التي تحيط كرة العين تُدير هذا الجهاز بحركة خاطفة الى الجهات الاربع بشكل كامل، وتضاعف قدرة المناورة لديها للتصوير في جميع الجهات.٥

ــ المركبات البسيطة والدقيقة ــ فمن أجل اعداد أجهزة التصوير يستفادُ من اقوى العدسات والفلزات، بينما تم صنعُ العين من مواد لطيفة وفي نفس الوقت قد تستمر في العمل مائة عام لأنها جهاز حي وتستطيع انه تبني نفسها وتجدِّد قواها باستمرار، بينما تعتبر الاجهزة التي يصنعها البشر اجهزةً ميتة!٦

ــ اعداد شريط التصوير ــ يعتبر اعداد شريط التصوير بالنسبة لاجهزة التصوير عملا صعباً ويجب استعمال حلقات متباينة باستمرار من اجل التصوير، بينما تصوِّرُ شبكيةُ العين ذاتياً على الدوام، وبعد انتقاله وحفظِه في الدماغ يُمحا وتستعد لتصوير من منظر آخر، ويُنجزُ هذا العمل بسرعة عجيبة ومدهشة للغاية، علماً انَّ مسألة اخراج شريط التصوير التي تعتبر عملا شاقاً ومستهلكاً للوقت لم تُطرح هنا.

[٣٦٥]

* * *

٢ ــ اللسان، هذا العضو المحترف!

إنّ من بين الاعضاء التي تمت الاشارة اليها في الآيات المذكورة هو اللسان، الذي يعتبر بحق من عجائب خلق الله، ولو كان للّسانِ لسانُ ينطقُ عنه، لشَرحَ لنا ما فيه من عجائب، حينها يتضح لنا لماذا استند اليه القرآن الكريم.لو القينا نظرةً قصيرةً على واجبات ومسؤوليات اللسان، لاظهرت لنا جانباً من

[٣٦٦]

هذه الحقائق، واجمالا فللّسان ستة واجبات اساسية هي:١

ــ سَوقُ الطعام تحت مطرقة الاسنان ــ لولا اللّسان لهُضِمَ قسمٌ من الطعام بشكل كامل، وبقي قسمٌ آخر بكامله غير مهضوم ولكنّا مجبورين أن نحرِّكَ الطعامَ باصابعنا، فاللسان يسوق الطعام باستمرار من ثلاث جهات بين الاسنان بحركاته السريعة الماهرة، دون أنْ يبقى في وسطها! أجل قد يصيبُهُ التعبُ والعجزُ احياناً فتَقتنصه الاسنان فيُصاب بشدة، وكأنَّ الله يريد أنّ يثبت لنا بأن اللسان لو لم يمنح تلك المهارة الفائقة لتكرر هذا المشهد يومياً ولتعرض اللسان للجرح دائماً.

٢ ــ خلط الطعام بلعاب الفم ــ فهذا السائل اللزج الذي يعمل على ترقيق وانزلاق الطعام واعداده للبلع، من جهة، ومن جهة اخرى يجري عليه تفاعلات كيمياوية خاصة، ويُعدَّه للبلع والهضم، فاللسان هو الذي تكفل بمسؤولية مزجه بهذا السائل الحيوي.

٣ ــ المساعدة في ابتلاع الطعام والماء ــ انَّ اللسانَ يلعبُ دوراً اساسياً فى نفوذ الطعام والماء، فبالتجمُّع والالتصاق بسقف الفم والضغط على الماء والطعام يدفعه سريعاً نحو البلعوم، ولو اُصيب بشلل ليوم واحد على سبيل المثال لتعسَّر ابتلاعُ لقمة واحدة ولعله يصبح مستحيلا.

٤ ــ السيطرة على المواد الغذائية ــ يستطيع اللسان ــوبسبب قوة التذوق الشديدة فيهــ أن يشخص الكثير من المواد الضارة والسامة للجسم، ويقذفها خارجاً، ولولا مسؤول السيطرة الواعي هذا على باب الدخول الى الجسم لأُصيبَ الانسانُ بالامراض بسرعة نتيجة لأكلهِ الاطعمة المضرّة، ولعرض الى الاخطار، فالطعام المُر والمالح، او المتَبَّل، او الفاسد والمتعفن يُخبُر اللسانَ أولا، كي يمنَعه من الورود الى الجسم، أجل ــ هذا الحارس الغذائي مكلَّفٌ بالسيطرة على جميع المأكولات والمشروبات ليلا ونهاراً.

٥ ــ تنظيف الفم ــ لا بد انّكم قد تفحصتم يوماً انَّ الفم واللسان ينشغلانِ بالحركة بعد الانتهاء من الطعام، فهذه الحركة هي لتحريك وإزالة بقايا الطعام حيث

* * *

والخلاصة انَّ لكلِّ عضو من الاعضاء الظاهرية أو الاجهزة الداخلية للجسم كالقلب والدماغ والشرايين وشبكة الاعصاب قصةً مفصلَّةً ومثيرة، ولو اردنا أنْ نتطرق الى اسرارها واحد تلو الآخر لاستلزمَ سبعين منّاً من الورق لأن من اليسير ان تمتلىء آلاف الكتب باسرارها، فالافضل لنا ان نعترف بقصورنا في هذا المجال ونخضع اجلالا على اعتاب الخالق العظيم، ونترنَّم بقول الشاعر بصدد الخلق ونقول ايها الانسان: عجباً لك اذ لم يكن للعالم مجال للمشاهدة فيك فلماذا لا تنظر الى نفسك متعجباً:أو نقول:اتزعُمُ انَّكَ جرمٌ صغيرٌوفيك انطوى العالم الاكبرُ![٣٦٩]

.

٢١ ــ آياته في الحياة الاجتماعية

للانسان

[٣٧١]

[٣٧٢]

تمهيد:

مما لا شك فيه انَّ الانسانَ موجودٌ اجتماعي، ويحصل على ما يحتاج اليه في الحياة الجماعية، فتكامل الانسان معنوياً ومادياً، في العلوم والمعارف، الحضارات والصناعات، الآداب والتقاليد، يحصل من خلال الحياة الجماعية، بنحو يمكننا من القول انه لو فقدَ الانسان هذا الطراز من الحياة فسيفقد كلَّ شيء، ويهبط الى مستوى الحيوان.انَّ اهتمام الانسان بهذا الطراز من الحياة علاوة على فطريته، فهو نابع من كثرة وتباين حاجاته، وهمته العالية لبلوغ مراحل اعظم وأكمل، ولا يمكن تأمين هذه الحاجات الجسمية والروحية بدون الحياة الاجتماعية، والاّ فما هو دور الانسان منفرداً؟ولكن يجب أن لا ننسى ان الانسانَ يحتاج الى عوامل نفسية وبدنية كثيرة من اجل التعايش اجتماعياً، حيث وضعها الخالق في متناوله، واذا تمَّ تحليل هذا الجانب من حياة الانسان تحليلا موضوعياً فسيتضح انَّه من اكثر آيات الله عجباً.بهذا التمهيد نتجه نحو آيات القرآن التي تستند الى هذا الأمر ونستمع خاشعين الى الآيات التالية:١ ــ (ومِنْ آياتِهِ أنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا اِلَيْها وَجَعَلَ بَينَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً اِنَّ في ذلكَ لآيات لِقَوْم يَتَفَكَّرُوْن)(١).٢ ــ (هُوَ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْس واحِدَة وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ اِلَيْها)(٢).

---

(١) (الروم الآية: ٢١).

(٢) (الاعراف الآية: ١٨٩).

[٣٧٣]

**٣ ــ (إنّا خَلَقْنا الاِنْسانَ مِنْ نُطْفَة امْشاج نَبْتَليْهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيْراً)(١).٤ ــ (يا اَيُّها النّاسُ اِنّا خَلَقْناكُم مِنْ ذَكَر وَاُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوْباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا اِنَّ اَكْرَمَكُمْ عَنْدَ اللهِ اَتْقاكُمْ)(٢).٥ ــ (هُوَ الَّذي أيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِيْنَ ــ والَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ اَنْفَقْتَ ما في الأرضِ جَمِيْعاً ما الَّفتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلكِنَّ اللهَ الَّفَ بَيْنَهُمْ انَّه عَزِيزٌ حَكِيْمٌ)(٣).* * * **

شرح المفردات:

(زوج) تعني في الاصل الحيوان المذكر والمؤنث حيث يُطلقُ هذا اللفظ على كلٍّ منهما، ويُطلقُ ـــاحياناً بمعنى اكثر شموليةًـــ على كلِّ شيئين متناظرين، سواء كان من ناحية التشابه أو التضاد، كزوج الحذاء، أو الجوراب، أو الليل والنهار والخير والشَّر وامثالها، أو الارقام التي تقبل القسمة على اثنين متساويين، لأنَّ كلا منها يناظر الآخر، الا انها تُقال في خصوص البشر لمن أبرم عقد الزواج بينهما.وقال بعض ارباب اللغة إنَّ معنى (زوج) عبارة عن الشكل الذي يكون له مثيل، كالانواع والالوان المختلفة، أو الشيء الذي له مضاد، كالرطب والجاف، المذكر والمؤنث، الليل والنهار، الحلو والمر، كما صرَّحوا انَّ (زوج) تعني كلَّ فرد من الزوجين، لا الاثنين معاً بل يجب ان يقال للاثنين «زوجان»، واطلاقُ زوج على الاثنين هو من كلام الجهلة(٤).(لِتَسْكُنُوا) من مادة «سكون» وتعني في الاصل ثبات الشيء بعد الحركة،

---

(١) (الانسان الآية: ٢).

(٢) (الحجرات الآية: ١٣).

(٣) (الانفال الآية: ٦٢ و ٦٣).

(٤) المفردات، مصباح اللغة، التحقيق ولسان العرب.

وجاء في «مقاييس اللغة» انَّ اصلها بمعنى الاطمئنان، والحالة التي تعاكس الاضطراب والحركة، وتطلقُ احياناً على تخفيف ضغط العاصفة والحر والبرد، والمطر والغضب ايضاً، و لهذا سُمِّيَ «سكان» السفينة بهذا الاسم حيث يعتبر اساس واطمئنان السفينة ووضعها في الطريق الصحيح، ومن هذا الجانب سميت «السكينة» بهذا الاسم، حيث تُسكنُ حركات الحيوان بقطع رأسه، كما يقال لحالة الاطمئنان والاستقرار النفسي «سكينة» ايضاً، وتُطلق «مسكين» على من يبدو ساكناً في محله لشدة الفقر الذي يعانيه، ويقال لمكان سكن واستقرار الانسان «مسكن»(١).و (شُعُوب) طبقاً لقول بعضهم، جمع «شَعْب» (على وزن صَعْب)، و جمع «شِعْب» (على وزن فِعْل) طبقاً لقول بعضهم الآخر، بينما يعتقد بعض آخر كصاحب مجمع البحرين انَّ جمع الأول «شعوب» وجمع الثاني «شعاب»، وعلى أية حال فانَّها تعني كما يقول صاحب «لسان العرب» الجمع والتفريق، أو الاصلاح والافساد (وذلك يصور الى ان معناها الاصلي هو الوادي الذي يتجمعُ في الجانب الآخر من الجبل ويتسعُ في الجانب السفلي وكما يقول الراغب في المفردات انَّ المفهومين اجتمعا فيه) لذلك يقال «شَعب» للقبيلة التي انفصلت عن طائفة كبيرة (فلها صفةٌ جمعيةٌ تفريقية) وقال بعض ايضاً انَّ «شعوب» تستخدم بخصوص العجم و «قبائل» للعرب.(٢)ولهذا تأتي «تَشَعب» ايضاً بمعنى التفرق وكذلك الاجتماع، والاصلاح والافساد.

(ألَّف) من مادة «إلْف» (على وزن جلف) وتعني الاجتماع المتقارن بالانسجام والوئام، وتأليف القلوب يعني ايجاد الالفةِ والاواصر والصلةِ بينها (وعلى هذا الاساس اطلقوا على تأليف الكتاب هذا الاسم حيث يتم ايجاد نوع من التآلف

---

(١) التحقيق، لسان العرب، المفردات، مجمع البحرين، وكتاب العين.(٢) مجمع البيان ج ٩ ص ١٣٨.

والانسجام بين الالفاظ والمعاني والموضوعات) ولهذا يقولون للعدد أَلْف حيث يعتقد العرف انَّ كافةَ الاعدادِ مجموعةٌ فيه لأنَّه يتكون من عدد واحد والعشرات والمئات والآلاف، ولم تكن هناك اعدادٌ بعده بل تتكرر نفس الارقام، عشرة آلاف ومائة الف و.....(١)* * *

تفسيرٌ وتحليل:الروح الاجتماعية للبشر واحدة من اعظم المواهب الالهية:فيسورة (الروم) واثناء تعداد الآيات الالهية في سبعِ آيات متقاربة(٢)حيث تبتدأ كلٌّ منها بتعبير (ومن آياته)

أَوضحَ جانباً من براهين عظمة الله في عالم الوجود بلحن مرغوب وجذاب ونغمة لطيفة ومحببة والآية الاولى في البحث احداها فقد اشار فيها الى اللبنة الاولى في بناء المجتمع البشري، أي وحدة الأُسرة والعلاقة التي تسودُها، فيقول (ومِن آياتهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها).واللطيف انّه لم يذكر هنا انَّ الهدف من الحياة الزوجية هو بقاء النسل، بل يذكرُ نيل الاطمئنان، الذي يحصل من خلال الحياة الزوجية، لأنَّ هذين الجنسَيْن أحدُهما الآخر، ويكونان اساساً لتفتُحِ وانقاذ وتربية كلٍّ منهما، بنحو يبدو كلٌ منهما ناقصاً بدون الآخر، وينال تكامله عن هذا الطريق.انَّ هذا الاطمئنان والسكون لا يقتصر على الجانب الجسدي بل انَّ جانبه الروحي أهم واقوى.والاضطرابات النفسية وفقدان التوازن الروحي، والامراض المختلفة

---

(١) مجمع البحرين، لسان العرب، مفردات الراغب.(٢) تبدأ هذه الآيات من الآية ٢٠ من السورة وحتى الآية ٢٥ (ست آيات متتابعة) والآية٧ والاية ٤٦ من نفس السورة .

المتمخضة عن الزهد في الزواج، شاهدٌ ناطقٌ على هذا المعنى.ثم يضيف: (وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً).هذه المودةُ والرحمة التي تُعتَبرُ في الحقيقة الركن الاساس وحلقة الوصل والارتباط ما بين الناس، فتربط الاشخاص المتفرقين والبعيدين فيما بينهم، وتخلق من ذلك مجتمعاً قوياً، تقوم المواد الاساسية في البناء بشدِّ قطع الطابوق والحجر ويُشيَّدُ منها بناءٌ ضخمٌ وعظيم.واللطيف كذلك انه استند مرّه ثانية في نهاية الآية الى هذه النكتة التوحيدية: قائلا: (إِنَّ في ذلِكَ لآيات لِقَوْم يَتَفكّرُوْن).ولو تأمَّلنا في تشكيل الحياة الزوجية وهي أول وحدة اجتماعية، في الرابطة القوية التي تتكون بين هذين الجنسين المختلفين، ومن ثم لو تأملنا في الوحدات الاجتماعية الاكبر: العائلة، الاقارب، الطائفة والعشيرة، ثم في المدن والاقطار وفي كل المجتمع البشري، فاننا سنواجه في كلِّ خطوة نخطوها آيةً من آياتِ الله العظيمة.

فمن الذي خلقَ المحبّةَ والمودةَ بين المرأة والرجل، والأب والام وابنهما، والعشيرة والاقارب، وكلِّ الناس بشكل عام؟من الذي وَضَعَ التوازن بين جنس المرأة والرجل في المجتمع البشري؟ بشكل يتم الحفاظ على هذا التوازن رغم الحوادث المعقدة التي تطرأ في المجتمعات كالموت والولادات!من الذي خلقَ الاذواق المختلفة في العقول، والرغبات المتباينة في القلوب؟ واخذ بيد كلِّ صنف نحو عمل وبرنامج، كي يتكون من مجموعهم مجتمعٌ انسانيٌّ ككتلة واحدة متكاملة من جميع الجوانب.ولعلّهُ لهذا السبب اشار في الآية الآتية الى اختلاف الالسُنِ وتباينِ الالوان

ويعتبر ذلك من آيات الله. فيقول: (ومِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمــواتِ والأَرْضِ واخْتِلافُ الْسِنَتِكُمْ وَالْوانِكُمْ إنَّ في ذلِكَ لآياتٍ لِلْعالَمِيْن)(١).ومما لا شك فيه انَّ أحد التفاسير لاختلاف الالسن والالوان، هو هذا التباين الموجود في النطق والاذواق والجذب الفكري للاشخاص، مما يؤدي الى أنْ يتحلّى المجتمع البشري بالانسجام التام، بنحو لا يحصل معه فراغٌ في أي من الحاجات المعنوية والمادية للبشر.(مَوَدَّة) من مادة «وُدّ» (على وزن حُبّ) وتعني المحبّة كما تطلق على «الأمل في تحقيق الشيء» (وكلا المعنيين قريبان لبعضهما) ولفظ «وَدّ» (على وزن حَدّ) اسمٌ لأحد اصنام الجاهلية، وسمي بذلك الاسم لمحبتهم الشديدة له، أو لأنّهم كانوا يظنّون بوجودِ مودة بين الله وهذا الصنم، كما يُطلقُ هذا اللفظ على «المسمار»، حتى قالَ بعض إنَّ لفظ «وَتَدْ» الذي يعني في لغة العرب «المسمار» مأخوذٌ من اصل «وُدّ» لأنَّ المسامير تلتصق بالجدار أو الاشياء الاخرى، ومن هنا فهي تتشابه مع مفهوم المحبّة.(٢)

---

(١) (الروم الآية: ٢٢).

(٢) «مفردات الراغب» مادة «ود».

* * *

والآية الثانية من البحث تردد هذه الحقيقة التي وردت في الآية الآنفة مع هذا الفارق حيث تقول: (هُوَ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْس واحِدَة وَجَعَلَ مِنهــا زَوْجَها لِيَسْكُنَ إلَيْها).

والمقصود من (نفس واحدة) باعتقاد اغلب المفسِّرين هو آدم((عليه السلام))(١)، * * * ويشير في الآية الثالثة الى خلق الانسان من نطفة لوطة، فيقول: (إنّا خَلَقْنا الانْســانَ مِنْ نُطْفَة أَمْشاج نَبْتَليْهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيْعاً بَصِيْراً).وتم التلميح في هذه الآية الى ثلاث مزايا للانسان: الاولى امتزاج النطفة، ويستفاد هذا الامتزاج من لفظ (امشاج) جمع «مشيج» أو «مَشَج» (على وزن مَدَدْ) وتعني الشيء الممزوج، ولهذا معنىً واسع حيث يشمل اختلاط النطفة من

---

(١) «مجمع البيان» ج ٤ ص ٥٠٨، «الفخر الرازي» ج ١٥ ص ٨٥، «روح البيان» ج ٣ ص ٢٠٩٤، «الميزان» ج ٨ ص ٣٩١، ونقل هذا المعنى في تفسير «القرطبي» عن جمهور المفسرين (ج ٤ ص ٢٧٧٣).

[٣٨٠]

* * *

وفي الآية الرابعة وجَّهَ الكلام الى الناس قاطبةً، قائلا: (إنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَر وأُنْثى).بناءً على ذلك ليس هنالك ايُّ تمايز بين الاجناس والقبائل والشعوب، لانهم يرجعون الى اصل واحد: «أبوهم آدم والامُ حواء».ثم اشار الى فلسفة تصنيف الناس الى شعوب وطوائف مضيفاً: (وَجَعَلناكُم شُعُوْباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا)لا شكَّ انَّ اولَ شروط الحياة الاجتماعية هي معرفة الاشخاص ببعضهم، اذ لولاها لاختَلَّ نظام المجتمع البشري خلال يوم واحد، فلم يُعرف المجرم من البريء، ولا الدائن من المدين، ولا القائد من الرعية، ولا الائمة من التابعين، و... اُجَلْ.. اللهُ الذي خلقَ الانسانَ لمثل هذه الحياة وجَعَلَه اجناساً وقبائل وجماعات

[٣٨١]

* * *

وفي الآية الخامسة والاخيرة من البحث يعتبر «تأليف القلوب» اُحد الأدلة المهمّة على انتصار نبي الاسلام((صلى الله عليه وآله وسلم))، فيقول: (هُوَ الّذي أيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبالْمُؤْمِنِيْنَ ــ وأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ).ويثبتُ هذا التعبير بوضوح انَّ تأليف القلوب يعتبر أمراً حتمياً من اجل التغلُّب على المشكلات الاجتماعية، وقد خلقَ اللهُ هذا الاستعداد لدى البشر ولولاه لم يتسنَ التأليفُ بين القلوب، ولو لم يحصل فستضطرب حياة البشر الاجتماعية.ثمَّ يُلمِّحُ الى مسألة لطيفة وهي انَّ تأليف القلوب لا يتحقق بالطرق الماديّة، بل يمكن تحقيقه من خلال الايمان والاساليب المعنوية والقيم الانسانية السامية، فيقول: (لَوْ أَنْفَقْتَ مــا في الأرْضِ جَميْعاً مــا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبْهِم وَلكِنَّ اللهَ الَّفَ بَيْنَهُمْ)(إنّهُ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ).صحيحٌ انَّ هذه الآية زلت بخصوص اصحاب رسول الله((صلى الله عليه وآله وسلم))، الاّ انَّ من الواضح انَّ مفهومها عامٌ ويشملُ المؤمنين قاطبةً، كما اُشير الى هذا المعنى في تفسير الميزان.(١)انَّ المسائل الماديّة وبسبب ضيقها تكون مصدراً للنزاعات والصراعات، ولو

---

(١) «الميزان» ج ٩ ص ١٢٠.

[٣٨٢]

* * *

توضيحات:

هل للمجتمع روحٌ؟انَّ الأَحياء على قسمين وأغلبُها يعيش منفرداً ولا وجود اجتماعي فيما بينها حتى لأصغر صور الحياة الاجتماعية أي العائلة، وبعضها قد تخطّى هذه الحياة قليلا واخذ يعيش مع قرينهِ، ولكنّ قليلا من الحيوانات من يعيش حياةً جماعيةً، وبعضها قد كون حضارةً، كالنحل، والنَّمل، والأرضة وغيرها من الحيوانات.الاّ انَّ هذا الصنف (الحيوانات الاجتماعية) لها نوعان من النقص ايضاً: الاوّل: هو استحالة الحياة المشتركة بين المجاميع المتباينة (كنحلِ خليتين او بضع خلايا)، والثاني: انَّ حياتها الاجتماعية تتخذُ طابعاً واحداً باستمرار، اي انَّ النحلَ يعيشُ اليوم كما يعيش قبل مليون سنة.

[٣٨٣]

فالكائن الوحيد الذي يعيش حياةً جماعيةً غير مقيّدة وتتطور وتتكامل هو الانسان، والدليل على ذلك هذا النمو والتطور وسيادة العلم والعقل على حياته الاجتماعية.وهنا بحوث كثيرة لو اردنا الولوج فيها سنخرج من اطار البحث التفسيري ولكن يبدو من الضروري التذكير ببعض الامور:١ ــ ما هو منشأ رغبة الانسان للحياة الاجتماعية؟ ــ هنالك آراء مختلفة، ويبدو اكثرها صواباً هو انه مزيجٌ من الحوافز «الغريزية» و «العاطفية» و «الفكرية» فالعقلُ يقول ان التكاملَ ممكنٌ في ظل الحياة الاجتماعية فقط سواء كان معنوياً او عادياً، لأنَّه من البديهي اذا اراد فردٌ او اسرةٌ ان تعيش بانعزال عن الآخرين، فلا وجود لهذه العلوم والمعارف ولا هذه الصناعات والاختراعات والابداعات، فلا شك انّها حصلت من خلال استثمار تكدُس الطاقات الفكرية والجسمية، ونقل كلُ جيل تجاربه الى الاجيال الاخرى، واثمرت هذه الظواهر الجبارة من خلال تكدُّسها.ومن ناحية اخرى فانَّ الانسان يميل الى هذه الحياة من خلال حافز ذاتي وعاطفي، فهو يضجر من العزلة، ويشعر باللذة من خلال حديثه وجلوسه وقيامه مع رفاقهِ، وسجنُ الوحدة يمثل أقسى عذاب بالنسبة له، وقد اثبتت تجارب العلماء انَّ العزلة لو استمرت فستؤدي الى اضطرابات نفسية على مدى فترة قصيرة، وبغض النظر عن منافع التعايش الجماعي فان هذا يُؤكد على انَّ الانسان يرغبُ بطبعهِ في هذا التعايش.٢ ــ لقد اعتبر الاسلامُ الحياةَ الاجتماعيةَ للبشر من اهم مبادئه، ولم يهتم بها في العلاقات السياسية والاقتصادية فقط بل حتى في مسألة العبادات التي تعتبر علاقة بين الخلق والخالق، فاعطى للعبادات الجماعية (صلاة الجماعة) صلاة الجمعة ومناسك الحج، اهميةً لا مثيل لها.فماهية الصلاة، والاذان والاقامة تُحفزُ الجميع

لصلاة الجماعة، ويبرهن ضميرُ الجمع الوارد في سورة الفاتحة، والسلام الذي في خاتمة الصلاة، على ان

[٣٨٤]

الصلاة ذات صفة اجتماعية واداؤها فرادى يُعد صيغة فرعية.وقد أُعطيت الحياة الاجتماعية اهميةً بالغةً في الاسلام بحيث أُعتُبرَ كلُ ما يؤدي الى الاختلاف والتفرقة (كالحسد، قول الزور، والغيبة، والنفاق و...) من الذنوب الكبيرة، وكلُّ ما يؤدي الى السَّلام والوئام والاصلاح بين الناس جزءاً من افضل العبادات.٣ ــ انَّ تحقيق الحياة الاجتماعية للبشر ليس امراً بسيطاً، لأنه يحتاج الى توزيع القابليات والقدرات العقلية والجسمية المختلفة، وتخطيط دقيق، وتوزيع للاعمال، الى التنسيق والتآلف بين القلوب، وطبقاً للتعبير الذي ورد في تفسير الآيات فانَّ البشر كمواد البناء ــ الطابوق والصخور والقطع المختلفةــ التي اذا لم تكن فيما بينها وسيلة للربط والالتحام لم يتشيَّد منها بناءٌ شامخٌ، وهنا جاءت يد القدرة الالهية لمساعدة الانسان، ووضعت الخطة الدقيقة الرامية الى تأليف القلوب، وتوزيع القابليات العقلية والجسمية، وانواع الاذواق والفنون، ورفَدت الانسان بالمواهب العظيمة التي لن تدور عجلة الحياة الاجتماعية للبشر بدونها ابداً، ويُعبَّر عن مجموع هذه الامور احياناً بــ «روح المجتمع» والاّ فاننا نعلمُ أن ليس للمجتمع روح خاصةً غير ما ذُكر.من يا ترى أوْجَد هذه الروح الاجتماعية بكل ما فيها من مواصفات من اجل دفع الانسان نحو التكامل؟ فهل تستطيع الطبيعة العمياء الصمّاء التي لا عقل ولا شعور لها أنْ تُوجدَ هذا التخطيط، وهذه المودَة والرحمة، وهذه السكينة والاطمئنان، ونطفة الامشاج، وهذا التعارف العام، وهذا التآلف بين القلوب؟!لهذا تَعتبرُ الآياتُ المذكورة هذه الامور من آيات عظمةِ وعلمِ وقدرة الله تعالى.ونختتم هذا الكلام بالحديث الذي ورد عن النبي((صلى الله عليه وآله وسلم)) فيما يخص اهتمام الاسلام بالروح الاجتماعية للبشر، اذ يقول((صلى الله عليه وآله وسلم)):إنَّ المُسْلِمَ اذا لَقيَ أخاهُ المسلمَ فاخذَ بيَدهِ تحاتت عَنْهُما ذُنوبُهما كَما تَتَحاتُ الوَرقُ عن الشَجَرةِ اليابسةِ في يومِ ريح عاصف و «لا يفترقان» إلاّ غُفِرَ لَهما ذنوبُهما ولَو

[٣٨٥]

كان مثلَ زَبَد البحار!(١)..

كلمة الختام:

من مجموع ما جاء في بحوث هذا الكتاب المختلفة تتضح هذه الحقيقة بجلاء وهي انَّ المعشوقَ يتجلّى من كلِّ باب وجدار، وافاض بانواره على كلِّ موجودات الدنيا، ورسمَ اسماءَه وصفاتهِ

على جبين كلِّ الكائنات.فقد تجلّى بمائةِ الف من الانوار، كي نراه بمائة الف من الابصار، وهو قد اضاءَ شمساً في قلبِ كلِّ ذرة، واظهرَ آثار علمهِ وقدرتهِ في السماء والارض.وقد وُصِفَ في آيات القرآن بهذا الطريق وأحصى آياتهِ في الآفاق والانفس.فتكفي عينان، واذنان، وقلبٌ يقظٌ كي يرى المرءُ هذه الانوار، وان يسمع انغام التوحيد، وان يدعو خيرَ المحسنين الى القلب، ويستضيفه في هذه الخلوةِ الانيسة، وهذا العرش العظيم، ويخاطبه في جذبة روحية ويترنم بما يلي من الاشعار:لَبَّيكَ يا عالماً سرّي ونَجوائي ***** لَبّيكَ لَبّيك يا فَقْرى وَمُغْنائي
أدعوكَ بَلْ أَنْتَ تَدْعُوني فَهَلْ ***** نَاجَيتَ إياكَ أَو ناجَيْتَ إيائي
حُبّي لِمَولايَ أضناني وأسْقَمَني ***** فَكَيفَ أشكوا إلى مَوْلايَ مَوْلائي
يا وَيْحَ رُوحي مِنْ روحي ويا أسَفي ***** عليَّ منّي فإني أصل بَلْوائي(٢)
الهي! املأ قلوبَنا من حبكِ ومعرفتكَ والايمان بك.ربّنا! أفِضْ علينا نحن العطاشى من كؤوس معرفتك واجعلنا سكارى الى الأبد في جذبة روحية من جذباتك.يا مولاي! من الصعب طيُّ طريق معرفة ذاتك المقدسة إلاّ بلطفك ورعايتك وتوفيقك، فاجعلنا مشمولين برعايتك وفضلكَ وتوفيقك. آمين يا رب العالمين

ختام الجزء الثاني من نفحات القرآن ١١ / ٤ / ١٣٦٧ الموافق لــ ١٧ ذي القعدة ١٤٠٨

---

(١) «الطبراني» (بناء على نقل تفسير في ظلال القرآن ج ٤ ص ٥٧).(٢) روضات الجنان ج ٣ ص ١٤٨، الشعر لحسين بن منصور الحلاج.